الانفجار العظيم للنظام

نظرية كل الأشياء

أن تعرف ما جرى في الحلقة المفقودة أن تعرف كل شيء



دار الشفيق

محمد ياسين الأخرس

الانفجار العظيم للنظام

نظرية كل الأشياء

- الانفجار العظيم للنظام – نظرية كل الأشياء
- محمد ياسين الأخرس
- الطبعة الأولى عام 2011
- كمية الطبع 1000 نسخة

- دار الشفيق للنشر والتوزيع. سورية، دمشق،
  شارع بغداد. ص.ب:1481
  هاتف: 00963114447395.
  فاكس: 00963114473192.
- موافقة وزارة الإعلام على الطباعة:
  رقم 103641 بتاريخ 10-10-2009

محمد ياسين الأخرس

الانفجار العظيم للنظام

نظرية كل الأشياء

تحرير:

د.آغوب غاريبيان

د.محمد بشر شهاب الدين

عبد الحميد الهاشمي



المقدمة

أن يشكل كل فرد منا صورة شاملة عن الوجود* يتحدد مكان الجنس الإنساني فيها، وتسمح بإضاءة طبيعة ما نبذله من نشاط. هذا أمر قد أصبح مسألة ملحة بالنسبة للإنسان المعاصر، بل ربما تُرتَّبُ على أنها المسألة الأولى التي يجب البحث فيها، والسعي الجاد في الوصول إلى جواب واضح عنها.

وأن يكون هناك جواب على هذه المسألة، فهذا شائع في أدبيات أرشيف الجنس الإنساني. وهو أمر تصدت له ثقافات عديدة، فحدثتنا في خطابها عن الوجود الفيزيائي والإنساني، مرتكزةً إلى معطيات مستقرة في داخلنا، لا ينكرها الحس المشترك عند كل الناس. ولكن التدقيق فيها، يكشف فجوات كثيرة وكبيرة في شبكة تصوراتها، تدفع بمتلقي الجواب إلى حيرة يتيه فيها، تجعله يتحسر على ما بذله من جهد في البحث، وتصل به إلى نتيجة مفادها، أن عدم الخوض في البحث كان أجدى وأكثر إيجابية.

إن غنى الحياة الإنسانية وتعقد مظاهرها بسبب التكنولوجيا، جعل إطلاق بحث في هذا المجال ضرورة لكل فرد يعيش أجواء القرن الحادي والعشرين، لكي يتفاعل مع ما يطرحه الحدث الإنساني على كافة محاوره،

---

* سيركز الكتاب على مصطلح الوجود، وهو يقصد به كل ما ينضبط حضوره من قبل الإنسان، سواء عن طريق حواسه، أو عن طريق التكنولوجيا. وهكذا فالمصطلح يشمل الوجود الفيزيائي، والوجود الاجتماعي الإنساني بكل عناصره. ويميل المصطلح غالباً للتركز في دلالته على الوجود الاجتماعي، مراعياً أن هذه الدلالة هي أساس الإبهام والغموض.

ولكي يشكل استجابة له من خلال نشاطه الفردي الحر تلتقي مع ضوابط النظام العام، وتكون نبعاً مغذّياً لحالة التقدم الإنساني.

لم يعد الفرد جزيرة مستقلة يعيش معتمداً على معرفته الشخصية، يستخرج منها طبيعة موجّهات سلوكه التي يحافظ بها على وجوده. وكذلك لم يعد الفرد يتواصل مع الآخر تبعاً لموقعه التصنيفي اجتماعياً، الذي كان يجعل التواصل محدوداً، ويتسم بسمات يقل فيها لون الحب للآخر، ويغلب عليها موقف العداء المرتكز إلى انغلاق الفرد على تصوراته المحدودة بالتصنيف الذي يعيشه.

لقد أطلق العلم الحديث صورة جديدة ووحيدة للوجود، أخذ كل فرد منا يتلقاها بالتسليم تدريجياً، وهذا ما أخذ يضغط على أسوار الانغلاق التي حددت كل فرد منا كجزيرة مستقلة، يعيش على تصوراته الخاصة المبنية على معرفته الشخصية. إن صورة الوجود التي نتعامل معها تذهب لكي تكون صورة واحدة، لم تعد خبرة الإنسان الفرد أساسها، بل أصبح وجود الخارج الموضوعي هو قاعدتها. لم يعد الفرد في مطلع القرن الحادي والعشرين يتعامل مع ما هو موجود خارجه، كعالم يرسم صورته من منطلق ذاتي، ويمنحه ألواناً تنبع من شخصيته الفردية، بكل عناصر الغموض التي تكتنفها. بل لقد أصبحت صورة الوجود خارج الإنسان ذات قواعد موضوعية، وتتجه إلى التخلي عن سمة الغموض، مما جعل مستويات ضغطها على الصورة الفردية كبيرة، والتي كان كل فرد يرسمها متأثراً بمكونات شخصيته، من بنية بيولوجية، وتربية، وتجربة حياتية شخصية.

لقد أخذت الصورة الموضوعية للوجود، تتسرب في ثنايا الصورة المنشأة بالمعرفة الشخصية للإنسان. لقد أخذ كل واحد من أبناء هذا القرن،

يجد قاعدة موضوعية محددة وواضحة، تشكل قاعدة شراكة في التصورات مع الآخر، أخذت تنتج حبال ربط جديدة بين الناس. لقد أخذت وحدة الصورة الخارجية، تزيح بالتدريج خصائص الألوان الذاتية، التي كانت تتغذى من ذاتية الفرد، ويشكّل من خلالها تلاؤمه مع خارج ذاته، مما كان يسمح له أن يتحرك في أمواجه المتلاطمة، حاصلاً على السلامة، ومحققاً النجاح.

هذا الانقلاب الجذري في رؤية كل فرد منا لكل ما حوله، أخذنا نحسه في مطلع القرن الحادي والعشرين، وشرع ينسرب في نفوسنا، فيقبله بعضنا ويستسلم لتياراته، مما يجعلهم أفراداً ذوي وجود عالمي، ينظرون إلى الإنسانية كلها على أنها وجود واحد، لا تفصل حدود بين مجتمعاتها. ويتوصلون بنتيجتها إلى أن الجميع ينتسبون إلى هوية توحدهم، وتحولهم إلى فريق عمل متجانس، يسعى لتحقيق عمل إنساني واحد. بينما يتردد البعض الآخر بالانضواء تحت هذا التيار الطاغي، مؤسسين موقفهم الرافض على منطق لا يتسم بإمكانية الشمول والإحاطة بكامل الإنسانية، مما يجعلهم يستسلمون للانقسامات الواقعية بينها. ويعتبر المنضوون تحت هذا الموقف، أن خصوصية تجربتهم، هي الأغلى وهي الأثمن، وأنهم يرفضون هذه الإنسانية المزعومة، حفاظاً على هذه الخصوصية التي تنبع بشكل من الأشكال من فرديتهم.

وبمراقبة حجج الفريقين؛ نلاحظ أن أتباع الفريق الأول يركزون على انتمائهم إلى إنسانية شاملة لا يخرج عنها فرد من الأفراد، تزيل الحواجز كل الحواجز؛ الناشئة من الجندر واللون والعرق والثقافة والدين والموقع الجغرافي والطبقة الاجتماعية. وهم في دعوتهم هذه يحاولون أن ينشؤوا خطاباً إنسانياً، يتجاوز كل آثار التصنيفات السلبية. ومازال مفكرو هذا الاتجاه يجدُّون في إزالة سحب غموضه وإبهامه، ولكنهم ما زالوا يجدون

عجزاً فاضحاً في كشف مرجعيته، التي تؤسس لهذه الإنسانية التي تنمو وتنتشر. بينما يؤكد أتباع الفريق الثاني على بقاء الجزر التي تتحصن فيها المجتمعات والدول، وتنحصر فيها مفصولة عن بعضها، استجابةً للأثر السلبي لحدود التصنيف؛ فالاختلاف البيولوجي بين المرأة والرجل في رأيهم حد فاصل لا يمكن تجاوزه، وألوان بشرتنا معيار تصنيف بين الناس مثبت لهوية لا يمكن تخطي حدودها، وكذلك أعراقنا وثقافاتنا ودياناتنا. كل هذه الحجج تشكل مرجعية هذا الموقف الداعي للخصوصية، وتفرض على المستسلمين لها الانغلاق ضمن حدودها.

تقف الحجج العملية للفريقين متخندقة ضد بعضها، ويحاول كل فريق أن يدعم خطابه بتقديم أدلته المقنعة، وتعزيز موقفه بكل عناصر الصورة التي يرسمها منطقه للوجود. ولم ينحصر هذا التجاذب والتعارض في مجال الأفكار، بل مدَّ خصائصه إلى ساحة الحياة العملية؛ فتصادمت التيارات، ونشأ عن تصادمها صراع علني، شمل- بالإضافة إلى ساحة الحجج والأدلة الفكرية- النشاط العملي، منتجاً بؤر حروب في مطلع القرن، أخذت الإنسانية تكتوي بنارها هنا وهناك، فقد علا الضجيج والصراخ ساحة الأرض كلها. ويكاد هذا التصادم- بكل مستويات شدته- يشمل كل فرد ولا يغادر أحداً. محرضاً كل فرد منا، ودافعاً به للمشاركة في معسكر من المعسكرين، لا يستطيع أحد أن يكون بمنأىً عن الخوض فيه.

يضم هذا الكتاب في ثناياه رصداً لحالة الانقسام هذه بالخطوط العريضة، ويُظهر كيف تشكل هذا الإعصار شيئاً فشيئاً، وكيف تغذّي جهود كل الأفراد نموّه وهيجانه، ويوضّح كذلك طبيعة مساره الذي يتحرك فيه. إنه زلزال يصدّع كل حدود التصانيف التي ترسخت في زمن التجربة

الإنسانية*، قاسماً الإنسانية كلها إلى أطراف متنازعة على هذا المحور. وهو يكشف خلال رصد هذه الظاهرة أنها تشكل جزءاً من حدث كوني، لم تعد آثاره محصورة في حدود الإنسان، بل أخذت تمتد لتلامس نظام الطّبيعة بغموض وخفاء.

سيبقى هذا الكتاب يؤكد على ما بدأت به هذه المقدمة، من أن التعامل الإيجابي والمثمر مع كل الذي يجري الآن، إنما يرجع إلى أصل واحد، يظهر جوهره في مضمون الصورة التي يرسمها الإنسان للكون من حوله، ولطبيعة وجوده في هذا الكون. وهذا ما يؤكد على ضرورتها كأساس لوضع استراتيجيات عامة، تصلح أن تشكل قاعدة لإنتاج خطط وبرامج للمستقبل، تدفع بتطور الإنسانية في طريقه الإيجابي، مبنيّاً على ما أنتجه الجنس الإنساني في تاريخه الطويل على الأرض. إن العمل على إنتاج مثل هذه الصورة، هو البؤرة التي تجذب أعلى الاهتمامات الدرسية، والتي يحاول كل باحث- من موقع عمله الذي يعمل عليه- أن يساهم في تشكيلها، وأن يكون جهده أحد الألوان التي تشكل لوحتها البهية والمضيئة.

العمل على إنتاج صورة للوجود، ولطبيعة دور الإنسان فيه، ليس ترفاً بحثياً يلجأ إليه معتزلون في بروجهم، لا يعيشون معاناة البشرية، ولا يتجرعون غصص شقائها وعذابها. بل هو دخول البحث الاستراتيجي بكل خصائصه إلى الساحة الأساس الذي تنبع منها معاناة الإنسانية في هذا القرن، وفي قرون الألفية الثالثة التي نعيش افتتاحيتها.

إن معاناة الإنسانية كما تؤشر لها أحداث السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين، لا تتعلل بإرجاعها إلى فقر في الطبيعة، حيث أنها لا

---

* يدل مصطلح "التجربة الإنسانية" على مرحلة تشمل كامل زمن وجود الجنس الإنساني على سطح الأرض، منذ تشكله كجنس حي متميز بدايةً، وحتى وقتنا الحاضر، حيث يظهر نشاطه كظاهرة كونية بدأت تؤثر في النظام البيئي للأرض.

تستطيع أن تقدم للبشر ما يحتاجونه من عناصر مادية لاستمرار وجودهم، وكذلك لا ينبع من انقسام البشرية إلى أخيار وأشرار، يسعى كل منهم إلى القضاء على الآخر، وإنهاء دور نشاطاته العملية. ولا يتشكل هذا الشقاء أيضاً من رعونة الإنسان وانحرافه عن الطريق، حين أخذت مخترعاته التكنولوجية تفسد مناخ الأرض، وتنذر بدمار الحياة عليها. ليست المعاناة نابعة من هذا كله! إن تحديد جوهرها يحتاج إلى صورة واضحة ومقنعة تقدمها الدراسات الاستراتيجية عن طبيعة النشاط الإنساني المتشكل من مساهمة كل فرد فينا. إن افتقاد صورة شاملة كهذه يظهر تلك التعليلات غير مقنعة، ويبقينا في تيه لا نهاية له.

تقديم صورة كهذه، هو ما يعتبره هذا الكتاب هدفه. فهو يتوجه إلى بؤرة هذا البحث، فيحاول أن يقدم صورة جامعة وكلية لوجود الإنسان عبر زمن تاريخه، متجنباً النظر إليه كحادثة مقطوعة الصلة عن الكون الفيزيائي، من غير الممكن الكشف عن طبيعة الروابط والعلاقات بينهما. إن هذا الكتاب ينطلق من رؤية يلخصها على الشكل التالي: **كون مادي واسع، انطلق حضوره بانفجار كوني عظيم، يقدر زمن حدوثه تقريباً بـ 15 مليار سنة. وكان جوهر هذا الوجود الفيزيائي هو عمل النظام جوانياً. وخلال تطوره شكل الكون المجموعة الشمسية، حيث بدت القوى الحاكمة للكون الفيزيائي تعمل بانسجام. وكانت الأرض كوكباً برزت فيه تفاعلات مركزة لهذه القوى، أنتجت الحياة بأشكالها المعروفة. ومن خلال المادة الحية التي اشتركت مع الكون الفيزيائي بظاهرة عمل النظام جوانياً، تحقق كمال لخيارات الحركة الحية خلال سلسلة التطور الحي. مما سمح بانفجار للنظام، أطلق- لأول مرة- بدء عمل النظام الحي***

* الوجود الحي بارزاً في تنوع كل متجسداته هو وجود مادي، يفترق عن الوجود المادي الجامد في الكون بمستوى تطورٍ في محور الحركة. فالحركة أسلوب وجود الكون بكامل موجوداته، تبدت في الطبيعة الجامدة والطبيعة الحية بعملها الجواني. ومع وجود الإنسان أخذت تظهر بداية

الكوني برّانياً. وهذا ما شكلّ بين الأحياء "الجنس الإنساني"، نتيجةً بدء واقعة التوحيد الكوني. وبعد اكتمال عملية التوحيد بين كتل المادة الحية (الاجتماع الإنساني)، ومن خلال مسار التطور البرّاني، انطلقت موجات الانفجار لتأخذ في تشكيل المادة الجامدة لتستجيب لخط التطور الجديد، من خلال اختراعات التكنولوجيا أولاً، وكذلك ببداية تغيير في مناخ الأرض وبيئتها تالياً.

أنتج الكتاب تصوره، كاشفاً أن نشاط الجنس الإنساني شكلّ إطلاق حركةً موحَّدة تمتلك قدرةَ تطوير الكون المادي من خارجه (إعمار الكون)[*]، بعد أن أكمل نظام الكون في زمنه السابق بناء مادة الكون الفيزيائي جوّانياً. وفي كل حركة أداها فرد أو مجموعة من جنسنا العظيم عبر تاريخه، كان يتحقق إنتاج حركة موحّدة من موقعي النظام الحي الخارجي والداخلي. لقد نُظِمَ عمل التوحيد بمحور اصطلح على تسميته "السلوك الإنساني". وكان سلوك كل فرد منا، وبالتالي كل جماعة مهما كان مستوى تطورها، مُساهمةً في إنضاج عملية التوحيد المتجهة إلى كمالها، بتوسيع دائرة عملها من المادة الحية التي صدرت عنها، إلى ساحة مادة الكون الفيزيائي، مركّزةً تطورّه على فاعلية الموقع الخارجي للنظام.
[†]

أشكال عملها البرّاني كما تبدّت في أشكال النشاط الإنساني. فالنظام الحي في الكائنات الحية حين كان يعمل جوانياً، كان مقيماً للمادة، مطلقاً لأنماط الحركة الفردية من متجسداتها. وحين انطلق انفجار النظام في مستواه الحي، ظهر حضور النظام الحي الشامل العامل خارجاً، وتشكل من هذا الحضور مسار تطور جديد للكون أصبح برّانياً. وكان النشاط الإنساني هو دائرته الأولى.

[*] سيستخدم الكتاب مصطلح "**إعمار**" لكل الإنشاءات التي سوف تبدا بالتحقق على يد الإنسان. وذلك بسبب خصائص مسار التطور الجديد، الذي أخذ ينبني برانياً. وبذلك يتم استخدام مصطلح "**بناء الكون والحياة**" للدلالة على متحقق مسار التطور الجواني المتشكل بالانفجار الكوني العظيم.

[†] أرجو ألا يفاجئك هذا التركيز في هذه الفقرة، وذلك لأن الكتاب كله سيدور حول شرحها ليزيل عنها استعصاء الفهم جاعلا منها حقيقة علمية سهلة التداول.

واقعية هذه الرؤية تعتمد على تطابقها مع ما جرى كما رصده أرشيف الجنس الإنساني، وكما بدأ العلم يكشف عن مجرياته. إن **اختراع التكنولوجيا في القرن الثامن عشر يعتبر في سياق هذه الرؤية هو البرهان التجريبي على واقعيتها**، الذي تم به توسيع دائرة عمل الحركة الحية الموحّدة إلى ساحة المادة الجامدة. وبعد ثلاثة قرون من اختراعها، أخذت هذه الحركة الموحدة تؤثر في بنية الطبيعة، محدثةً بدء تطور جديد في المناخ والبيئة. وهذا كله يأتي معللاً من هذه الرؤية، ويتفق مع استنتاجاتها. وهو ما سيسمح بتولُّد نظرة كليّة جديدة للوجود الإنساني، تشكل مدخلاً لفهم نشوء الكون الفيزيائي كله.

وإذا كنت قارئي العزيز ابن القرن الحادي والعشرين، تتحسس هذه الإشكالية الناجمة عن عدم وجود تصور مشترك وشامل للوجود كما حاولت أن تشير إليها هذه المقدمة، فإننا ندعوك إلى مرافقتنا في هذه الرحلة المشوّقة، التي سيحاول هذا الكتاب الدخول في عباب محيطها المائج، جاداً في تشكيل صورة واضحة ومضيئة، تمتلك الانسجام والجمال اللذين هما قاعدة إقناعها، والأساس الذي سيجعلها صورة "لكل الأشياء". إن صورة كهذه تكشف ماهية وجود الإنسان، وتقرأ متكونات تاريخه التي تأرشفت في أدبياته المختلفة، مما يجعلها صالحة بكل جدارة أن تكون قاعدة برمجية لرسم خطط مستقبله، من خلال كشفها لملامح الدور الكوني للإنسانية، الذي يأتي منسجماً مع صورة الوجود المادي الفيزيائي الحاضن لهذا الإنسان.

لماذا الإنسان؟

لا يوجد فرد منا نحن أبناء البشر، يمكن أن يكون إنساناً دون أن يحمل صورة شاملة لوجوده ولمحيط الخارج الذي يحتضنه. وهذه الخاصية هي جوهر الإنسانية التي أعطت جنسنا تميزه عن باقي الكائنات الحية التي تعايشنا على سطح أمنا الأرض. وهي التي جعلت حركتنا الحية التي نطلقها من أجسامنا للحفاظ على وجودنا، تسير إلى إنتاج هدف زائد على الحفاظ على وجودنا، وتهتدي بنورٍ لذلك. مما مكنها أن تمتلك خاصية التأثير في الوجود الخارجي، وسمح بتراكم هذا التأثير، حتى وصل عالمنا إلى الشكل الذي نعيشه في بداية القرن الحادي والعشرين، الحافل بنشاط بشري يتغذى من مجموع سلوكنا الفردي، ومن حركة التكنولوجيا متداخلة معه. وهو ما جعل عيشنا نتيجة ذلك، مختلفاً عن النمط الذي عاشه البشر خلال تاريخهم الماضي قبل العصور الحديثة.

إنشاء تصور عن الوجود المحتضن لنا، محتوياً على وجود أجسامنا وطبيعة حركتنا، هو جوهر هذه الإنسانية التي تميزنا. إنه معدن فخارنا، وسبب امتلاكنا لهذه المكانة بين الموجودات؛ سواءٌ كانت أرضاً جامدة نتحرك على سطحها، أو كانت مخلوقات حية تعايشنا على الأرض، وتشاركنا في الحياة أصلنا الواحد الذي ننتمي إليه.

إنها حركة حية جديدة انطلقت من أجسام أبناء جنسنا، أنتجت آليتُها قاعدة علاقات وجودية جديدة. فقد توحد أفراد هذا الجنس بها في ظاهرة الاجتماع بنمط جديد، وصار نشاطهم للحفاظ على وجودهم معقداً ودقيقاً. إن عملية الربط الضروري بين وجود الفرد، وبين المجتمع كوجود أكبر منه، سمحت بإنشاء بدء خط تطوري حي جديد براني، لم تعد البيولوجيا هي ساحته التطورية، كما كان الشأن في تطور الحيوان. لقد أصبح تنظيم الاجتماع هو ساحة تراكم هذا التطور، الذي يتغذى من نشاط كل فرد فينا،

حين يسعى للحفاظ على وجود جسمه على محاور الأمن والغذاء والتكاثر. لقد أدت قوانين هذا التطور الجديد إلى إنتاج قاعدة بناء وجودي جديد، لم يتوقف عند حدود توحيد الإنسان في المجتمع، بل انتقلت آثاره التطورية إلى المادة الجامدة (التكنولوجيا)، وهو ما جعل تعالي هذا البناء واتساعه يشكل اللغز الأكبر، متحدياً كلاً منا، ودافعاً به ليسأل عن هذا كله، كيف تشكّل؟ وما النهاية التي سيذهب إليها مستقبلاً؟.

التيار الجامع لمساهماتنا الذي أخذ كل فرد منا يصب نشاطه فيه، إنما نبع من أصل واحد، يمتلكه كل واحد من البشر باستعداد مشترك، ولم يُحْرَمه فرد واحد من أفراد الجنس الإنساني على مر أزمنة وجودنا على سطح الأرض. وهذه القدرة قسمة مشتركة بيننا، يمتلكها كل واحد منا لحظة دخوله ساحة الحياة بالولادة، من خلال استعداده التام المغروس في بنيته البيولوجية. إن كل فرد منا يمتلك جسماً مادياً حياً، يطلق حركة حية على محاور(الأمن،الغذاء، التكاثر)، يحافظ بها على وجوده المادي. ويلازم هذه الحركة المادية ولا ينفصل عنها قدرةٌ على رسم صورة الوجود خارجنا، وموقع الفرد في هذا الوجود. وهكذا نندفع حسبها في مسارب ومحارك من خلال موقعنا أمام الوجود كله كآخر، ونقيم من خلال هذا التقابل علاقة تسمح لنا أن نؤثر فيه، ونؤسس لبناء لم تمتلك كل الأجناس الحيوانية إنشاء مثيل له بحركاتها. بهذه الحركة المنطلقة على خطوط الخريطة الكاشفة للوجود من حولنا، أنتجت الإنسانية ما أنتجت خلال تاريخها على سطح الأرض.

ذواتنا المفردة تمتلك قدراً محدوداً من هذا الضوء على قدِّها الفردي، وهو ضوء يسمح لكل فرد منا أن ينطلق في مسارب ومحارك دقيقة جداً، سمحت لعلاقة الفرد بالآخرين، الذين يتحركون معه في الساحة ذاتها، أن تكون إيجابية ومفيدة. لقد أثبت تعالي البناء الذي شيّده جنسنا الإنساني أن

هذا التحرك كان تعاونياً بنّاءً، وليس تصادمياً مدمّراً كما يبدو ظاهرياً. لقد راكمت علاقتنا مع بعضنا، في سياق سيرنا على خطوط الخريطة، وعلى مسارب ومحارك الواقع، إنشاء وجود جديد، تشكلت خصائصنا الاجتماعية حلقة أولى فيه، ثم تبعته هذه الأبنية المادية التي أشادتها الإنسانية من خلال اختراعها "التكنولوجيا". إن الواقع الذي نعيشه في مطلع القرن الحادي والعشرين، يؤكد بلا أدنى شك، أن حركتنا الإنسانية الممتلكة لقدرة الكشف للوجود، هي حركة بنّاءة وإيجابية، وأن الكون المادي المنتج من الانفجار الكوني العظيم، قد مُنح بوجودنا مستوىً جديداً من عملية البناء، أنتجها هذا الجنس العظيم بنشاطه المتميز، من خلال حركته، التي يطلقها على محاورها البناءة بهدى وبصيرة. وهذا ما سمح لنا بالإعلان أن التطور الكوني قد أطلق عمله برّانياً، وأن مقدماته تدل على تشكيل وجود جديد للكون المادي.

برنامجنا الشخصي الذي يولّد لكل منا الضوء اللازم، لكي يسير في الواقع على الدروب المُثْبَتة في خريطة الكون، لنساهم في عملية إعمار الكون، تَميزّنا به من خلال بنية بيولوجية مخصوصة، تطمح دراسة الخريطة الجينية عند الإنسان إلى كشف خصائصها. وتبعها بعد ذلك تربية منسقة معها، ترعى فيها الأسرة أطفالها. ثم تلاها أفق ضوابط وتوجيه سادت في المجتمع، الذي يعيش فيه كل فرد منا. هذا البرنامج هو أساس اهتداء كل منا إلى الدرب الذي يمكن أن يسلكه، ويطلق من خلال موازنته للخيارات الممكنة حرية تحديد المسار على دروب ومسارب الواقع، الذي حملت الإنسانية كلها خريطته. وبذلك صار لكل فرد منا معرفة شخصية امتلكها في داخله، وكانت على قدّ وجوده، تشكلت من استعداد بيولوجي، ومن تربية أسرية، ومن ضبط وتوجيه مجتمعي.

المعرفة الشخصية لكل منا، هي في أساسها قاعدة تواصل مع الآخر، وليست بناءً فردياً تحصره أسوار ذواتنا، تسجننا في دواخلنا، وتحوّلنا إلى جزر معزولة لتبقينا أسرى فرديتنا كما هو الشأن في أجناس الحيوانات. إنها تركيبة تفرض التشارك مع الآخر، لتشكيل ورشة بناء وجودية، أنشأت أبنية الإنسان الاجتماعية أولاً، وشيدت عليها تالياً هذه الأبنية المادية التي ننعم بمستوى متقدم منها في قرننا الحالي. والروابط بين الأفراد في ورشة العمل هذه، تتحقق بتواصل زائد على التواصل الجسدي الشائع في الكائنات الحية الأخرى، وترتكز هذه الزيادة على المعرفة الشخصية التي امتلكها كل فرد منا. لقد سمح هذا المستوى الجديد من التواصل لكل فرد أن يتحول إلى عنصر في فريق عمل، شكلّ ورشة بناء وجودي، دلت نتائجها أن منحىً تطورياً جديداً قد أُطلق في الكون الفيزيائي.

الخريطة التي رُسمت للوجود، والتي يهتدي بها كل فرد منا، تشكلت تدريجياً نتيجةً لهذا البرنامج الداخلي، الذي منح كل فرد منا معرفته الشخصية. وقد قامت علاقة تبادلية مع الآخر (إنساناً وطبيعة)، خلال تعاقب زمن وجودنا، متراكمة جيلاً بعد جيل، ومستخدمة ومنمّيةً مخزون هذا البرنامج، مما وسَّع المساحة التي شملتها هذه الخريطة. لقد حفظت أدبيات أرشيف تاريخ الإنسانية المتنوعة والمتعددة، كيفية تحقق نمو خريطة الوجود التي تميزت الإنسانية برسمها، وكيف فرض مرور الزمن تغيرّاً تاماً في طبيعة المعرفة التي حملها كل فرد منا، في كل جيل من أجيال هذا الجنس الإنساني العظيم. إن أدبيات الأرشيف التي صيغت باللغات الإنسانية المتعددة، تكشف لنا عن طبيعة صورة الوجود(الخريطة) في كل مرحلة من المراحل، وكيف كانت تشكل ساحة تفاعلات معرفتنا الفردية، مانحةً لكل فرد منا الكشاف المناسب، الذي يسمح له بالتحرك

المبصر على دروب هذه الخريطة، ليساهم مع الإنسانية تشييد بنائها متعدد الطبقات.

إنها علاقة ضرورية بين معرفتنا الفردية وبين دروب الخريطة ومسالكها. وهي تسمح لحركة كل منا أن تنطلق بكامل الانسجام، ليحافظ بها الفرد على وجوده الشخصي، من خلال دوافعه الحية المحددّة بالأمن والغذاء والتكاثر، بالإضافة إلى إسهامه بجهده الشخصي في عملية البناء الجمعية. ويكشف نمط حياتنا المعاصر بوضوح إلزامية هذه العلاقة، وكيف أنه ليس مسموحاً لأي فرد إلا أن يستجيب لها، في كل مستويات توسعها. متراكم هذه الإضافة هو ما انتزع أبناء جنسنا من أن يبقى الفرد منهم معزولاً في حدود جزيرة فردية أو اجتماعية مغلقة، عازفاً عن هذه المساهمة بجهده في نمو هذا التراكم.

من هذه العلاقة الحتمية الحاكمة لكل فرد بالإطار المحيط به (الخريطة)، ومن خلال تحليل دقيق لطبيعة الدروب والمسالك التي ينطلق عليها كل فرد بمعرفته الشخصية، يتضح أن المسارات التي يرسمها أفراد الجنس الإنساني ضمن حاضنهم الخارجي، أنتجت- حتى هذه اللحظة في مطلع القرن الحادي والعشرين- ثلاثة تشكيلات (الدين، الفلسفة، العلم)، انبثقت كل منها من نقطة انطلاق مخصوصة في رؤيتها للخريطة، أعطت لكل تشكيلٍ انسجامه، وسمحت لعلاقة الفرد مع الخارج أن تعمل إيجابيّاً. وقد امتلكت هذه التشكيلات خصائصها العملية من خلال هذه الإيجابية، ولكنها لم تتطابق بسبب ماهية التطور الإنساني النازع للتقدم دائماً، وهذا ما أوجد الاختلاف بينها.

إن صور الوجود التي أنتجتها هذه التشكيلات، والتي يتوزع عليها أبناء الجنس الإنساني حسب هدي معرفتهم الشخصية، اتفقت على ثلاث نقاط،

لم تختلف عليها أبداً. **أولها** وجود الإنسان الفرد الساعي للحفاظ على وجوده، من خلال إطلاق حركته على محاور(الأمن، الغذاء، التكاثر). **وثانيها** وجود الجنس الإنساني كورشة عمل جماعية يتعاون أفرادها في بناء تشييدات الكون الجديدة. **وثالثها** طبيعة مادية تحضن الحياة في كوكب الأرض، وتشكل مع الكواكب والنجوم بنية كونٍ، انسجمت أبنيته مع الأبنية التي شرع الإنسان في إنتاجها.

يمكن- مع شيء من التجوّز والتعميم- أن نصنِّف التشكيلات التي تهتدي بها معرفة كل منا في مطلع القرن الحادي والعشرين في ثلاثة حقول أساسية، تتوزع حسب نقطة انبثاقها، وطبيعة رؤيتها للخريطة. وهذه الأصناف قد ضبطت خصائصها في أدبيات محددة من أرشيف الجنس الإنساني. وهي تتكامل خلال عكسها لخريطة الوجود الشاملة، وتتفاعل فيما بينها محققةً تنمية مساهمة كل فرد منا في إنشاءات الوجود المادية. وهذا التفاعل يجعل كل تشكيلٍ من هذه الثلاثة، ركيزة موضوعية لا غنى عنها، لتَحَقُّقِ مساهمة الفرد والمجتمع والإنسانية في الإنشاءات الجديدة للبناء المادي في الكون (إعمار الكون).

عزيزي القارئ دعني أغادر بك هذا الدرب من دروب العرض الذي اخترته في الفقرات السابقة، وأنتقل بك إلى درب آخر، يبتعد عن هذا الأسلوب من العرض المعتمد على دلالة الخطوط العريضة، وأنزل بك إلى مستوى فيه تدقيق أكثر. وأرجو أن تكون على ذكر دائم، لما قدمته الفقرات السابقة، وما أكدت عليه، لأنه يشكل الأساس الذي سيشيَّد عليه فهم شامل لكل عناصر ظاهرة الوجود الإنساني. إن تميز الإنسان هو لزوم امتلاكه صورة للوجود، تحتوي وجود الإنسان الفرد الساعي للحفاظ على حياته في مستوى، والجنس الإنساني كفريق عمل واحد في مستوى أعلى، والطبيعة حاضناً إيجابياً له. مما ولد علاقة ضرورية وإيجابية بين معرفته

الشخصية وبين الصورة الخارجية، تسمح له بالتحرك بسلاسة وفاعلية، لتغذية مستمرة لا تتوقف للإنشاءات الجديدة لإعمار الكون المادي.

تصنّف صور الوجود الناتجة عن هذه التشكيلات تحت مصطلحات ثلاثة، عنونتها ولخصت خصائصها. تولدت هذه التشكيلات في أزمنة تاريخية متعاقبة، كان أقدمها صورة الوجود التي رسمت بالدين. وتلتها في التطور صورة ثانية رسمتها الفلسفة، التي ارتبط اسمها دائماً بالفلسفة اليونانية. وتلا هاتين الصورتين، صورة ثالثة هي ما أخذ العلم في إنشائه، منذ أن انطلق بخصائصه الموضوعية والتجريبية في القرن السادس عشر. وهذه العناوين الثلاثة لصور الوجود، سمحت لمسيرة الإنسانية بإنشاء جديد بناء الكون المادي. وها هي الإنسانية تتعامل في مطلع القرن الحادي والعشرين بهذه الصور مجتمعة، بطريقة فيها تزاحم وتنازع فيما بينها، تحاول كل منها التأكيد على أن صورتها هي المطابقة للواقع، وأنها الأحق بأن يسود استعمالها.

ما يحدث واقعياً، في ساحة ورشة الإعمار التي شكلتها الإنسانية لإنشاء البناء الجديد للكون، إنما يشكل حيز التطبيق لخطٍ جديدٍ في تطور الكون. ويشكل البحث فيه- بدون مستوى نظري، يحدد عناصره، والتفاعلات الإيجابية والسلبية فيه- تيهاً لنا جميعاً، نضيع في دروبه، حائرين متسائلين. ولا شك أن تيهاً مخيفاً جداً مثل هذا سيكون نسخةً مكبّرةً عن تيه (بني إسرائيل) في صحراء سيناء*، حين جُهّزوا لتشكيل المعرفة

* تيه بني إسرائيل الممتد على أربعين سنة حسب نص التوراة، هو إشارة لحالة التعلم التي اكتسبها كل فرد من أفراد بني إسرائيل، من تعليم النبي موسى لهم خلالها. وقد انتهى هذا التيه بوضوح طريق المسيرة بالنسبة لهذا الخط من تطور الجنس الإنساني الذي رصده النص التوراتي بإشاراته الرمزية. وكان انتهاء التيه إعلاناً واضحاً عن انطلاق محطة جديدة من محطات التاريخ الإنساني، الذي تنعم الإنسانية الآن بثماره. وهكذا يمكن أن تتضح الدلالة الرمزية لسفر الخروج بهذه الرؤية التي يقدمها كتابنا لوجود الجنس الإنساني.

الشخصية لكل فرد منهم. ولتجاوز ساحات هذا التيه المُخْوِف، لا بد أن أعود بك قارئي العزيز إلى حيّز البحث النظري بكل خصائصه التي تحتملها طبيعة هذا الكتاب، والذي سيمكننا من استخدام أدوات بحثية إيجابية، تساعدنا على تشكيل البناء الفكري لنظرية، تصلح أن تسمّى بالعنوان الذي أطلقه آينشتاين "نظرية كل الأشياء".

الجزء الأول: صور ثلاث لوجود واحد!!

الفصل الأول: من المعرفة إلى العلم، رحلة الداخل إلى الخارج

العلم مصطلح يدل استخدامه في أدبيات أرشيف الإنسانية، على مستوى من انكشاف الكون، يمتلك الإنسان قدرة تلقيه بفهمه، مشكلاً منه معرفته على قدّ فرديته. وبدون أن أدعي أنني استقصيت كل النصوص التي استخدمت هذا المصطلح، وأعطته دلالته في لغة الإنسان على اختلاف مراحل ظهورها المتطور، فإن لفظ "العلم" منذ القرن السادس عشر قد حمل دلالة مخصوصة، سمحت للعلماء المستخدمين له، وللمفكرين الذين حاولوا تحديد دلالته، أن يضعوا له دلالة محددة. فصلته عن معرفة الإنسان الذاتية، ووسمته بدلالة مرنة سمحت باستخدامه بإيجابية، للإشارة إلى أفقه الرحب الذي أخذت ملامحه تنكشف. مما أطلقه أداة هائلة عادت على الإنسانية بقدرة تشكيل نمط عيش جديد، تغيرّت فيه طبيعة نشاط الإنسان، واكتسبت زيادات إيجابية على ما كان يتحصل من نشاط الأجيال في العصور الوسطى وما قبلها.

ليس من الصواب أن نستخدم لفظي العلم والمعرفة بدلالة واحدة وبشكل متطابق. لأن مثل هذا الاستعمال هو أحد المزالق الخطيرة التي تفقدنا الوضوح الضروري، الذي نحتاجه في إنشاءات بناء نظرية تصلح أن توصف بأنها **نظرية كل الأشياء**. المعرفة ثم العلم هما ناتج التميز الإنساني عن الحيوان، وبهما صار كل فرد منا يطلق حركته التي يحافظ بها على وجوده، مغذياً بها مسار التطور الكوني البرّاني في طريق مضاء وواضح. وإذا كان تشكل هذا الجوهر في جسمنا الإنساني، قد تم مع تشكلنا كجنس حي (الحلقة المفقودة) في الأرض. فإننا لن ننطلق في هذه القسم من الكتاب باحثين في تشكل هذا الجوهر المميز لجنسنا العظيم، حتى لا نكون قد خطونا خطوة معيقة لبحثنا، ونكون قد وضعنا الحصان خلف العربة،

بحيث يستنزف هذا البحث جهدنا المبذول، دون أن يوصل إلى نتيجة تكافئه.

سننطلق متفقين على واقعة أن المصطلحين (المعرفة، العلم) يدلان على هذا الجوهر الذي ميّز وجود الإنسان من وجود جميع أجناس الحيوانات ومنحه سعة حضوره. إن كلا المصطلحين في استخدامهما الشائع في أدبيات الأرشيف الإنساني، يشيران إلى امتلاك الإنسان لقدرة التأثير في الواقع الخارجي. ويتم هذا التأثير غير المحدود، من خلال وضوح مجال الحركة الخارجي، مما يعني وجود علاقة حتمية بين المتحرك (جسم الإنسان) وبين الواقع المكشوف والمضاء. ومن هنا فالمعرفة والعلم توصيفان لهذا الضوء الذي يملكه كل فرد منا، يتحدد الفارق بينهما في سعة الدلالة وشموليتها.

العلاقة بين المصطلحين هي علاقة يحددها زمن ظهورهما، الذي منح كلاً منهما حدوده وسعته. لقد بقي استخدام مصطلح "المعرفة" واحداً، مرتبطاً بالإنسان الفرد، ومتغذياً نموّه من عملية الفهم الناشئة من العلاقة الحتمية بين الفرد وبين صورة الوجود خارجه. بينما مكّن مصطلح "العلم" التحدث عن مستوى جديد مكشوف، تتحدد مرتكزات سعته بأنها تكشف وجودا لا تمتلك حواس الإنسان أن تتعامل معه بالكامل. وهذا ما سمح بوصفه بالموضوعية في القرن السابع عشر، ثم ما لبثت أن تبعتها صفة "التجريب" في القرن الثامن عشر. وبذلك وجد انفصالٌ في الدلالة بين المعرفة وبين العلم بسبب هذه الصفات. حيث بقيت دلالة المعرفة مربوطة بالإنسان، ومتغذيةً من حالة الفهم الشخصي عنده، بينما حملت دلالة مصطلح "العلم"، بصفاتها الموضوعية والتجريبية، أفقاً جديداً لا تملكه دلالة المعرفة. لقد سمح مصطلح "العلم" بصفتيه الموضوعية والتجريبية أن يبدأ إضاءة أشياء لم يعد الحس المشترك للإنسان قاعدة لها، وهذا ما

جعل قدرة الإنسان على فهمه المعرفي تضعف رويداً رويداً. وهذا ما أوجد أزمة أبستمولوجية، أخذت تفرض على الباحثين دقةً في استخدام المصطلح، فتقوم بالتفريق بين صورة الواقع وبين قدرة فهمه من قبل الإنسان.

استقرت دلالة مصطلح المعرفة على أنها ضوء حمله الإنسان الفرد، وضح به وجوده، وتحدد به موقعه في ساحة الخارج. وقد نتج المصطلح في سياق نشوء اللغة وتطورها. لم يكن مستوى المعرفة الفردية عبر التاريخ واحداً، وهو ما سمح بوصفها بدايةً بالخرافة. والتي بقيت آثارها في نصوص تتصف بعرض أجزاء صورة للوجود- بمكوّنيه الإنسان والطبيعة- لا تمتلك قدرة تشكيل صورة متكاملة، بل هي تقدم أجزاءها مفصولة ومبعثرة وغير متجانسة، مما جعلها لا تشكل منظوراً كلياً للوجود. ظهرت المعرفة واقعياً في مرحلة الخرافة مرافقة لنشوء اللغة الشفهية، خطوة على الطريق التي شكل فيها الإنسان بدء تصوره الفردي، وقد اتسمت بالتجزؤ والانفصال وغلبة الذاتية بين أجزائها. وقد شكلت مقدمة لتطور لاحق، أنتج فيه الفرد حينذاك صورة موحدة لوجود ينسجم فيه، حصرتها ذاتيته بحدود صارمة. وكان هذا أساس ظهور مصطلح "المعرفة". وتشكل النصوص اللغوية لهذه المرحلة أولى درجات السلم التي تشكلت بها المعرفة بخصائصها لاحقاً.

يربط الخطاب الإنساني بين الخرافة والأسطورة قبل حديثه عن المعرفة والعلم، دون أن يكشف عن القاسم المشترك بينهما. وذلك لأن المصطلحين الأولين قد أُطلِقا على ما شكله الإنسان من تصورات في أزمنة غابرة من تاريخه. وقد وصّف الخطاب الإنساني بهما خصائص بداية الضوء الذي يحمله كل فرد، ويوجّه به نشاطه، وينطلق على هديه في دروب الخريطة الخارجية للحفاظ على وجوده المادي. وقد دلّ كل من

اللفظين على طبيعة مرحلتهما في تشكل هذا الضوء الفردي الراسم للصورة، الذي كان يشهد نمواً واتساعاً، متغذياً من نشاط الفرد. ولكن دلالة اللفظين اختفت تحت طبقات هذا النمو والاتساع للمعرفة والعلم لاحقاً، وصار مصطلحا الخرافة والأسطورة يُسْتخدمان بغموضٍ وإبهامٍ كاملين.

استقرت دلالة كلمة "المعرفة" في حدود هذا الضوء الصادر من كل فرد من البشر، وصار كل منهم يتحدث عما لديه تحت مصطلح "معرفتي"، وما مرّ به من معاناة الضياع، وما لقيه من ضغوطات الخارج حين شكلّه. وكشف تحليل هذه المعاناة أن هذا الضوء الفردي الذي يهتدي به المرء، قد ظهر عند كل فرد في حالتين، كان جوهر الاختلاف بينهما، ارتباط الضوء الداخلي بحواس الإنسان المفتوحة على الخارج. فقد وضح من أرشيف أدبيات الإنسانية، أن جزءاً من صور الوجود تظهر والحواس معطلة عن العمل (بالنوم، أو بانكفاء الإنسان إلى عالمه الداخلي)، وأطلقت اللغة الإنسانية على معرفة كهذه اسم "حلم"، مشيرةً فيه إلى أنه حركة ظهور صور من الداخل لا ترتبط بدقةٍ بوقائع الخارج وترتيبها المكاني والزماني. وقد دلّ دورها في التنبؤ المستقبلي على خصائصها التي رافقتها حين كانت هي الأكثر حضوراً. وقد تراجعت مع الزمن بالنسبةً للمعرفة المرتبطة بالحواس، التي أطلقت عليها اللغة الإنسانية مصطلح "العلم". الذي تشكل مبنياً على نضوج المعرفة غير المرتبطة بالحواس "الحلم". ثم ما لبث أن كبر حضور العلم وصار هو الأعم والأشيع، واتسم بدقة المطابقة لوقائع الخارج وترتيبها المكاني والزماني، وقام بتغذية حركة الجسم بما يناسب الواقع الموضوعي. لقد تحدد انفصال دلالة مصطلحي (الحلم والعلم) بسبب هذا الاقتران بعمل الحواس، وشكل الانفصال معبراً بين تاثير وجود الخارج الموضوعي، وبين ما يجري داخل الإنسان (الذاتي). وهذا ما أدى إلى تنحية الاهتمام بظهور صور الحلم، التي كان

عدم دقة تطابقها مع الواقع يزداد وضوحاً، والذي اتضح واقعياً بتراجع حجم النبوءات أمام اتساع أحكام العلم.

العلم في أساس نشأته هو متشكل معرفي داخل الإنسان، يرتبط ارتباطاً تاماً بمتلقيات الحس، ويقيم بين الإنسان- كوحدة نظام حي مادي- وبين مفردات الوجود الخارجي تطابقاً دقيقاً. وهو في أصل نشأته ذاتي، ولكنه بسبب دقة تطابقه مع مفردات الخارج الموضوعي، كان يتحول إلى قسمة مشتركة يتفق الأفراد بذاتياتهم المختلفة عليها. وهذا ما حوّل العلم- بسبب خصائصه هذه- إلى شيء مشترك بين الأفراد، يُغذونه بتداول خصائص تجاربهم المعرفية بين بعضهم البعض. وبقي الحلم فردياً بسبب تقلص دقة تطابقه مع الخارج. وعلى هذا الطريق غادرت معرفة الإنسان الفرد ساحة الخرافة والأسطورة، وتحولت إلى علم ذاتي دالةً على ارتباط معرفة الفرد بشكل حتمي بمفردات الوجود الواقعي، مع كل ما يرافق عملية نموها من ظهورات مبهمة وغامضة، أطلقَ عليها ألفاظ أشارت إليها (عواطف، شعور، إحساس، وجدان، ضمير...)، وقد حمل كل فرد دلالة هذه الألفاظ بإشاراتها حسب خصوصية تجربته، وأصبحت جزءاً من معجمه المعرفي الفردي.

لم يتحدد بالبحث والدرس العلمي حتى الآن الأزمنة الواقعية التي تشكل فيها هذا كله. ولكن الذي أوضحه الخطاب الإنساني في أدبيات أرشيفه بعد أن أصبح مكتوباً، أن هذا الضوء المشترك الذي أطلق عليه مصطلح "العلم"، قد أخذ ينمو ويتوسع من معرفة الأفراد الذاتية. ثم ترك خصائصه هذه في مرحلة لاحقة، وصار جمعياً ومُلْتزَماً به. وتغيرت علاقة الأفراد به من خلال زيادة انتشاره، فأخذوا يستمدون منه ضوءهم الفردي. إن هذه العلاقة قد أوجدت رابطة بين الإنسان الفرد، وبين العلم المتداخل بذاتية المعرفة، عبّرت عنها كلمة "الفهم"، والتي كانت تتحدد دلالتها بمقدار ما

يستطيع الفرد من جنسنا أن يأخذ من هذا الضوء المشترك المتسم بالنمو والاتساع، وأن يستخدمه معرفة ذاتية تهديه في دروبه الاجتماعية والتفكيرية.

ازدادت علاقة الفهم هذه ترسخاً كقاعدة لإنتاج كل فرد لمعرفته الفردية، مرافقة في ذلك توسع العلم المشترك إلى نبع واحد، تشكلت بينه وبين معرفة الأفراد المحدودة علاقة متداخلة ومتشابكة. لقد أخذ الفرد يستمد معرفته من النبع مشكلاً شخصية إنسانية نمطية حسب مجتمعه، وأخذ يرفد بتجربته الشخصية هذا النبع، وقد تفاعلت بهذه العلاقة معرفة كل فرد مع المجتمع بسهولة ويسر. لقد رصد أرشيف التجربة الإنسانية هذا التطور، وأظهر مركزية مرحلة "المعرفة" بخصائصها الذاتية، وكيفية انتقالها كناتج من ذات الفرد لتصبح ساقية في مجرى العلم المشترك. ولا تظنن قارئي العزيز أن ذلك لم يحدث هزّة ورجة في حَمَلَة المعرفة الذاتية خلال هذا الانتقال، إن أبسط ما يمكن أن نلمحه خلال تفاعلات هذا الانتقال، هو انحسار شيوع خصائص الفردية المتمثلة بالتناسخ والتقمص العاكسة لدور البيولوجيا المركزي في إنتاج المعرفة، والانتقال إلى خصائص التربية والتعلم، التي أصبحت قاعدة توليد الضوء الذاتي (المعرفة الشخصية) مستقىً من نبع العلم المنفصل عن الفرد، بدءاً من طفولته وحتى انتهاء عمره.

العلاقة بين المعرفة كضوء ذاتي فردي، وبين العلم كنبعٍ متنامٍ ليشمل الإنسانية كلها، كانت ساحة جمع تراكم تطور الجنس الإنساني خلال آلاف السنين. وقد انتهت هذه العلاقة الخفية والمستورة إلى تقرير أن هناك مصدراً واحداً يستطيع كل الأفراد أن يقبسوا منه ضوء معرفتهم الذاتية هو "العلم الإنساني". وبذلك حُسِمت العلاقة بين مصطلحي المعرفة والعلم لصالح الأخير. ولم يعد من المقبول واقعياً أن يدعي فرد أو جماعة وجود

معرفة لهم غير منسجمة مع خصائص العلم الذي شكّل نبع الإنسانية الواحد. لقد شكلت الألفية الأولى قبل الميلاد ساحة حسم هذه العلاقة، وتم فيها فرض نبع واحد للعلم، نهلت منه معرفة غالبية الأفراد، مما سمح بنشر نموذج واحد لشخصية الإنسان، ترسّخ لاحقاً في الألف الأولى للميلاد، وحقق أهدافه كاملة في النصف الأول من الألفية الثانية للميلاد.

النقلة الكبرى التي شهدتها مسيرة العلم، والتي تحددت فيها خصائصه المفارقة لخصائص المعرفة، قد تمت في القرن السادس عشر، حين حدد العلم أن الضوء المشترك الكاشف للوجود قد ارتبط بالموضوع المدروس (مفردات الوجود الخارجي)، مفصولاً عن تصورات الفرد الذاتية. لقد خطا العلم الإنساني خطوته الهائلة هذه، نتيجةً لتراكم تطوره من ذلك الضوء البسيط والخافت، الذي كان يحمله كل فرد من البشر، وهو يضرب في دروب الأرض يتلمس طريقه ليحافظ على وجوده، ويثبت من خلال حصيلة تجربته الفردية مكانته في تراتب اصطفافه مع الآخرين، الذين لم يعد من الممكن أن ينفصل عنهم.

إن موضوعية* العلم في القرن السابع عشر قد غيرّت ماهية البرهان، وربطته بشكل تام بخصائص وجود الخارج، جاعلة "التجريب" نهاية عملية الفصل بين المعرفة والعلم. فلم يعد صدق حكم من الأحكام أو رأي من الآراء يرجع إلى ذاتية الفرد، فيقوم بمحاكمة القضايا بشكل خفي وباطني داخله، ليتوصل من خلال برنامجه المعرفي الذاتي إلى صحة القضية. لقد أصبحت معلومات التجربة الظاهرية هي الدليل على صحة الحكم والرأي، محولةً البرهان من شكله الباطني المتأثر بذاتية الفرد، إلى

* الموضوعية مصطلح يدل على أن الموضوع المدروس هو مصدر جزئيات التصور عنه، مبتعدة عن تأثير المعرفة الذاتية للدارس. وهذا ما منح نموّ صورة الوجود نبعاً متدفقاً على قدر حجم المواضيع المدروسة، بعد أن كان التصور محكوماً بحجم ذاتية الدارس.

برهان ظاهر يثبِتُهُ ترابط وقائع الخارج وطبيعتها في آلية التجريب المرتبط بشكل كامل بالحواس، الذي لم يعد من الممكن أن يشكّ فيه. إن الانتقال إلى موضوعية العلم وتجريبيته، قد تم بعملية قطعٍ بينه وبين خصائص المعرفة الذاتية. وقد شكل هذا القطع طبيعة وحجم النمو الناتج عن التراكم، مما أدى إلى وضع أساس جديد لصورة الوجود بما فيه الإنسان، تُرصَدُ من خارجه، وتجتنب بشكل شبه تام تأثيرات الداخل على عملية الرصد.

وهكذا ترسخت ماهية عملية الفهم كطريق واصل بين ضوء العلم ككشاف خارجي، وبين حاجة الفرد إلى ضوئه الفردي، لكي يهديه في مسارب الإعمار المادي الذي أنشأته تجربة الإنسان خلال زمن وجوده على الأرض. وهكذا انتقل الضوء الكاشف الذي بدأ فردياً ينبع من الإنسان، ليصبح عاماً مفصولاً عن الأفراد، تضبط خصائصه قواعدُ جديدة تحددها التكنولوجيا، أخذ إنسان القرن الحادي والعشرين يحس ارتباكاً في التعامل معها، حين يسعى في تشكيل معرفته الشخصية.

الفصل الثاني: الفيزياء الطريق الأكثر إضاءة، ثم تاه أينشتاين

أرجو ألا أكون قد أمللتك أو أضجرتك قارئي العزيز. فتقديم صورة للكون من خلال العلم كان يحتاج إلى أن أختصر لك رحلة الإنسان منذ أن أخذ يمايز الحيوان بحركته الحية، حتى وصل إلى القرن الحادي والعشرين، حين أصبح العلم نبع الضوء الإنساني الواحد، وسمح لكل فرد منا أن يقتبس منه حاجته الفردية، التي تعطيه قدرة الاهتداء بها في دروب إنشاءات الإنسان المادية، التي راكمتها البشرية طبقة فوق طبقة، حتى بلغت شكلها الذي نعايشه في هذا القرن، والذي صَدَمَنا بضخامته، وجعلنا نسأل إلى أين؟ وليس هناك من مجيب.

كلمة العلم أصبحت هي المفردة الأكثر تداولاً، وهي تُرْبط بكل حالة بحثية يقوم بها دارسون متخصصون لقطاع من قطاعات الوجود، يرصدونه بموضوعية، ويلجئون إلى التجريب كآلية برهان للتأكد من صحة الأحكام التي يتوصلون إليها، بديلاً عن اللجوء إلى بنية برامجهم المستكنة في داخلهم. ولعل دراسة الطبيعة الفيزيائية خارج الإنسان، هي ساحة التطبيق الأهم والأنقى لدلالة المصطلح. ففيها حقق العلم قطيعته التامة مع المعرفة الذاتية بسبب طبيعة المادة المدروسة في الفيزياء، والتزم باعتبار الموضوع المدروس هو المصدر الوحيد الذي يجب الركون إلى واقعيته. فمنذ أن قدم "كوبر نيكوس" صورة هذا الوجود الفيزيائي كما هو، مفصولاً عن دور الإنسان، أصبحت الفيزياء مصدر إطلاقٍ لصور لم يكن إنسان العصور الوسطى يألفها. اختلت مركزية دور الإنسان الناشئ من خصائص معرفته الذاتية، وخطا العلم في حمل صفاته الجديدة، وأخذ يصبها على الوجودات المادية الأخرى تدريجياً، منتقلاً في القرون التالية من المادة الفيزيائية إلى مادة جسم الإنسان، التي تشكل لها

"علم البيولوجيا" وما تبعه من علوم فرعية نابعة منه. لقد حاول العلم التجريبي بعد ذلك أن يدرس مظاهر هذا الإنسان؛ سواءً في حيّز الفرد تحت عنوان "علم النفس"، أو في حيّز المجتمع تحت عنوان "علم الاجتماع"، ناشراً لواء العلم التجريبي المرتبط بالموضوع المدروس، لكي يتحول إلى نبع الضياء الوحيد الذي لم يعد يحق لأي فرد أن يتجنبه، ولا أن يتجاوزه، وألا يجعله مصدر ضوئه الفردي.

أول خطوة خطاها علم الفيزياء باتجاه الموضوعية، هو ابتعاده عن استخدام مصطلح "السماوات والأرض" لتوصيف الخارج الفيزيائي، الذي كان يعكس مركزية وجود الإنسان، النابعة من خصائص معرفته الذاتية. واستخدم بديلاً عنها مصطلح "الكون"، للدلالة على هذا الوجود الموضوعي المفصول عن الإنسان ومعرفته. وقد سمح مصطلح "الكون" بقيام عملية رصد جديدة لرقعة أوسع مما تطل عليه حواس الإنسان الفرد، المحدِّدة لهذا الوجود بأنه سماوات وأرض. وقطع علم الفيزياء مع الأبحاث الذاتية التي انصبت على الطبيعة في العصور الوسطى وما قبلها، من خلال البحث في طبيعة الحركة التي تضبط وجود الكواكب حول الشمس. وبذلك أطلقت الفيزياء مساراً بحثياً جديداً، لم تعد تدْرُس فيه مكونات المادة الأربعة المتداولة والموروثة من العلم الذاتي، وهي "التراب والماء والهواء والنار". بل أخذ يرصد الجاذبية وقوانينها، مما منح علم الفيزياء مساراً جديداً، سمح له أن يقوم بكشف بنية المادة الفيزيائية لاحقاً.

من الأحكام الكلية الناتجة عن البحث الفيزيائي في الجاذبية، أخذت مفردات الوجود الفيزيائي تكشف عن مضامينها لهذا الضوء المخترق لها. وهذا ما أدى إلى أن تنكشف بنية المادة من خلال الآلة المستخدمة من الإنسان. فتوضحت خصائص "الذرة" وتركيبها. لم تعد الذرة هي اللبنة الأساس التي تُبنى منها مادة الكون الفيزيائية كما تحدث في ذلك علم

اليونان، بل أصبحت هذه الذرة مدخلاً لعالم خفي جداً، بدأ بالحديث عن الإلكترون والبروتون، ثم انتقل نازلاً ليحدثنا عن مكوِّناتهما، بخطاب أخذت مفرداته تبتعد عن خصائص بنية المعرفة الذاتية لاستحالة تعامل الحواس معها. وهذا ما جعل عملية الفهم عند الإنسانية تحتاج إلى تخصص واضح، حجب الصورة عن الجموع خارج دائرة أصحاب الاختصاص.

صورة الوجود كما تقدمها الفيزياء الحديثة تتشكل من مادة تشكل الكواركات عناصر بناء ذراتها المختلفة، وقد عملت في هذه الكواركات قوى جمعتها في لبنات أساس، هي الذرات ذات الخصائص المحددة. وقد تضخمت أبنية هذه الذرات اعتماداً على حركة الانفجار الكوني العظيم، مشكلة المادة كما يتم رصدها في المجرات، التي تطمح التكنولوجيا إلى رصدٍ كامل لها في المستقبل. هكذا تشكلت صورة وجود لم تعد حواس الإنسان هي أداة رصده، وأصبح علم الفيزياء المرصود بالتكنولوجيا قاعدة التصور الحديث لكل فرد. فالوجود مادة تشكلت ونمت بقوانين نتجت عن عمل قوى خلال زمن الكون الطويل. ودلالة مصطلح "الوجود" المقابلة للاوجود، تتحدد بحضور هذه المادة بكل أشكالها الممكنة، التي كشفت التكنولوجيا حيّزاً منها، وربما بقي أجزاءٌ منها لم ترصد حتى الآن. وبذلك حسم علم الفيزياء التنازع حول دلالة لفظ الوجود، وما يتفرع عنه في الخطاب العلمي، وأظهر بشكل جازم دلالته: بأنه وجود مادي يضبط بالحواس في مستوى معين محدود، وتقوم التكنولوجيا بضبطه في مستوى آخر خارج قدرة حواس الإنسان، تتعامل فيه مع مساحات أوسع وأدق،

وفي بنية لا تكتفي بسطحها بل تنفذ إلى أعماقها، كاشفةً عن مكوناتها، مع مستوى دقة وصل إلى حدود مذهلة*.

ومن خلال تعمق علماء الفيزياء في البحث في الحركة، انكشفت القوى العاملة في هذه المادة، وقامت الفيزياء بتحديدها في أنواع أربعة وهي: "الكهراطيسية، النووية الضعيفة، النووية الشديدة، الثقالة". لقد كان الدخول إلى ساحة دراسة الحركة مفتاحاً سحرياً لعالم أليس. لقد أخذت صورة الوجود الكوني الذي تقدمه الفيزياء تبتعد عن الصورة التي رصدتها حواس علماء القرون الوسطى، وأصبح علم الفيزياء الحديثة يتعامل مع واقع لا يتطابق مع ما استقر في الحس المشترك المعتمد على قدرات حواسنا. وهذا ما دفع الفيزياء الحديثة لأن تقدم التصور المركزي للوجود، بناءً على أنه وجود مادي تعمل في ساحته هذه القوى الأربعة. وطمحت محافل الدرس الفيزيائي أن تكون صورتها متطابقة مع الواقع، من خلال تأكيد التجريب لما يتوصل إليه البحث النظري. وكانت رحلة أخذت مصاعبها ومشاقها تظهر مع مطالع القرن العشرين، دافعةً بهذا الجهد الإنساني العظيم إلى مهاوي غموض لم تنجلِ غمراته حتى الآن.

يتحدد بدء الوجود بانفجارٍ كوني عظيم، استطاعت الفيزياء ضبطه ابتداءً من "10^{-43} ثانية"† بعد حدوثه، حيث كان الكون كرة بالغة الصغر

* تجربة المسرع الذي أجرته المنظمة العلمية الأوروبية (سيرن)، ترينا الاتجاه الذي يطمح علم الفيزياء إلى رصده. فقد أعلن يوم 10-9-2008 أن الهدف الأساسي لهذه التجربة يسعى إلى رصد ما جرى في عشر الثانية الأولى من الانفجار الكوني العظيم، لمحاولة كشف كيف أحدثت حركة الانفجار تشكيل المادة مشكّلةً الوجود. وكيف قامت الحركة في الدقائق الثلاث الأولى بتشكيل قاعدة وجود الكون الذي ترصده الفيزياء الآن. إن هذا الطموح لتحديد ما حصل في اللحظات الأولى لتشكل الوجود المادي هو اللغز الأكبر الذي يقف أمامه العلم. إن معرفة الإنسان الذاتية، ستجد عجزاً بنيوياً عن فهم ما سترصده التكنولوجيا. بينما تقوم فروع جديدة لأبحاث في الفيزياء المستقبلية بدراسة تطور الكون الفيزيائي ككل، بناءاً على تراكمات ما بدأت التكنولوجيا بخزنه.

† جزء من عشرة ملايين من ترليون ترليون ترليون من الثانية.

"10^{-33} سم"*، وهائلة الحرارة "10^{+32} درجة"†، ولم تستطع الفيزياء الرجوع للبداية أكثر من ذلك حتى الآن. «عملياً ليس لدى الفيزيائيين أدنى فكرة عما يمكنه تفسير ظهور الكون، يمكنهم الرجوع حتى 10^{-43} ثانية، ولكن لا يمكنهم تعدي ذلك، عندئذ يصطدمون بـ"جدار بلانك" الشهير، المسمى هكذا، لأن الفيزيائي الألماني المعروف كان عاجزاً عن تفسير سلوك الذرات في ظروف قد تكون فيها الجاذبية قد بلغت أقصاها»[1]. لقد شكلت نقطة البداية هذه سداً حاجزاً لم يتمكن علم الإنسان من اجتيازه حتى الآن: «هناك شيء ما قد لا نستطيع فهمه أبداً، سر لا يتخيل الفيزيائيون مجرد كشفه ذات يوم. لقد حاول البعض منهم تمرير نظرة إلى ما وراء هذا الجدار، لكنهم لم يستطيعوا أن يقولوا شيئاً ما، مفهوماً حقاً عما ظنوا أنهم رأوه. ذات يوم التقيت واحداً من هؤلاء الفيزيائيين، كان يؤكد أن أعماله، في شبابه، كانت قد سمحت له بالرجوع إلى زمن بلانك وبإلقاء نظرة خفية على الجانب الآخر من الجدار. وبقدر ما كان يُشجّع على الكلام، كان يتمتم بأنه قد شاهد حقيقة مدوّخة...... وكنا نحس بكل عجب وغرابة أن العالم الكهل كان يتكلم عما رأى مثلما يحكي عن نوع من الهلوسة الميتافيزيقية، كانت قد أصابته إلى الأبد»[2].وإذا كنت عزيزي القارئ مطلاً على دراسات اجتماعية رصدت الحياة في العصور الوسطى، فستجد ظاهرة اجتماعية تبدت في أفراد حاولوا أن يتعرفوا دلالة لفظ "الله"، فأصيبوا بهلوسة ميتافيزيقية جعلت المجتمع يطلق عليهم اسم "المجاذيب"، وستجد أن هذا العالم الكهل كان يتكلم مثل أولئك المجاذيب الذين افتقدوا قدرة التوازن في شخصيتهم، وأخذوا يطوفون في الأزقة والحواري يطلقون كلاماً يستدعي ضحك السامعين واستهزائهم ورثائهم.

* جزء من مليون بليون بليون بليون من السنتيمتر.

† مئة ألف بليون بليون بليون درجة مئوية.

وهكذا توصلت الفيزياء إلى تصور عن نقطة البداية التي تشكل فيها الوجود، وأعلنت أنه «لا يمكن للعقل البشري اكتناهها»[3].

وسيقوم علماء الفيزياء بمحاولة رسم المسار الذي تشكل فيه الوجود المادي بحجمه الحالي الهائل. فهناك نقطة تحدد فيها الحجم والحرارة والزمن، ومنها انطلق وجود مادي تضخم ونما بفعل القوى الأربع: «يعتبر التضخم إحدى أكثر الأفكار رواجاً في علم الكونيات الحديث، هذا العلم الذي يسعى للإجابة على أسئلة عميقة، مثل السؤال عن كيفية خلق الكون وكيفية نشوء المادة، أو السؤال عن نهاية الكون. لقد بقيت هذه الأسئلة ولفترة طويلة ضمن نطاق الدين أو الأساطير أو الفلسفة. أما اليوم فإن الإجابة العلمية عليها، تكمن في نظرية الانفجار العظيم التي تفترض كوناً آخذاً بالاتساع والتمدد ولد من انفجار هائل.»[4].

جدّت الفيزياء الكونية في تحديد السيناريو الذي تشكل الكون به: «يقتضي قانون "هابل"* أن الكون برمته كان في لحظة ما من الماضي متمركزاً في نقطة واحدة، ويبدو أن مجمل الكون تمّ نفثه لخارج هذه النقطة من خلال انفجار ضخم خالق للكون. وبشكل ملموس أكثر، تدل سرعات الابتعاد المقيسة أن الانفجار الأعظم حدث قبل حوالي 15 مليار سنة. تكوّن مخلفات هذا الانفجار الآخذة بالتمدد والاتساع الكون الذي نراه اليوم»[5]. لقد ثبت وجود حركة مخصوصة للكون، رصدها هابل وحدد سرعاتها: «وهكذا يبدو الكون عندما نراقبه من نقطة مميزة، غير ساكن البتة»[6].

---

* إدوين هابل (1889-1953): عالم فلك أمريكي.

لم تكن نشأة الكون هي كل ما اهتمت به الفيزياء الكونية، فحسب كلام "جواو ماغيجو"*: «لا تتعلق الكونيات بدراسة هذا النجم أو هذه المجرة، فهذه الدراسة الجزئية تقع في مجال علم الفلك. أما بالنسبة لعلماء الكونيات، فالمجرات تعتبر مجرد جزيئات لمادة غير اعتيادية، ندعوها بالمائع الكوني. تتعلق الكونيات بالسلوك الإجمالي لكامل هذا المائع الذي يحاول الكونيون فهم خصائصه. هكذا، يتعلق علم الفلك بالأشجار، بينما يوافق علم الكونيات الغابات»[7]. وقد جهد الفيزيائيون الكونيون في دراسة الحركة الكونية وخصائصها، فتوصلوا إلى تصورات لا تلتقي مع حدسنا البشري المشترك المتأثر بمحدودية حواسنا، «بيّن "فريدمان" أن هذا التمدد هو ظاهرة هندسية أكثر من كونها حركة ميكانيكية كما نتصور.....إن مكونات المائع الكوني، أي المجرات، تكون وفق الصورة النسبية للتمدد والاتساع، محفورة ضمن المكان، وبالتالي لا تتحرك بالنسبة للمكان. مع ذلك إن المكان نفسه يتحرك متمدداً وآخذاً بالاتساع، خالقاً مكاناً أكبر فأكبر بين نقطتين معطيتين مع مرور الزمن. وهكذا تزداد المسافة بين مجرتين مع الزمن، خالقةً الانطباع بوجود حركة ميكانيكية، ولكن الحقيقة هي أن المجرتين جالستان هناك لا تتحركان، بل تتأملان هذا العرض الكوني الذي يخلق مكاناً أكبر فأكبر بينهما»[8]. وقد تأكد الفيزيائيون بمراقباتهم المتنوعة أن هناك نظاماً داخلياً يضبط ذلك كله: «فهل هذا ظهور آخر لهذه الغرابة المنطقية؟ إنه وجود نظام داخل السديم، فما المشترك بين عمود دخان وبارقة في السماء وراية تصطفق في الريح وماء يسيل من حنفية؟ في الواقع هذه المظاهر سديمية أي غير منتظمة. ولكننا حين نتفحصها في ضوء هذه المقاربة الجديدة، نعني نظرية السديم، سنكتشف أن الأحداث

---

* جواو ماغيجو (1967-): عالم كونيات برتغالي وبروفيسور في الفيزياء النظرية في الكلية الملكية في لندن.

غير المنظمة في ظاهرها، وغير الممكن توقعها، تتميز بنظام مدهش وعميق في آن»[9].

إن اللاثبات الكوني الظاهر في هذه اللوحة المرصودة للكون، المصنوع من مادة تتحرك في مكان هائل وكبير مباعدةً وموسعةً بين أجزائه، فرض السؤال، إلى أين؟ لقد نشأ جوهر الجواب من خلال هذا التصادم بين قوة دفع الانفجار الكوني العظيم، وبين ضبط الثقالة لبنية الكون في هذه اللوحة المعروضة «إن الحرب بين التمدد الكوني والتجاذب الثقالي، أو بين الاندفاع الكوني للخارج وقوة الثقالة التي تحاول إعادة الأشياء نحو الداخل وجذبها لبعضها البعض»[10]. وهناك نهاية تنتظر علاقة الحرب هذه، فإما أن تنتصر الثقالة مشكلة ثقباً أسود هائلاً يدمر البنية المادية للكون، أو يخرج الانفجار عن سيطرة الثقالة وتتبعثر أجزاء الكون، مبعثرة الطاقة المحركة له. ولكل من هاتين الفرضيتين أدلته البحثية عند أصحابه: «في حالة الكون الكروي تنتصر الثقالة في النهاية، إذ يبدأ الكون بالاتساع، ولكن معدّل تمدده يتناقص بتأثير الثقالة حتى يتوقف، ليليه انكماش وتقلص آخذان بالتسارع نحو جهنم الانسحاق الأخير. أما في حالة النموذج شبه الكروي أو المفتوح، فإن التمدد هو من ينتصر، ويفلت الكون في النهاية من قبضة ثقالته، إذ تكون الثقالة قوية جداً في البداية لتسبب تناقص معدّل التمدد، ولكن هذا الأخير في النهاية يكون سريعاً جداً، أو بكلمة اخرى، تكون الأشياء قد تمددت عندها بشكل كاف بحيث يهمل تأثير الثقالة. عندها يتوقف تناقص التمدد لتبدأ مرحلة جديدة حيث يكون الكون قد"نفذ بجلده" ليصبح فارغاً بشكل أساسي.»[11].

حريق كوني أو صقيع كوني هما نهاية الكون في ضوء هذه العلاقة التي ترصدها الفيزياء الكونية. وعلى الرغم من تطييب الخاطر الذي يقدمه الخطاب الفيزيائي، حين يُطمئن الإنسان بأن زمن تحقق أحد الخيارين لن

يقع قبل مليارين إلى أربع مليارات سنة، إلا أن قلقاً خفياً وغامضاً قد أخذ ينسرب من الخطاب الفيزيائي، ويلقي بظله الأسود الثقيل على نفوس الناس. وهذا ما شكلّ حالة تصادم بين موروثاتٍ من الخطاب الإنساني، تتحدث عن خلود الإنسان في كون خالد، وبين حالة الفناء الكامل للوجود المادي، الذي لن يبقي ولن يذر.

بين بداية الكون المادي بالانفجار العظيم، وبين نهاية الكون في أحد خياريه المتقدمين في الفقرات السابقة، ترسم الفيزياء صورة تنتجها اعتماداً على التكنولوجيا، ويستطيع الإنسان أن يتواصل معها حتى الآن، وأن يتمكن الإختصاصيون من فهمها. ويرتكز فهم هذه الصورة إلى بنية يقوم العلماء برصدها بآلاتهم. تبدو الصورة الإجمالية مشكلة من مجرات يصعب حساب أعدادها، مع مشكلات أخرى يحاول الخطاب الفيزيائي الإشارة إليها ثم توصيفها. يمتد الكون على طول شعاع يقدر طوله بـ 93 مليار سنة ضوئية*، قد مضى زمنٌ على تشكله يقرب من 15 مليار سنة. لقد تمكن الخطاب الفيزيائي أن يصوغ قواعد قضاياه الأساسية التي يتشكل حسبها هذا الكون، وهي تقوم على وجود بنى متناهية الصغر (كوارك x) تعمل فيها قوىً حُدِّد عددها بأربع، قامت بإشادة هذا البناء الهائل، ودفعت به من طور إلى طور بالحركة المتولدة من الانفجار العظيم، في مسار تمكنت الفيزياء الحديثة من رسم ملامحه بالخطوط العريضة.

عدم سكون الكون أصبح أمراً مقرراً في العلم، كان أول من كشف خِبْأه، وفتق نقطة النظر إليه هو العالم الفيزيائي الشهير "ألبرت آينشتاين". لقد صدمت لاثباتية الكون آينشتاين كإنسان يعيش في القرن العشرين، مازال يحمل تصوراته الموروثة من معرفته الإنسانية.. لقد كان آينشتاين

* السنة الضوئية: المسافة التي يقطعها الضوء في الخلاء خلال سنة وتبلغ 9,46 ترليون كيلومتر.

يمثل اللوحة الحساسة بين علماء الفيزياء في النصف الأول من القرن العشرين، وهذا ما أهلّه لتلقي الصدمات التصورية منذ أن أرسل له "فريدمان" حلاً لمعادلته، ينكر فيها الحاجة إلى الثابت الكوني* الذي فرضه آينشتاين في المعادلة انطلاقاً من حدسه حول ثبات الكون. لقد تم التحقق تجريبياً من عدم ثبات الكون على يد العالم "هابل"، حين رصد انزياح طيف النجوم نحو الأحمر: «وهكذا يبدو الكون، عندما نراقبه من نقطة مميّزة، غير ساكن البتة! لابدّ أن يكون آينشتاين قد احمرّ وجهه خجلاً عند سماعه هذه الأخبار. لو تمسك بمعادلته الأصلية وقبل الاستنتاجات التي تقتضيها، لكان قد تنبأ بتمدد الكون واتساعه، ولكان قد حقق الانجاز العلمي الأكبر على مرّ العصور»[12]. ويؤكد فريدمان أن توسع الكون هو ما يتحقق من خلال حلّ المعادلة بدون فرض هذا الثابت وزيادته. ثم جاء بعيد ذلك ما أخذ يكتشفه الباحثون في ساحة الفيزياء الجزئية، حين توصلوا إلى أن قوانين اليقين والحتم التي تعتمدها النسبية حين توصّف ساحة الفيزياء الكونية، لا وجود لها في دراسة الذرة ومكوناتها.

رسّخت هذه الأحداث الناشئة في ساحة البحث الفيزيائي شعوراً مبهماً وغامضاً لدى آينشتاين، بأن العلم كما هو مستخدم في محافله، ليس متوازناً، وليس متوافقاً مع الإنسان. لقد جرد آينشتاين كامل همته التي كانت قد نضجت بعد نجاح "النسبية العامة"، لكي يوجد منظوراً تصورياً واحداً يسع كل الأشياء. ونتج عن هذا الموقف ما ذكرته أخبار آينشتاين خلال العقود الثلاثة الأخيرة من حياته، من اعتزاله الأبحاث المتعلقة بتفاصيل الفيزياء، وعزوفه عن متابعة ما يعمل عليه الباحثون من إيجاد القاعدة النظرية لتطور التكنولوجيا المذهل. لقد حاول آينشتاين أن يصل

---

* كان أينشتاين يؤمن أن الكون ثابت،لكن عندما بين حل معادلاته في النسبية العامة أن الكون إما يتمدد أو يتقلص، قام أينشتاين بإضافة ثابت لمعادلته يلغي به التمدد أو التقلص، وعندما أثبت لاحقا تمدد الكون صرح أينشتاين أن إدراج الثابت في المعادلة كان خطأ.

إلى "نظرية كل الأشياء". ليحتوي هذا التناقض الرهيب بين قوانين النسبية وبين قوانين الكم. ولم يوفق آينشتاين، وبقيت سيمفونيته ناقصة.

«أنت تؤمن بإله يلعب بالنرد، وأنا أؤمن بقانون ونظام كاملين»[13]. هذا ما أرسله آينشتاين إلى "نيلز بور"* الذي يعتبر بحق شريك "هايزنبرغ"† في إنتاج تصورات عمل قوانين الكم. لقد لخص بقوله هذا جوهر حيرته، والتي دفعت به ليعمل للإجابة عليها بكل جد واجتهاد. ويكشف الاسم الذي أطلقه على الهدف الذي سعى إلى تحقيقه "نظرية كل الأشياء"، أن ما استفزه من أبحاث بور وهايزنبرغ قد أضيف إلى ما أنتجته النسبية العامة من أن الكون غير ثابت. وهذا ما دفع به إلى مسار بحث يحاول فيه أن ينتج تصوراً نظرياً شاملاً، لا يخرج عنه شيء من الأشياء كما ينص على ذلك اسم النظرية.

مساهمات آينشتاين في شؤون حياة عصره المختلفة لافتة للنظر، وهي تأتي في سياق هذا الاهتمام الذي انكب عليه لتحقيق "نظرية كل الأشياء". ومن خلال إطلالة على أدبياته هذه، يتضح أن جهده لم يثمر أبداً. فما أطلقه من أقوال وحكم، لم تأت ناتجاً لرؤية شاملة تربط بين الإنسان وبين النتائج التي توصل إليها في أبحاثه الفيزيائية. لقد بقيت أبحاث الفيزياء في أعمال آينشتاين لا تمتلك قدرة التأثير في حياة الإنسان. وهو ما شكّل دليلاً عملياً على إخفاقه في البحث عن نظريته المرجوة.

---

* نيلز هنريك ديفيد بور (1885-1962): فيزيائي دنماركي، ولد في كوبنهاغن، أسهم بشكل بارز في صياغة نماذج لفهم البنية الذرية إضافة إلى ميكانيك الكم وخصوصا تفسيره الذي ينادي بقبول الطبيعة الاحتمالية التي يطرحها ميكانيك الكم، يعرف هذا التفسير بتفسير كوبنهاغن.

† فرنر كارل هايزنبرغ (1901-1976): فيزيائي ألماني حائز على جائزة نوبل عام 1932. اكتشف أحد أهم مبادئ الفيزياء الحديثة وهو مبدأ عدم التأكد.

انتهى ترقب محافل الفيزياء الحديثة لبحث آينشتاين عن "نظرية كل الأشياء"، وأخذ قلقه وخوفه ينسرب إلى نخب العلماء الفيزيائيين الكبار. ولكنهم وجدوا أن هدف آينشتاين الساعي إلى إنتاج نظرية كل الأشياء لا تحتمله مناهج البحث الفيزيائي ذاتها. وقد أعادهم هذا إلى ساحة الفيزياء، ودفعهم إلى البحث عن نظرية توحد ساحتي النسبية والكموم، وتجمعهما في بناءٍ واحدٍ. وكان عملهم بعيد وفاة آينشتاين على قدّ ساحة الفيزياء التي يعملون فيها، وأوجدوا تطابقاً بين مناهج بحثهم وبين هدفهم الساعي إلى نظرية موحدة عظمى. واستمر البحث منذ ستينات القرن الماضي حتى الآن، ومازالت نتائج بحث الفيزياء في هذا الموضوع غير مستقرة وغير مقنعة: «لقد استغرق دمج النظريتين الجهود الجبارة لعشرات الفيزيائيين النظريين خلال نصف القرن الأخير. ولم يستطع الفيزيائيون تحقيق صياغة مشتركة للنظريتين إلا في السنوات الأخيرة الماضية وبمساعدة نظرية الوتر الفائق»[14].

«شعر العلماء بالضياع مع هذه الحالة، هناك نظريتان اثنتان ناجحتان جداً، فيزياء الجسيمات وكون الانفجار العظيم، وكل من النظريتين ناجح تماماً في مجال تطبيقه. يعرف العلماء أن هاتين النظريتين لا بد وأن تتقاطعا في نقطة ما، ولكن بمجرد حصول ذلك فإن النتيجة تستحق الرمي في سلة المهملات. لم يكن مفاجئاً، ضمن معطيات السبعينيات، أن يلقى كامل اللوم على علم الكونيات. تمّ التصريح في تلك الأيام على أن "علم الكونيات غير منسجم مع فيزياء الجسيمات" مع ما يقتضيه ذلك ضمنياً من أن لا أحد يجب أن يأخذ علم الكونيات على محمل الجد. بدا كما لو أن الكون قد خلقه إلهان في حالة شجار بينهما»[15]. بهذا النص يخبرنا العالم الفيزيائي "جواو ماغيجو" في كتابه "أسرع من سرعة الضوء" الصادر عام 2004 عن أجواء علم الفيزياء بعد وفاة آينشتاين، ويصور ما حلّ بكبار الباحثين من إحباط، نتيجة إخفاق نتائجهم في هذا المجال. ولن

أحدثك قارئي العزيز عن إحباطاتهم كلها، رغم أن هذه الساحة الدرسية قد استقطبت كبار عقول الفيزيائيين "ستيفن واينبرغ"، "ستيفن هوكنغ"، "ميشو كاكو" وغيرهم. ولكنني سأنقل لك عبارة أخرى من كتاب جواو ماغيجو تلخصّ هذا كله: «لسنا الآن، في أيامنا هذه، أذكى من آينشتاين عندما أطلق تنهيدته الأخيرة وقال ما قاله. بعد مضي خمسين سنة، لا يزال الفيزيائيون ينظرون باستخفاف غير علني نحو محاولات آينشتاين الأخيرة "أو ما يعرف باسم نظرية الثقالة ذات المترية المتخالفة"، كما لو كانت شيئاً خاصاً برجل عجوز مخرّف. ولكن لا أحد يحب الاعتراف بأن محاولاتنا الواهنة، لم تكن، بدورها، مجدية على الإطلاق. أحب أن أتصور الله وهو يبلل ثيابه (أو ثيابها) من الضحك الهستريائي بعد التأمل في كل الهراء الذي أتينا به كنظريات عن الثقالة الكمومية»[16].

إذن عن ماذا تبحث الفيزياء الحديثة حين تصب جهودها في سبيل إنتاج النظرية الموحدة العظمى؟ «عليَّ أن أؤكد أن حاجتنا لنظرية كمومية عن الثقالة لا تأتي من وجود تعارض مع معطيات تجريبية، وذلك لأننا لم نجد بعدُ ظاهرة فيزيائية تخضع للثقالة الكمومية. من الممكن ألاّ يوجد توحيد وأن الثقالة، ببساطة، غير قابلة للتكميم. ولكن هذه الإمكانية تبدو إهانة لمنطقنا العلمي. إن الطبيعة حولنا تصرخ من أجل وجود مبدأ واحد قادر على احتواء جميع النظريات الحالية، غير المنتظمة، التي نستخدمها لوصف العالم الفيزيائي حولنا»[17]. إن جوهر البحث هو استخراج تصور شامل للكون الفيزيائي، تعمل فيه جميع القوى متحدةً في إنتاج الواقعة الكونية بدون تناقض أو تصادم. إن هذا الجهد لعلماء الفيزياء لم ينجح حتى الآن، ويشكل عدم نجاحه غيمة سوداء لا تسد أفق البحث الفيزيائي فقط، بل يصل سوادها القاتم إلى جعل لوحة مستقبل الإنسان لا تبين ولا تظهر.

وهكذا خطت الفيزياء الحديثة إلى القرن الحادي والعشرين، وهي تحمل هزيمتها التي حاقت بها في القرن العشرين، حين عجز آينشتاين عملاق علم الفيزياء عن التوصل إلى "نظرية كل الأشياء" بكل طموحاتها المتعددة. ومات تاركاً المعلقين يصفون مشروعه بأنه سيمفونية ناقصة (يُنتظر من يُكملها). لقد حاول علماء فيزياء آخرون من بعده إصلاح عيب رؤية العلم للكون الفيزيائي، وإظهاره في إطار نظرية موحدة عظمى تجمع ساحتي قوى الكموم والثقالة، وقد أخفقت محاولتهم في ذلك حتى الآن. وهكذا سجلت الفيزياء عجزها عن أن تكون قاعدة تصور شامل للكون والإنسان، وبقي الكون المادي الذي ترصده عصّياً على أن يُحصر- منسجماً ومتوازناً- في نظرية واحدة تزيل حالة الصراع بين ساحات قواه. وكذلك لم تجد الإنسانية مكان وجودها المناسب في مسيرة تطور الكون. فعلى الرغم من كل النتائج التي أفرزها النشاط البشري، إلا أن الفيزياء عجزت عن استيعابها، ودراسة طبيعة الأثر وكميته التي سيدخلها النشاط البشري في مستقبل تطور الكون. وهكذا لم تتمكن الفيزياء أن تشكل النبع الوحيد الذي يستطيع كل فرد أن يرده ويأخذ منه كامل تصوراته، من خلال حدود الفهم الإنساني الذي تتغير نسبه مع تقدم التكنولوجيا.

تأثرت بعض الاتجاهات البحثية في علم البيولوجيا بهذا السواد الذي أفرزته الفيزياء الحديثة، حين عجزت عن رسم صورة منسجمة للكون المادي تحتوي جميع النظريات الحالية عنه، وتسمح بتشكيل نظرية موحَّدة له.اندفع عدد من علماء البيولوجيا والأنثربولوجيا لمحاولة إيجاد اختراق في هذا الغيم الأسود، الذي سَدتْ به الدراسات الفيزيائية أفق العلم كله، وأوقعت أصحابه في حيرة التيه، ومنعت العلم النظري من أن يتحول إلى أن يكون النبع الوحيد لكامل معرفة الأفراد.

على رغم محدودية وجود المادة الحية على الأرض، قياساً بالمادة الفيزيائية المشكّلة للكون، وعدم وضوح العلاقة بينهما، فإن محاولات كثيرة في مجال دراسة الأحياء قد ظهرت متزامنة مع اندفاع الفيزياء، في محاولة جعل العلم المصدر الوحيد لمعرفة الإنسان. إن الطبيب والعالم البيولوجي "الكسيس كاريل"، وكذلك العالم الانثربولوجي الراهب "تيلاردي شاردان" قد سعيا، كلٌ في طريقه، لاستخراج صورة للإنسان بالعلم، تكون متسقة مع الصورة الشاملة للوجود التي يرسم العلم حدودها بالخطوط العريضة. لقد كانت محاولة جريئة في إنهاء قطيعة الصور بين الكون الفيزيائي وبين الإنسان، الناشئة من الإشكالية الواقعية المتجسدة بالتناقض المركزي بين خطاب العلم عن قضاياه التي يدرسها، وبين الخطاب الإنساني المتحدث عن وجود الإنسان، وتاريخه على الأرض، وملامح مستقبله الوجودي. قطيعة منهجية تقوم بين الخطابين، وكل واحد منهما يكيل للآخر أقسى التهم وأشدها. لقد حاولت جهود العالمين (كاريل ودي شاردان) أن تقدم صورة للإنسان بالعلم، ليصبح بالإمكان إنتاج

تجانس في الصورة الشاملة لكل الموجودات، المتجسدة في محيط الأرض بمادة جامدة ومادة حية.

دراسة "ألكسيس كاريل" عن الإنسان هي دراسة بالعلم، حاولت أن تحدث خرقاً في غيوم الأفق الأسود الذي منع الرؤية في القرن العشرين. ولكنها توصلت إلى أن الإنسان حالة تستعصي دراستها بمناهج العلم التجريبي، وأنه يستحيل تقديم نظرية علمية تكشفه، وتقدم له صورة توضّح وجوده بشكل كامل. إن هذا الإخفاق التام يذكرنا بما نقلته لك قارئي العزيز عن ماغيجو من أن الثقالة غير قابلة للتكميم. وهكذا أهين المنطق العلمي كذلك خلال بحثه في البيولوجيا لإنتاج تصور عن الإنسان بالعلم. لقد أعلن كاريل عجزه، وقرر أن الإنسان هو المجهول الأكبر بالعلم. وترافقت هذه النتيجة مع ما حصل قبل ذلك في ساحة البحث الفيزيائي، حين حاول علماؤه تكميم الثقالة، والوصول إلى النظرية الموحدة العظمى. وهذا العجز في الساحتين هو ما فتح ملف "نظرية كل الأشياء" مجدداً.

العالم الراهب اليسوعي "تيلاردي شاردان" دمج إيمانه بالله مع العلم الحديث. كان عالم مستحاثات، وذا اهتمام خاص بحياة ما قبل التاريخ. حاول من خلال دراساته للتطور والارتقاء أن ينهي هذا الشقاق بين العلم والإيمان، وقد بقيت محاولته في حيّز تقديم لاهوت جديد، دون أن توجد قواعد الدمج بين صورة الكون المقدم بالعلم، وبين صورة الإنسان الدينية. لقد رأى دي شاردان كل الصراع الارتقائي قوة إلهية دفعت الكون من مادة إلى روح شخصية، وفي النهاية خارج الشخصانية إلى الله. فمن هذا المنظور كان المسيح "نقطة نهاية الكون" ذروة سيرة ارتقائية يصبح الله فيها الكل بالكل. وبذلك بقي الإنسان، وبقي الله معه سراً مستغلقاً يتلقاهما "دي شاردان" من الخطاب الإنساني، دون أن يحاول العلم التجريبي إضاءتهما، وإدخالهما في نسيج الصورة الشاملة لكل الأشياء التي يسعى

إلى إنتاجها، وبذلك ذهبت محاولة دي شاردان خارج دراسة الإنسان بالعلم التجريبي.

بالعودة إلى محاولة كاريل، فإن أول ما يلفت النظر أنه خرج من ساحة الفيزياء تماماً، وأنه قَصَرَ دراسته على علم البيولوجيا، وما راكمته من معرفة مبهرة وجديدة. وقد فصل الإنسان بهذا الخروج عن الكون الفيزيائي، فافتقد القدرة على الاستفادة من النتائج المفيدة التي توصلت إليها الفيزياء في النصف الأول من القرن العشرين. وإذا كانت هذه الخطوة في ظاهرها، أمراً طبيعياً كحالة تخصصية، إلا أنها واقعياً قد أقامت قطيعة مع الفيزياء، التي تحسست هذا السد المانع من الفهم الشامل على يد آينشتاين المعاصر لكاريل. لقد أدى هذا القطع بين البيولوجيا والفيزياء إلى تعامل الأولى مع مكونات هذا السد، بدون الاستفادة من نتائج البحث الفيزيائي. وهذا ما جعل عمل كاريل محاولة لاختراع العجلة المخترعة، بدلاً من الاستفادة من جهود الفيزيائيين، وما راكموه من نجاحات وتحديد إشكاليات. وهكذا لم تستفد مشاركة كاريل من الكشافات الفيزيائية المسلطة على الغيوم التي تسد أفق البحث العلمي.

إن تقييم محاولة كاريل- نموذجاً لمن عملوا على دراسة البيولوجيا لإنتاج صورة للإنسان بالعلم، مستجيبين بشكل مبهم وخفي لمحاولة آينشتاين إحضار وجود الإنسان إلى ساحة الفيزياء- تكشف أن إشكالية آينشتاين التي دفعته في بحثه عن "نظرية كل الأشياء" لم تكن واضحة لديهم. وأن تحسس آينشتاين المبهم والغامض لما أحدثه تطور فيزياء الجسيمات في دراسة قوانين الكم من هزة في البناء العلمي والمعرفي، بقي بدون أن يشكل استفزازاً لهم؛ من حيث أنه سؤال مركزي لإنتاج صورة للإنسان بالعلم التجريبي، تقتضي الإجابة عليه تخصيص فرق بحث له،

تنكب على إنتاج جواب جامع يحيط بكل إشكاليات الأشياء، ويشكل منارة تمنح كافة فروع البحث العلمي نقطة بداية واضحة.

يلحظ دارس تجربة كاريل من خلال تحليل كتابه "الإنسان ذلك المجهول"، أنه بحث لم يستطع صاحبه (كاريل الحائز على جائزة نوبل بالطب) أن يجعل وجود الإنسان بكل ظواهره المتشكلة واقعياً، ساحة بحثٍ يطبق عليها المنهج العلمي التجريبي. وسيظهر هذا العجز في الكثير من الأحكام التي أطلقها بوضوح تام، حتى أنه أعلن بشكل لا لبس فيه عجز هذا المنهج أمام دراسة الإنسان. وهذا ما جعل نقطة بدايته لا تمتلك النقاء المنهجي الذي امتلكته نقطة انطلاق آينشتاين. يقول كاريل: «لست فيلسوفاً، ولكنني رجل علم فقط، قضيت الشطر الأكبر من حياتي في المعمل، أدرس الكائنات الحية. والشطر الباقي في العالم الفسيح أراقب بني الإنسان، وأحاول أن أفهمهم»[18]، لقد أحس كاريل بشكل غير بيّن، بطبيعة الأرض التي يقف عليها، وأنها ليست أرض العلم الطاهرة النقية. لقد حاول استدراك ذلك من خلال ملاحظة أضافها على حكمه السابق فقال: «فإنني لا أدعي أنني أعالج أموراً خارج نطاق حقل الملاحظة العلمية»[19]، وهذا ما جعل انطلاقته عرجاء، لم تستطع أن تحدث قفزة على قدر التحدي،الذي جابه العلم التجريبي في القرن العشرين.

ومع تقليب صفحات الكتاب سيدعّم بحثه الإحساس بعدم نقاء المنهج علمياً، وذلك من خلال اتهام كاريل مناهج البحث العلمي- التي يُرَبّى عليها العلماء والباحثون في الجامعات الغربية، حاملةُ لواء العلم التجريبي- بأنها مناهج قاصرة، وأنها لا تصلح أن تكون قاعدة إنشاء "علم الإنسان". «تبدو الوسيلة العلمية- للنظرة الأولى- غير قابلة للتطبيق على تحليل جميع وجوه نشاطنا. ومن الواضح أننا- نحن المراقبين- غير قادرين على تتبع الشخصية البشرية في كل منطقة تمتد إليها، لأن فنوننا لا تفهم الأشياء التي

لا أبعاد لها ولا وزن. إنما هي تصل فقط للمناطق التي تقع في الاتساع والزمن. إنها غير قادرة على قياس الغرور والحقد والحب والجمال، أو أحلام العالم وإلهام الشاعر، ولكنها تسجل بسهولة النواحي الفسيولوجية والنتائج المادية لهذه الحالات النفسانية»[20].

لم يستطع منهج البحث العلمي الذي اصطنعه كاريل لدراسة الإنسان، والذي حاول تشكيله مما تعلمه في جامعته، وما خبره خلال تطبيقاته العملية في معمله، أن يكون أداته المناسبة لإنتاج "علم الإنسان"، الذي يقدم صورة جلية وواضحة لهذا الكائن، اعتماداً على ما استقر من قواعد البحث العلمي التجريبي: «لكن معرفتنا لن تتقدم تقدماً ملحوظاً بهذه الطريقة- الوسيلة العلمية كما تقدم في الفقرة السابقة- إذ سيكون علينا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فننتج علماً حقيقياً للإنسان. علماً قادراً- بالاستعانة بجميع الفنون المعروفة- على فحص عالمنا الداخلي فحصاً شاملاً ودقيقاً، وأن ندرك أن كل جزء فيه يجب أن يعتبر عاملاً يؤدي وظيفة للجميع»[21].

لقد أخذت تبدو عند كاريل ملامح واهية وضعيفة لطبيعة العمل المطلوب لإنتاج "علم الإنسان". فقصور المنهج من وجهة نظره، هو السبب المركزي وراء عدم القدرة على إنتاج هذا العلم المطلوب.«يجب أن نصرف حب استطلاعنا عن سبيله الحاضر ونوجهه في اتجاه آخر....يجب أن ننصرف عن الأبحاث الطبيعية والفسيولوجية لنتتبع الأبحاث العقلية والروحية»[22]. ولا يمكن في رأيه تدارك ضعف النتائج المتحصلة من قصور المنهج بتشكيل فرق عمل تضم علماء من كل الاختصاصات، لأن مثل هذا الفريق سيصل إلى النتيجة ذاتها، وسيكون الإخفاق والفشل نصيب جهوده التي سيبذلها: «بيد أن الحصول على مثل هذه التراكيب لا يمكن أن يتحقق بلجنة بسيطة تشكل من الأخصائيين حول مائدة مستديرة... إنها تحتاج إلى جهود رجل واحد لا إلى جهود مجموعة

من الرجال. فالعمل الفني لم يكن من إنتاج لجنة من الفنانين، كما أننا لم نسمع يوماً أن اكتشافاً كبيراً جاء نتيجة جهود بذلتها لجنة من طلاب العلم. إن التراكيب المطلوبة لتقدم "علم الإنسان" يجب أن تكتمل وتتقن في عقل واحد. لأنه من المستحيل على الاخصائيين أن يستعملوا أكداس المعلومات المتجمعة، إذ أن أحداً لم يكلف نفسه عناء تنسيق المعلومات التي أمكن الحصول عليها، واعتبار الإنسان في كلّيته»[23].

وهكذا أصبح البحث عن المنهج* اللازم لإنتاج "علم الإنسان" هو ديدن كاريل. لقد دفعه يأسه المتحصل من خلال نزوله إلى هذه الساحة المخوفة والمفزعة إلى أن ينكفئ ناقداً اتجاهات التدريس في الجامعات، وأن يوصي بتعديل تدريس المناهج العلمية في كل الاختصاصات، لكي يصبح في الإمكان تهيئة دارسين، يعملون على مناهج علمية تصلح لإنتاج علمه الذي يتطلع لإنتاجه: «إن رؤساء الجامعات ومستشاريهم لا يدركون أن العقول المركبة ضرورية مثل العقول المحللة. فلو اعترف بسيادة هذا النوع من العقل (التركيبي) وشُجِّعَ نموه وتطوره، لتلاشى خطر الاخصائيين. إذ سيكون بالإمكان عندئذ إدراك أهمية الأجزاء في النظام الكلي إدراكاً

* تدل كلمة المنهج على مجمل أمور تنضوي تحتها: أولها الساحة التي تدرس من قبل الباحث، ويشكل تحديدها وترتيب عناصرها ركنين ضروريين في تعيينها. وثانيها تحديد الأدوات المستخدمة في البحث (حواس وتكنولوجيا). وثالثها طرائق البرهان المستخدمة من حيث اعتمادها على موقف داخلي للباحث (إيمان). أو أن ينحكم لعلاقة مواد الساحة المبحوثة (التجريب). وبذلك تتضح معالم المنهج وأركانه، كطريق يسير عليه الباحث لإنجاز بحثه الذي يعمل عليه. إن هذا التحديد لدلالة مصطلح المنهج، تسمح بالتحدث عن المنهج المعرفي من ناحية، وعن المنهج العلمي مقابلاً له. ويتمكن البحث من الإحاطة المنسجمة بكل الفروع المنبثقة من هذين المحورين. إن الفروق بين أطياف فرعي المنهج (المعرفي والعلمي) لا تسمح أبداً بتوجيه تهمة اللامنهجية لأي بحث يستخدم منهجاً لا يرتضيه الناقد. إن اختلافات المناهج أمر مقرر، وهي تؤدي إلى نتائج تتفق مع طبيعة المنهج المستخدم. إن غياب المنهج يقلل من عدد النتائج التي يتوصل إليها الباحث، ويعرض هذه النتائج بطريقة غير مرتبة تجعلها تبدو متداخلة ومتعارضة. ولهذا فإن مهمة البحث النقدي للآثار الفكرية (العلمية والمعرفية) تحمّل مسؤولية التصدي لكشف طبيعة المنهج الذي يستخدمه الباحث، وآثار هذا الاستخدام في النتائج المتوصل إليها.

كاملاً. إن معلوماتنا عن الإنسان في الوقت الحاضر لا يمكن أن تتقدم إلا إذا اجتذبنا الصفوة الممتازة من الرجال، أصحاب العقول القوية، لدراسة هذا الموضوع، لأن الموقف يدعو إلى اجتذاب الكفايات العقلية الناضجة»[24].

ثم يقفز بعد ذلك ليعلن أن هذا المحور من الدراسات العلمية يقتضي تعديلاً في الأصول النظرية التي بني عليها العلم التجريبي منذ مطلع العصور الحديثة: «إن تقدم علم الإنسان يتوقف، أكثر من أي علم آخر، على جهد عقلي جبار...والحاجة إلى مثل هذا الجهد تستدعي إعادة النظر، لا في رأينا في العالم فحسب، بل أيضاً في الأحوال التي تتم فيها الأبحاث العلمية»[25]. ويصل بعد ذلك إلى نتيجة يحاول فيها أن يرتب الأولويات في البحث العلمي ترتيباً جديداً، فيضع دراسة الإنسان في المرتبة الأولى، دون أن يبين السبب الكامن وراء هذا الترتيب: «سيكون علم الإنسان مهمة المستقبل، فيجب علينا أن نقنع الآن بالبداية سواء من الناحية التحليلية، أو من الناحية التركيبية المتعلقة بالصفات الخاصة بالإنسان. وهي الصفات التي برهن النقد العلمي على صحتها»[26].

وهكذا لم يستطع علم البيولوجيا أن يتلمس الطريق لإحداث الخرق المطلوب في أفق العلم المسدود، الذي تشكل من طموح أبحاث الفيزياء الحديثة في القرن العشرين. وعلى رغم التخبط الشديد في محاولة الاهتداء إلى المنهج المناسب لبحث كهذا، فإن دراسة كاريل قد سارت خطوة إلى الأمام، حين نتج عن معاناته من قسوة الظلام المنسدل على أفق البحث العلمي، أن يعلن الحاجة- بخطاب مبهم وغامض- إلى نقل ساحة الدراسة لتقديم منظور شامل للكون بكل أشيائه بالعلم، من حيّز الفيزياء إلى حيّز آخر، اصطلح على تسميته "علم الإنسان". لقد أشارت عبارات آينشتاين التي أطلقها إلى مثل هذا الهدف، حين عبّر عن هذا المأزق البنيوي الذي

دخل العلم فيه في القرن العشرين مع اكتشاف قوانين الكموم في قوله: «العلم بدون نظرية للمعرفة، منهج بدائي ومشوش»[27]. وهذه العمومية في التعبير عند آينشتاين ستتلاقى مع الجهود التي دعا كاريل إلى بذلها بإعلانه أن "علم الإنسان" سيكون مهمة المستقبل.

يطلب كاريل أن يكون "علم الإنسان" هو قاعدة إنتاج صورة شاملة لكل ما في الوجود، مرتباً أولياته حسب اختصاصه في علم البيولوجيا. وقد وجّه- خلال محاولته إطلاق الخطوة الأولى لإنتاج هذا العلم- نقداً قاسياً لمناهج العلم، ودعا إلى إعادة النظر فيها. وهذا ما جعل نظرته للمستقبل تشاؤمية، وسمح له بتوجيه نقد قاس للحضارة العصرية في مطالع القرن العشرين: «ونحن ندرك أنه بالرغم من الآمال العريضة التي وضعتها الإنسانية في الحضارة العصرية، فقد أخفقت هذه الحضارة في إيجاد رجال على حظ من الذكاء والجرأة يقودونها عبر الطريق الخطر الذي تتعثر فيه...لأن بني الإنسان لم ينموا بنفس السرعة التي تُبثُ بها الأنظمة من عقولهم. ومن ثمّ فإن أكثر ما يعرض الأمم العصرية للخطر هو النقص العقلي والأدبي الذي يعاني منه الزعماء السياسيون»[28]. وهذه الخلفية هي ما دفعه لكي يشير إلى ساحة خطاب الإنسان، ويطلب النجدة منها.

وقبل كاريل توصّل آينشتاين إلى نتائج إجمالية قريبة مما توصل له كاريل. فهو يرى أن العلم كما هو في ساحة الفيزياء منهج قاصر، لا يستطيع أن يلبي وحده ما يحتاجه الإنسان في حضارته العصرية: «العلم بدون نظرية للمعرفة، منهج بدائي ومشوش»[29]. وهو كذلك يوجّه نقداً لاذعاً لأصناف من السلوك الإنساني، كانت قد أخذت تَغلب على النشاط البشري المنتج للحضارة العصرية في القرن العشرين. لقد أظهرت تجربة العلم في نموذجي العالمين آينشتاين وكاريل عجزاً فاضحاً في أن تقدم منظوراً شاملاً لكل الأشياء، تستطيع أن تعتمده الإنسانية ليكون منبعاً

للتصورات، يمكن لكل فرد أن يغرف منه معرفته الفردية، فيتحول بها إلى عنصر إيجابي متفائل يساهم في تطوير الإنسانية. إن تأكيد العالمين المذكورين على دور المعرفة، هو ما جعل هذا الكتاب يعود إليها ينظر في تصورها للوجود، ويقدم تقييماً له، في خطوة لتقديم الكتاب لتصوره الخاص لاحقاً.

فإذا كان آينشتاين يخاطب "بور" واصفاً إلهه بأنه يلعب النرد، ومتمنياً في وقت آخر نظرية معرفية يتأسس عليها المنهج العلمي. وإذا كان تصريح كاريل أشد وأقسى حين تحدث عن العيوب المدمرة في حضارة القرن العشرين، التي ولدتها التطبيقات العملية لقوانين الريب والاحتمال (الكموم) على يد كل من "بور وهايزنبرغ"، فإنه لم يعد بإمكان كتابنا هذا أن يحقق الإحاطة بموضوعه، وأن يكون مقنعاً لقارئه إذا تجاوز الإطلالة على ساحة المعرفة، التي يشكل الدين والفلسفة عمود صورتها.

لن يرتجف هذا الكتاب أو تصيبه رعدة وقشعريرة من موقف العلم الموضوعي في القرنين السابع عشر والثامن عشر من الدين؛ ولا من هذا الاضمحلال لدور الفلسفة في القرن العشرين، لأنه يدرك أن هذه مفرزات واقعية لطبيعة خصائص العلم، ولمستوى النقلة التي حققها على المعرفة، حين جعل المعلومة المتلقاة من الخارج مصدره الأساس، وأنهى اعتماد البحث والدرس على مرتكز الموقف الشخصي للدارس، والذي كانت كلمة "الإيمان" هي مؤسس كل طرائقه ومناهجه.

نجاح العلم في أن يتصف بالموضوعية منذ القرن السابع عشر، وأن يعزز هذه الموضوعية بالتجريب في القرن الثامن عشر، قد نقل البحث الإنساني في بنية البرهان على صحة القضايا، من مستوى الاعتماد على إيمان خفي يحمله الباحث في داخله، إلى الاعتماد على المعلومة التي

تقدمها الملاحظة، ثم يأتي التجريب لاحقاً ليؤكد صحتها أو ينبذها. إن التطبيقات الناجحة لهذا المنهج هي ما جعله يصبح بديلاً عن مناهج المعرفة المستخدمة في محوريها الفلسفي والديني. مما أدّى إلى أن ينقطع الدين انقطاعة كبيرة عن أن يغذي الأبحاث والدراسات، بينما بقيت الفلسفة تحاول أن تماشي هذه النقلة في المناهج، فسايرت العلم خطوات قليلة في القرنين التاسع عشر والعشرين خلال توليدها لنظريات أيديولوجية، يؤمن الناس بها، ويجعلونها أساساً لاجتماعهم. ولكنها ما لبثت أن أظهرت عجزها عن إكمال الطريق: «ولكن، في عالم يزداد انشغالاً بالعلم وبما ينتج من نماذج فكرية، وبالتكنولوجيا وما تجلب معها من نماذج حياتية، فقد الخطاب الفلسفي قوة حقيقته القديمة؛ وبدا الفيلسوف، المهدد من جانب العلوم الإنسانية، والعاجز عن إنتاج منظومات أيديولوجية يمكنها أن تجعله مرشداً سياسياً على الأقل، بدا أنه على وشك فقدان آخر امتيازاته: امتياز التفكير»[30].

الفصل الرابع: لماذا لم تكن الفلسفة....؟

الفلسفة أحد فرعي المعرفة الإنسانية، اعتمد انتاجها منهجياً على موقف داخلي للباحث، يحاكم من خلال عملية خفية تجري في داخله، كل ما يعرض أمام ناظريه من قضايا تحتاج إلى نظر، وتقتضي التدقيق للتوصل إلى حلّ لها. وحين تذكُر أدبيات تاريخ الإنسان مصطلح الفلسفة، لا تجد مندوحة في أن تقرّ أن اليونانيين هم الذين ولدّوا هذا المحور من النظر المعرفي، وهم الذين صدّروا المصطلح وأبحاثه إلى كل الثقافات الأخرى التي عايشتهم في قرون ما قبل الميلاد وما بعده. لقد أرسى فلاسفة اليونان هذا الاتجاه البحثي، مولّدين طريقة إبداعية جديدة لتناول معرفيّ للوجود والإنسان، فأطلقوا مصطلح "العلم" للدلالة على طرائق بحث معينة، ينصبُّ فيها اهتمام الفيلسوف على مظاهر الوجود التي تلتقطها حواسه، لاكتشاف القوانين الحاكمة لها حسب قدرة هذه الحواس، والتي تمدُّ البحث بأدلة صحتها النابعة من بنية الفيلسوف الداخلية. وهكذا تحدث فلاسفة اليونان بدءاً من هرقليطس وبارامنديس وفيثاغورث ومروراً بحلقة سقراط وأفلاطون وأرسطو، في قضايا شملت كل ما تلتقطه حواس الإنسان، وجدّ كل منهم في توصيفها وإثباتها في نص لغوي.لقد كان السعي جاداً لكل منهم في أن يكون خطابه عاكساً لإيمانه بما توصل إليه، وكان نجاحهم مذهلاً، حتى إن علمهم شكل قاعدةً لفلسفتهم، وبدت الفلسفة حكراً عليهم لم يشاركهم بها شعبٌ من الشعوب.

الفلسفة هي الوجه الآخر للمعرفة الذي يمثل الدين وجهها الأول. وقد استقر منهجها على أن تكون الحواس نافذة التفكير الضرورية، وهي التي تحدد مادة الدراسة والبحث. وهذا التأكيد على طبيعة مادة الدراسة هو الذي منح الفلسفة كل خصائصها، حين بحثت في الفيزياء أولاً، ثم اقتضاها

منهجها المعتمد على برهان داخلي أن تبحث ما وراءها. وقد التزمت الفلسفة بمنهجها المعتمد على الحواس في دراسة الفيزياء فأنتجت كافة مضامينه، فوصّفت الأشياء من ظاهرها حين درست المادة الفيزيائية، بينما كانت أبحاثها في ما وراء الفيزياء أسئلة لم تقدّم أجوبة قاطعة لها، لأنها كانت بحثاً في أمورٍ لا تمتلك الحواس حسماً لها. وهذا ما أعطى أبحاث ما وراء الفيزياء اتساعها الكبير، وتنازعها الهائل مع ما كان يقرره الدين جازماً من وجودٍ لما وراء المادة. إن طبيعة المنهج المعرفي (العلم الذاتي) الباحث فيما تضبطه الحواس في الفلسفة اليونانية، يقدم الأساس الذي سيُطوّر العلم التجريبي حسبه، حين أكد في قرون العصر الحديث، أنه لن يبحث إلا في المحسوسات، وأنه سيرفض الخوض في أي مبحث لا تستطيع حواس الإنسان وآلات العلم أن ترصده.

صورة الوجود التي تقدمها الفلسفة عكست بدقة هذا المنهج، وضبطت ظواهر الوجود الخارجية في محاولة إيجاد الروابط بين أجزائها.و هذا ما دفع الفلاسفة أن يخمنوا ماهية المادة التي يتشكل الكون منها، اعتماداً على عمل برهانهم الذاتي الذي يعتمد الحواس من ناحية، ويرجع إلى ماهية الرؤية التي يحملها الفيلسوف في داخله من ناحية أخرى. وهكذا اختلف الفلاسفة إلى مذاهب كانت خصائص الفردية هي أساسها «...فقد اكتشفنا لتونا أن العلم وحدة واحدة. لا تضحكوا، فلعلكم عرفتم هذا فعلاً، لكن فقط بحكم الغريزة، كشيء ترغبونه، أما نحن فقد خلّفنا انقساماتنا وراء ظهورنا»[31]. هذا ما أورده "رولان أومنيس" في حواريته الخيالية مع فلاسفة اليونان في توطئة كتابه "فلسفة الكوانتم"*.

* يحاول رولان أومنيس في كتابه "فلسفة الكوانتم- فهم العلم المعاصر وتأويله" أن يبحث في الموضوع الذي يدرسه كتابنا هذا، نافذاً إليه من حدود فيزياء الكوانتم. وقد أوصله المنهج إلى أسئلةٍ بقيت بدون أجوبة، مما أبقى بحثه مفتوحاً على المجهول.

اتفق العلماء المعاصرون مع علماء اليونان في أن العلم وحدة واحدة، ولكن الفارق بين الفريقين هو في مصدر هذا الحكم. لقد اختصر "رولان أومنيس" هذا الفارق في عبارته السابقة (بحكم الغريزة)، كاشفاً عن طبيعة المنهج البرهاني الذي اعتمده فلاسفة اليونان في أبحاثهم. وهذا ما يطرح سؤالاً ملحاً، ما الذي ألمح كل من آينشتاين وكاريل بالحاجة إليه. هل كان العالمان يشيران من خلال الحديث عن المعرفة إلى علم اليونان بكل بساطته، مقارنة بالعلم الذي كان كلا العالمين المعاصرين يدرسانه؟ لاشك أن علم اليونان شكّل أساس العلم الموضوعي في قرون عصر النهضة، ثم ما لبث أن ظهر بينهما تصادم في كثير من القضايا، أثبت العلم التجريبي صحة قضاياه، وانطلق في طريقه متطوراً إلى آفاق لا تستطيع الفلسفة الاقتراب منها. لقد بقي ما تقدمه الفلسفة للعلم الحديث محصوراً في أفق التساؤلات التي لم يبت العلم في بعض قضاياها بعد. إن دور الفلسفة اليونانية في الحضارة الغربية، التي صارت حضارة للجنس الإنساني كله، أمر يؤكد عليه كل العاملين في إنتاج هذه الحضارة عبر قرونها الأربعة الماضية. فما هي إذن طبيعة هذا الإلحاح من آينشتاين وكاريل على حاجتهما إلى المعرفة، كل حسب صياغته لهذه الحاجة؟.

الانتقال من الذاتية إلى الموضوعية ومنها إلى التجريب في تطور مناهج البحث، هو خط السير الذي حدث فيه زوال حضور المعرفة (الفلسفة والدين) من ساحة الكشف الجديدة (البحث العلمي). وهذا ما وضع حاجزاً فاصلاً بين المعرفة، ومعها علم اليونان وعلوم غيرها من الشعوب والأمم، وبين العلم الحديث: «فقد خضعت ثلاثة علوم وثيقة الصلة ببعضها، هي المنطق والرياضيات والفيزياء، لعملية تبدل كامل تقريباً في الوقت نفسه من دون سبب مشترك بينها، انتقلت جميعها من مقاربة مرئية قابلة للتمثل إلى مقاربة لا تصورية مجردة وصورية»[32]. إن هذا هو الانتقال المشير لبدء عملية التفريق الكامل بين فلسفة اليونان وبين العلم

الحديث. وتأتي صياغة أومنيس لتكشف ما هو الأمر الذي قطع فيه العلم الحديث مع الفلسفة: «كما ترون، هذه القوانين الجديدة المؤسسة جيداً، إنما تفنِّد مبادئ أخرى ذات طبيعة فلسفية، ودائماً ما كنا نعتبرها مبادئ عمومية: القابلية للفهم "إمكان أن نرى ما يوجد في الزمان والمكان"، التموضع "كل شيء في مكان ما"، العليّة "لا معلول بدون علة"، وبضعة مبادئ أخرى»[33]. ولم تلبث صياغة العلم الحديث أن حددت المشكلة بدقة تامة: «يبدو أن ثمة هوة، صدعاً، بين عالم الفكر، العالم النظري، وبين الواقع الفيزيقي. يبدو كأن قوة المنطق والرياضيات، بعد أن رصدت أدق تفصيلات هذا الواقع، عاجزة عن اقتحام ماهيته»[34].

لقد أصبحت الريبية والاحتمال حاضرةً بشكل لا ينكر في العلم، وهو ما شكلّ حالة الضغط التي تحسسها آينشتاين ودفعت به إلى هذا البحث الدؤوب عن "نظرية كل الأشياء"، وهو ما أنسرب إلى علم البيولوجيا، ودفع كاريل لأن ينطلق من موقعه للبحث عن حلّ لهذا الإشكال، متخذاً بيولوجيا الجسم الإنساني نقطة انطلاقه: «النظرية الآن أكثر من أي وقت مضى أصبحت قائمة على الاحتمالات، على المصادفة، لأن إمكان الوصف المنطقي للعالم يرسو في الوقت الراهن على هذا المفهوم للاحتمالية. وهكذا نجد أن ماهية النظرية هي وصف ما هو ممكن، ولكن ماهية الواقع هي أنه متفرد، وبالتالي هناك هوة بين الاثنين»[35].

أحب الآن لك قارئي العزيز أن تقرأ بتمعن كيف عرض رولان أومنيس صياغتين لحضور أزمة الريبة والاحتمال، وطبيعة الحل المترجى لها، حين كان يخاطب فلاسفة اليونان في حواريته المتخيلة. فهو حين يتحدث مباشرة عن آراء العلماء المعاصرين يرى: «لعلنا بلغنا حدود ما أسماه "هوسرل وهيدغر"، وهو معجب بكم، المشروع الديكارتي: التفسير النظري للعالم باستخدام المنطق والرياضيات»[36]. بينما حين ينطق

فلاسفة اليونان بتصور إلى أين يذهب العلم الحديث في السيناريو الرائع الذي جعله توطئة لكتابه فلسفة الكوانتم: «سمعت بارمنيدس يهمس إلى زينون قائلاً: "هل تعتقد أنهم على وشك أن يبدأوا الفلسفة بأسرها مجدداً؟" وأجابه زينون "من شأن هذا أن يكون مفارقة لطيفة"»[37].

في هذا المستوى من تطور العلم في النصف الثاني من القرن العشرين حدث الانفصال بين العلم والفلسفة، وتحكّم في هذا الانفصال طبيعة الأداة التي تُستخدم في رصد الواقع وكشف ماهيته (سعة، ودقة، وسرعة)، وأصبحت قواعد الرصد بالحواس (القابلية للفهم، التموضع، العلية) غير ذات حضور بالنسبة لمستوى الرصد الجديد بالتكنولوجيا. لكنها بقيت أسساً لفهم الإنسان لما ترصده التكنولوجيا الآن، دون أن تكون ضرورية لعملية الرصد ذاته. وبذلك أخذ يؤشر هذا الصدع بين النظرية وبين الواقع إلى أمر مستقبلي لم تستطع دراسات "رولان أومنيس" الإبستمولوجية رصده. إنه مستقبل يرتبط بشكل تام بطبيعة العلاقة القائمة بين نشاط الإنسان وتطوره، وبين مسار التطور الكوني المندفع بخصائصه من الانفجار الكوني العظيم. إن ما يؤشر إليه هذا الصدع هو كشف ماهية هذه العلاقة بين الحركتين (الكونية العامة، والإنسانية)، وهي العلاقة الملغزة التي انبهمت أمام أومنيس، فلم يستطع أن يحددها أو يوصّفها، رغم هذا الزمن الفاصل بينه وبين أينشتاين وكاريل.

الفلسفة قدمت رصداً للوجود بحواس الإنسان ابتداءً، وكان إبداعها هو هذا البحث المنظم في مشكلات الوجود (طبيعة وإنساناً)، فاتحة من خلاله مسار دراسة ستكبر لاحقاً في نشاطات العلم الحديث. ويبقى الخطاب الفلسفي خطاباً معرفياً، تعتمد البرهنة فيه على موقف الفيلسوف وإيمانه بصدق ما يقول. إن هناك أزمة أبسيتمولوجية بين تطور العلم في القرن الحادي والعشرين، وبين الخطاب الفلسفي قديمه وحديثه. وهي تدور حول

ماهية الرابط بين معرفة الإنسان المرتبطة بحواسه، التي تشكل حسه العام المشترك وتتغذى من حدسه الإنساني، وبين ما أخذ يراكمه العلم الآن من صور للواقع، أخذت تفارق حس الإنسان وحدسه، بسبب الدور الجديد للتكنولوجيا في متابعة رسم خريطة الوجود بشكل أوسع. وبذلك بدأت صلة الخطاب الفلسفي بالتلاشي في إنتاجات العلم الحديث. وتهمّش دور الخطاب الفلسفي في أن يكون نبعاً لمعرفة الإنسان.

الفصل الخامس: حين لا تنجدنا الفلسفة، هل نلجأ إلى الدين؟

سأختصر عليك الطريق قارئي العزيز، وأحاول التخفيف عنك من هذا الإجهاد الذي حملته حتى الآن في متابعتك لفقرات هذا الكتاب، فأقول لك إنك لن تجد لدلالة كلمة المعرفة- إلى جانب الفلسفة وعلومها- من محتوىً آخر إلا الدين، المتضمن في لبّه إيمانه الثمين. لقد عرَّجتُ في فقرات سابقة كثيرة لأرصد لك هذا الفارق بين العلم الموضوعي التجريبي وبين المعرفة، وكشفت لك أن جوهر الفارق هو دور الإنسان في هذا الإنتاج. ورغم كل الإغراء في أن يخوض القلم في بحث تفصيلي لهذا الفارق، إلا أنني أمسك قلمي عن الاستجابة له في هذه القطعة من الكتاب، وأترك الخوض فيه إلى القسم الثاني، حين يتم عرض تصور الكتاب للوجود، والذي سيكشف فيه عن التوصيلات بين العلم التجريبي والمعرفة، ويضعهما في إطار بحثي واحد يضم الكون والإنسان.

"الدين" مصطلح واسع الاستخدام الآن. وهو يحاول أن يضم أشتاتاً من تجارب الإنسان، راجعةً إلى أقدم مرحلة يمكن أن ينضبط فيها نص لغوي عند مجموعة من الناس. والباحثون في التاريخ والأنثربولوجيا حين يحاولون كشف حضور هذا المصطلح واقعياً، يقدمون صوراً مختلفة الوضوح له. النموذج الأكمل للواقع الذي يشير إليه مصطلح "الدين"، هو ما يسود جموع أتباع الدين التوحيدي من أهل اليهودية والمسيحية والإسلام. وحقٌ كاملٌ أن كثيراً من آثار شعوب ومجتمعات أخرى تمتلك ملامح من هذه الدلالة، ولكن أرشيف الإنسانية يؤكد أن أهل هذه التجمعات الثلاثة قد عاشت نمطاً حياتياً معيناً، أكدت أنه كان يُحكم بالدين حصراً، وهذا ما يسمح بدراسة الدين التوحيدي بحلقاته الثلاث، كعينة نقية للظاهرة التي يدل عليها المصطلح.

تقدم أدبيات الدين التوحيدي خطاباً يجانب مجانبة تامة قواعد العلم التجريبي، حين تتحدث بألفاظٍ عن وجودٍ لا يمكن للعلم أن يحدده، وأن يقوم بدرسه. ولهذا السبب تفتقد أدبيات الدين القدرة في أن تكون مضامين خطابها مادة دراسة للعلم التجريبي، وهو ما يجعل البحث فيها أمراً مستحيلاً عليه. إن هذا هو ما أقام قطيعة جزئية بين الدين وبين فلسفة اليونان في عصور سابقة، ومن ثم أخرج الدين من أن يكون مبحث درسٍ للعلم الحديث في عصرنا الحاضر.

تتحدد دلالة لفظ "الدين" في ضوء المنهج المستخدم في البحث في هذا الكتاب، بأنه علاقة بين ساحتي قوى حية؛ إحداهما هي "الإنسان" مادية وفردية ومحدودة القدرة. والأخرى قوة حية خارجية، يُدَل عليها باسمٍ حدّده الخطاب الديني، قدمت له النصوص المقدسة للدين التوحيدي توصيفات عديدة، تشير إلى أنه قوة حية لا مادية ولا محدودة مطلقة القدرة على الإنسان. كما بينت النصوص أن العلاقة بين ساحتي القوى هاتين علاقة ضرورية لا يمكن الانفلات منها، تتحدد بخضوع الساحة المادية المحدودة والأضعف (الإنسان) للساحة الأخرى، حيث ينتج الإنسان حركة تتفق مع طبيعته الحية، من حيث تحقيقها للحفاظ على وجوده المادي. ويتحدد-خلال هذا النشاط- دور الساحة الخارجية بضبط وتوجيه حركة الإنسان المادية إلى أهداف وغايات محددة، زائدة على هدف حفاظه على وجوده. فتظهر العلاقة بين الساحتين كالعلاقة بين الدائن والمدين، كما كانت في الألف الثانية والثالثة قبل الميلاد. حيث يقوم المدين المُعْسِر بخضوعٍ مخصوصٍ للدائن، يسمح له بإطلاق عمله من جسمه للحفاظ على حياته، ولكنه يُسّخر هذا العمل لأهداف زائدة على هذا الحفظ، حسب توجيهات الدائن المحددة بأوامره ونواهيه.

الدين كما هو مثبت في نصوص الكتب المقدسة، هو مصطلح يشير إلى علاقة كونية ضرورية تقوم بين قوة حية مطلقة الحضور بدون أي نقص أو تحديد لها من جهة، وبين الإنسان كساحة قوة حية مادية من جهة أخرى. والعلاقة بين الطرفين قائمة على الضبط والتوجيه من قبل القوة الخارجية- الممثلة بدلالة الألفاظ (الرب، يهوه، الإله، الله)- للإنسان في إطلاقه لحركته، التي يحافظ بها على وجوده كأي كائن حي مادي. ويشمل هذا الضبط كل عناصر الحركة، فيتم ضبط وتوجيه البرنامج الداخلي المركب للفرد الذي يطلقها، فيتحقق انسجام بين عناصر داخل الإنسان، اصطلح على تسميته بـ "الإيمان"، ثم تتابع أوامر الرب الإله ضبط الحركة النابعة من هذا البرنامج (عمل الإنسان) من خلال أحكام "الشريعة". وبذلك تكون دلالة لفظ "الدين" مشتملة على ضبط وصياغة البنية الداخلية التي يحملها الفرد المؤمن على نسق مخصوص، وبها يتم تلوين حركته الخارجية المقيمة للعلاقة مع الآخر بسمات خاصة مركزة، مما يجعلها (الحركة) تشكل مساهمة في تحقيق هدف محدد أكبر من الحفاظ على الوجود الشخصي للفرد.

يشكّل الدين بهذا التحديد أحد قسمي دلالة مصطلح "المعرفة" الذي تستخدمه البشرية مبهماً وغير دقيق. وهو يقف أمام الفلسفة مشيراً إلى نمط صياغة لوجود الإنسان، مختلفة عن الصياغة التي سعت فلسفة اليونان إلى تصور وجود الإنسان حسبها. فإذا كانت الفلسفة اليونانية كمعرفة إنسانية، تركّز على علاقة الفرد بالوجود المادي (بمكونيه الطبيعة والآخر) كواقع خارجي وحيد تلتقطه الحواس، وتدعو بإلحاح إلى أن تكون ضوابط حركة الإنسان نابعة من استحقاقات عملية الضبط هذه، وتعتبر عقل* الإنسان

* لفظ العقل من أكثر الألفاظ شيوعاً في أدبيات الفلسفة والدين، ورغم المحاولات الجادة في تحديد مدلوله، إلا أنه بقي مستعصياً عليها، وشكل الدلالة الكبرى على لغز وجود الإنسان. وسيستخدم هذا الكتاب لفظ "عقل" في مصطلح العقل الحي الفردي، إشارة منه إلى أن الدلالة المقصودة

الفرد هو أداة صنع هذه الضوابط، فإن الدين التوحيدي كمعرفة إنسانية، يؤكد أن مصدر ضوابط حركة الإنسان بقسميها (الإيمان والشريعة) إنما تأتي من الرب الإله، من حيث أنه مصدر الوجود المادي وأساس معقوليته، ويؤكد أن هذا الشكل من ضبط سلوك الإنسان (داخلاً وخارجاً)، هو ناتج علاقة الإنسان بالقوة الحية الشاملة التي يُنسب صدور الوجود كله إليها.

الدين في هذا أكثر التصاقاً بدلالة مصطلح المعرفة من الفلسفة، وأكثر قرباً منها لما ألمح إليه آينشتاين في توقه لنظرية معرفية تخلّص العلم من بدائيته وتشوشه، وما تطلَّعَ إليه كاريل بغموض لإنقاذ الحضارة الحديثة من مخاطر الزوال التي تهددها. ويبدو لنا ذلك واضحاً، من خلال استخدامهما لمصطلح المعرفة المختلف عن لفظ العلم، في توصيف ما اعتبراه الأمل الذي يمكن أن ينجد العلم المعاصر والحضارة الحديثة.

يقدم الدين تصوراً للوجود وللإنسان متمحوراً حول مركزية حضور الرب الإله الحي في هذه الصورة، ودوره في إيجاد الكون والإنسان، وضبطه وتوجيهه لحركة الإنسان. ويبرز هذا التصور في نصوص لغوية توصف بأنها مقدسة، وتعتمد على علاقة الرسل والأنبياء بالإله بارزة في أشكال منوعة. وتقدم هذه النصوص المقدسة خطاباً متكاملاً، يشكل الاهتمام بالإنسان محوره الرئيس. ويكون حضور الكون الفيزيائي- كإطار حاضن لوجود الإنسان- في هذا الخطاب ثانوياً.

المنهج المعرفي الذي يعتمده الدين في صياغة خطابه يختلف عن المنهج المعرفي للفلسفة. **فالفلسفة موقف يستخدم الحواس، يقف فيه**

باللفظ عنده هي **وحدة نظام حي محدود للكائن المادي، يقيم وجوده ويطلق حركته للحفاظ على هذا الوجود**. وهذه الدلالة دقيقة جدا في انطباقها على مدلولها رغم غنى وتعقد وتداخل هذا المدلول. وستسمح دقة الدلالة في توسيع حدود استخدام المصطلح من الإنسان إلى الحيوان.

صاحبه (الفيلسوف) أمام الوجود باحثاً ومفكراً بدون أية مرجعية مسبقة توجه بحثه، مما يجعل ناتج بحثه توصيفاً للظواهر، وأسئلة عن جوهر الوجود وأهدافه. بينما يمثّل الدين موقف تسليم، يرتكز إلى روابط خفية مع قوة حية أكبر من الإنسان والكون، ويكون قلب* الإنسان هو مركز الربط. ويصاغ هذا كله في خطاب لغوي ذي سمات متميزة، تؤكد على أن مصدره هو الرب الإله. ويشتمل خطاب الدين التوحيدي على أحكام قاطعة حول وجود الإنسان وسلوكه وهدف وجوده. وهذا ما يؤسس لجذر الخلاف بينه وبين مضامين خطاب الفلسفة.

مركزية الإنسان في الوجود هي المحور الذي تدور حوله المعرفة بمنهجيها (الفلسفة والدين)، وقوننة القواعد للحفاظ على وجود الإنسان هو الهدف العملي الذي يتضمنه خطابا الدين والفلسفة كل من زاوية رؤيته. إن نجاح الإنسانية في الحفاظ على وجودها الممايز لوجود الحيوان، كشف عن انسجامٍ كاملٍ بين الإنسان وبين الطبيعة التي تحضنه، وسمح لمعرفته

* مصطلح القلب له حضور مركزي في أنماط الخطاب الديني، وهو يشير بداية إلى اللب والجوهر في نظام جسم كل إنسان. ويسكب الخطاب الديني على هذا اللب خصائص مماثلة للوعي، من حيث أنه الأساس الأول الذي يطلق الحركة الحية بكل خصائصها في الحفاظ على الوجود. وهو بهذه الإمكانية، يشكل قاعدة منسجمة مع السلوك العام للإنسان الواعي حيناً، أو يشكل حالة معارضةٍ ورفض للخضوع لمستقرات الوعي المتلقاة بالنص اللغوي من الإله الرب حيناً آخراً. إن حالة المعارضة محتواة في دلالة المصطلح، من حيث أنه يصدر ضوابط وتوجيه للسلوك معاكسة للتوجه اللذي يحدده الوعي حسب طبيعة النص الديني (يقدم مقلوباً له)، كما دل عليه المصطلح في اللغات التي صيغت بها نصوص الدين التوحيدي (فروع اللغة السامية). وهذا ما أعطى الخطاب الديني هذا المدح الكثير لقلب الإنسان حين ينظّم ويضبط بالإيمان (أوامر منسجمة مع النص)، أو هذا اللوم الشديد للقلب حين يرفض ويعارض (موضع الفساد والشياطين). ويمكن أن نضع معادلة أولية نساوي فيها بين مصطلح القلب ومصطلح العقل الحي الفردي الذي يقيم الجسم الإنساني ويطلق حركته. والتساوي بين طرفي المعادلة ليس أمراً سهل التناول، وذلك لأن مصطلح "القلب" يشير إلى دور معيّن للعقل الحي الفردي، وهو الدور الذي يأخذ على عاتقه ضبط وتوجيه حركة الجسم، مراعياً في ذلك فردية الجسم (أنانيته). إن دلالة "القلب" تنصب على هذا الحيز من العقل الحي الفردي وليس على كامل حضوره، وهو ما جعل الخطاب الديني يجعل القلب مكاناً لحضور الله الحي، وكذلك ساحة لعمل الشيطان في مواضع أخرى.

الدينية أن تعتمد هذا الانسجام، وتقوم بتنبؤ كوني من خلال إعلان أفراد من الجنس الإنساني (الأنبياء)، أن مستقبل عالم الدنيا الذي تعيشه الإنسانية حينها، ذاهب يقيناً وحتماً إلى تشكيل عالم آخر. إن نبوءة كهذه إنما تنطلق من اعتبار الوجود (كوناً وإنساناً) مضبوطاً بقوانين حتمية ويقينية، وليست قوانين ريبة واحتمال. ولعل هذا ما دفع بآينشتاين لكي يطلب النجدة والدعم من خطاب الدين لموقفه أمام ما أطلقه "بور وهايزنبرغ" في حديثهما عن قوانين الكوانتم، حين قال عبارته المشهورة: «أنا مقتنع أن الله لا يلعب بالنرد».

هل تستطيع المعرفة أن تكون النبع التصوري الذي يستطيع إنساننا الحاضر أن يكتفي به، كما تطلع إليه كل من أينشتاين وكاريل؟ إن العلاقة الاحتوائية بين العلم كناتج صوري يتجاوز تصورات الإنسان الفرد، ويتنامى ليكون على سعة الكون، وبين المعرفة كناتج فردي للإنسان تحمل خصائص كشفية على قدّ وجوده الفردي، تمنع منح المعرفة بمنهجيها الديني والفلسفي هذا الموقع. هذه العلاقة بين الجزء (المعرفة الفردية) والكل (العلم)، تفرض البحث عن تصور جديد للوجود بالعلم، يمتلك الشمول ليحتوي الإنسان والكون والعلاقة بينهما، ويكشف عن ماهية حضور الإنسان في الكون، وهل لنشاطه دور في تطوره؟

الجزء الثاني: السيمفونية الكاملة

الفصل السادس: شكراً نيوتن، الحل كامن في الحركة

«الإنسان عظيم، وهو واحد، منذ أن أطلق معرفته
أداة لتفاعل بنّاء مع الكون، وحتى ينهي تجربته
في مستقر حركة التاريخ». المؤلف

صاحِبُ مصطلح «نظرية كل الأشياء» هو العالم الفيزيائي الكبير ألبرت أينشتاين، الذي انطلق في دربه الطويل باحثاً عنها، من خلال الفيزياء كنقطة انطلاق حددتها طبيعة الاختصاص الذي مارسه في حياته، بعد أن أنتج فيه نظرية النسبية الخاصة، ثم ألحقها بعد ذلك بالنسبية العامة، منمياً بهما ما أنتجته الفيزياء الكلاسيكية منذ نيوتن.

وحين حدث الزلزال في داخله نتيجة لما توصل إليه علماء فيزياء الجزيئات، من أن قاعدة الكون الفيزيائي محكومة بقوانين ريبية احتمالية، وأن هذا اليقين والحتم- الذي تبدى في تصور نيوتن لقوانين الجاذبية، والذي عززه أينشتاين بتصوره النسبي للقوانين الحاكمة لفيزياء الكبيرات- هو سراب لا يجوز الانخداع به، أسرع أينشتاين يطلب الدعم من المعرفة الإنسانية، ويستخدم مصطلحها المركزي (الله) حين ظهرت آثار صدمة الزلزال فيه، فقال مخاطباً العالم الفيزيائي بور معلناً غصّته وعدم قدرته على ابتلاع هذا التصور الجديد «إن الله لا يلعب بالنرد»[38]. لقد وجد اينشتاين نفسه أمام وجود مركب،يشغل الكون الفيزيائي القسم الأعظم منه، ويحتل الإنسان (الراصد بحسب المصطلح المستخدم في أدبيات الفيزياء) صاحب المعرفة حيزا بسيطا وثانويا فيه. وهكذا رتب أولويات مادته المدروسة، وانصبّ جهده على ساحة الكون الفيزيائي متابعة لاختصاصه، يحاول من خلال دراستها إنتاج "نظرية كل الأشياء". واتهمت أجيالٌ من علماء الفيزياء الذين جاؤوا بعده عمله على إنتاج النظرية: «كما لو كانت شيئاً خاصاً برجل عجوز مخرِّف»[39].

لم يمنع هذا الموقف من قيام أجيالٍ من علماء الفيزياء تالية لآينشتاين في البحث عن النظرية الموحدة العظمى، وقد انتهت كلها إلى إخفاق مريع رفض الكثيرون منهم الاعتراف بعدم نجاحها: «ولكن لا أحد يحب الاعتراف بأن محاولاتنا الواهنة، لم تكن بدورها مجدية على الإطلاق. أحب أن أرى الله يبلل ثيابه (أو ثيابها) من الضحك الهستريائي بعد التأمل في كل الهراء الذي أتينا به كنظريات عن الثقالة الكمومية»[40]. وتأتي مساهمة كتابنا هذا في إنتاج «نظرية كل الأشياء» منطلقة من ترتيب جديد لمادة الوجود المدروسة، فتقدم الإنسان أولاً كمادة حية في سلم الدراسة، وتجعل ما تستخرجه من تصور شامل عنه، المدخل لدراسة الكون الفيزيائي.

المقصود بهذا الترتيب الذي يقدم الإنسان كمادة حية ذات حركة مخصوصة على الكون الفيزيائي، أن ينصب هذا البحث على وجود الإنسان كجنس حي على سطح الأرض، وأن تكون أيضاً كامل إنتاجات نشاط الإنسان خلال تاريخه المحفوظ في أرشيفه هي جزء من مادة البحث، وأن تقدم الدراسة قراءة لهذا التاريخ تنسجم مع ما سيتوصل إليه البحث عن وجود الإنسان، بحيث يتحقق تشكيل منظور واحد يضم هذين القسمين بانسجام بينهما. وهذا ما سيسمح لهذا المنظور الواحد والمنسجم أن يشكل قاعدة نظرية، تكشف وتوضّح كل إنتاجات هذا الإنسان بما فيها إنتاجه للمعرفة والعلم والتكنولوجيا.

بهذا التحديد لمادة الدراسة للوصول إلى «نظرية كل الأشياء»، يعلن البحث أنه سيلتزم في كامل دراسته بالمنهج العلمي. وذلك لأن المادة التي سيدرسها (وهي حركة الإنسان وإنتاجاتها)، هي حركة لمادة حية شكلت ظاهرة محددة، وهو ما يسمح برصدها موضوعياً لتقديم توصيف لها بالدقة التي يطلبها العلم، لاستخراج القوانين التي شكلت منتوجاتها. وبذلك

يخطو البحث خطوته الأولى ليخرج من دائرة التشوش المنهجي الذي غرق فيه بحث كاريل: «تبدو الوسيلة العلمية ـ للنظرة الأولى ـ غير قابلة للتطبيق على تحليل جميع وجوه نشاطنا. ومن الواضح أننا ـ نحن المراقبين ـ غير قادرين على تتبع الشخصية البشرية في كل منطقة تمتد إليها، لأن فنوننا لا تفهم الأشياء التي لا أبعاد لها ولا وزن. إنما هي تصل فقط للمناطق التي تقع في الاتساع والزمن. إنها غير قادرة على قياس الغرور والحقد والحب والجمال، أو أحلام العالم وإلهام الشاعر..»[41]، وهذا العجز الذي يشوب محاولة العلم في دراسته للإنسان وآثاره، سهّل على الباحثين الانزلاق إلى الدعوة إلى ترك المنهج العلمي الناجح في دراسة الجوامد والتكنولوجيا، والعودة إلى ساحة المعرفة لدراسة الإنسان. «يجب أن نصرف حب استطلاعنا عن سبيله الحاضر ونوجهه في اتجاه آخر.. يجب أن ننصرف عن الأبحاث الطبيعية والفسيولوجية لتتبع الأبحاث العقلية والروحية»[42]. وتُظْهر عبارة آينشتاين «العلم بدون نظرية للمعرفة، منهج بدائي ومشوش»[43] تلوثاً محدوداً لنقاء المنهج العلمي وقدرته على أن يكون فعالاً وكاملاً.

هذا التوزع بين العلم والمعرفة في دراسة الإنسان قد عطل كل الأبحاث عنه، ودفع إلى مأزق منهجي قاس، ما زال ينتج آثاره السلبية في كل المحاولات التي يبذلها فلاسفة وعلماء معاصرون، حين يحاولون دراسة الإنسان بالمنهج العلمي التجريبي.

إن الدراسات المنوعة في القرن العشرين تطفح بطرح هذا السؤال في صيغ كثيرة، ويكشف التتبع للتعليقات على مناهج علم النفس والاجتماع إلى أن نقداً قوياً ينصب على منهجية هذه العلوم، ويبرزها بأنها عاجزة عجزاً مطلقاً عن أن تكون موضوعية وحيادية، بالإضافة إلى عجزها عن

أن تطبق خصائص التجريب التي هي الركن الذي انبثق من موضوعية العلم، ومدّه بالمحرك الذي لا يهدأ كدافع إلى التطور والتقدم.

دعونا نقلّب صفحات العلم الحديث ونرجع إلى أوائل خطواته التي انطلق فيها، والتي أرست الدعائم الصلبة التي توصل من خلالها إلى إشادة بنائه الشاهق والمعجز، الذي نعايشه في القرن الحادي والعشرين. وحتى لا نتيه في دروب كثيرة تفقدنا القدرة على الإجابة على السؤال الذي طرحته الفقرة السابقة حول تطبيق المنهج العلمي في دراسة الإنسان، فإننا سنتوجه مباشرة إلى محطة العالم إسحاق نيوتن*، وسنجد أنفسنا أمام الصفحة التي يظهر فيها كيف تحقق إنتاج هذه الدعائم الصلبة التي أطلقت العلم، وجعلته يتصف بكل صفاته التي سمحت له أن يكون الأداة الجديدة، التي أنشأت بها الإنسانية نجاحاتها في القرون التالية.

العالم إسحاق نيوتن، واعتماداً على أبحاث من سبقوه من علماء الطبيعة مثل "كوبرنيكوس وغاليله وكبلر"، جانب الطريق القديمة التي سار عليها البحث الطبيعي في العصور الوسطى المنكب على دراسة ماهية المادة، وانتقل إلى دراسة الحركة كما يمكن رصدها في الكواكب. واستخلص من ذلك مبادئ علم الميكانيك التي قدمت لنا فرعاً جديداً في الفيزياء، تتم به دراسة الحركة المادية: «على أن أعظم انتصاراته، كما نعلم جميعاً، نظرية الجاذبية»[44].

«قبل نيوتن بدت قوانين الفيزياء مجرد قواعد تجريبية، استخرجت عبر تحليلٍ حذرٍ لكتلة الوقائع، بيد أن نيوتن قدم لنا "المبادئ" أي القوانين

---

* السير إسحق نيوتن(1642-1727) فيزيائي ورياضي وفيلسوف طبيعي بريطاني، يعتبر من أهم العلماء في التاريخ. وهو مكتشف القانون الكوني للجاذبية، وواضع أسس الدراسات الحديثة عن الضوء، وباني أول تلسكوب عاكس، ومبتكر فرع جديد في الرياضيات (التكامل). من أشهر كتبه "المبادئ الرياضية للطبيعة الفلسفية"-1687، "البصريات"-1704.

العمومية التي تطيعها الطبيعة، وينتج عنها القوانين التجريبية السابقة كمحصلات منطقية ورياضية لها»[45]. لقد قرر نيوتن مبادئ الحركة الثلاثة، أولها: الجسم الذي لا تؤثر فيه أي قوة، يتحرك (عبر المكان المطلق) في خط مستقيم بسرعة ثابتة، وثانيها: مبدأ تكافؤ الفعل ورد الفعل، وثالثها: حاصل ضرب كتلة الجسم في التسارع (في المكان المطلق) يساوي مجمل القوة المؤثرة عليه. وكانت هذه المبادئ نقطة انطلق منها شلال غزير للعلم، من خلال اكتشاف نيوتن لها. بهذه المبادئ اكتسب العلم وضعاً جديداً، ومُنح قاعدة نمو أنتجت قدرة البحث الجاد في الطبيعة وخصائصها، وفتحت محاور درسية كثيرة تجلّت بظهور اختصاصاتٍ عديدة. لقد أدت دراسة الحركة إلى تجميع أرشيف علمي كبير حولها أعطى أكله عام 1769، حين قام العالم الإنكليزي "جيمس واط" باختراع المحرك البخاري. حيث تم لأول مرة في تاريخ الجنس الإنساني، ظهور آلة (مادة جامدة) تطلق حركة بشكل مستقل عن أي جهد خارجها. وهو ما وضع الأساس للثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، ثم الثورة التكنولوجية في القرن العشرين. لقد تغيرت صورة العلم المادي بعد سلوكه في الدرب الذي خطه إسحاق نيوتن بدراسته للحركة، وأخذت تتغير تبعاً لذلك صورة الاجتماع الإنساني من خلال هذا الدور المتنامي للتكنولوجيا في النشاط الإنساني.

أطلق نيوتن شلال العلم من خلال بحثه في الحركة المادية التي تلازم وجود الكواكب والنجوم، مكتشفاً بذلك قوانين الجاذبية. مما حول علم الفيزياء من حالة الفقر المدقع التي كانت صفته في العصور الوسطى، إلى حالة غنى لم يكن من الممكن توقعها. وبذلك غيّر توجه نيوتن إلى دراسة مبادئ الحركة، درجة اهتمام العلم بالطبيعة على حساب اهتماماته القديمة بالإنسان، وجعل حضور دراسة المادة الفيزيائية أكبر بما لا يقاس من كمية الدراسات المصبوبة على الإنسان. وبذلك أوجد قاعدة ملامح

الصورة الذي تشغل فيها أبحاث المادة الحيز الأكبر، وتتراجع حدود الأبحاث التي تدور حول الإنسان وموضوعاته الروحية.

النجاح العلمي الذي فجر اسحق نيوتن شلاله حين اعتمد الحركة محوراً أساساً لدراسة الطبيعة، هو ما يتابعه هذا البحث في اعتماده محور الحركة أساساً لدراسة الإنسان. هذا البحث يدرس حركة الإنسان بكل مستويات ظهورها، مقدمة لإنتاج صورة جديدة للإنسان، تزيل الإبهام والغموض الذي يلفه، متابعاً بذلك ما بدأه نيوتن الذي شكل المقدمة الضرورية لكشف ماهية المادة الكونية لاحقاً. وهكذا أصبحت الحركة الإنسانية- بدءاً من حركة الجسم الإنساني الفرد، وانتهاء بدراسة حركة التاريخ التي تشكل مسار تطور الجنس الإنساني كله- المدخل لدراسة الجنس الإنساني، كوجود مادي حي يشكل جزءاً من الكون الفيزيائي، وهذا ما أزال كل العقبات أمام استخدام المنهج العلمي كما هو مطبق في ساحة الفيزياء الحديثة. إن تطبيق منهج البحث العلمي على حركة الإنسان، يسمح باستخلاص كامل النتائج التي ينضوي عليها الوجود الإنساني، ويسمح بإنتاج "علم الإنسان" غنياً وواسعا، كما حدث خلال دراسة الفيزياء.

أتمنى أن أصل معك قارئي العزيز عند انتهائك من قراءة هذا الكتاب، إلى حصولك على قناعة من أن البحث العلمي في الإنسان اعتماداً على دراسة حركته، قد أنهى حالة الفقر التي شهدتها الدراسات الحديثة الأخرى في الإنسان، بسبب عجزها الواضح عن استخدام المنهج العلمي. إن عدم القدرة على تحديد محور درسي في وجود الإنسان، يسمح بتطبيق المنهج العلمي بشكل كلي ونقي، قد أوجد التأرجح عند كاريل وآينشتاين، بين قطب المنهج العلمي وبين قطب المنهج المعرفي. وقد بقيت آثار عدم النقاء هذه، تخيّم على الأبحاث التي تنصب على دراسة بعض محاور نشاط

الإنسان، كالدين والنفس والاجتماع والتاريخ وغيرها، وتمنع من تحديد كامل ما تدل عليه.

الإنسان* في الدراسات المُستخدمة للمنهج العلمي في العصور الحديثة يُدْرَس في ساحتين اثنتين، لم تسمحا ـ بسبب خصائصهما ـ أن تحققا تطبيقاً دقيقاً للمنهج العلمي. الأولى: تدرس بنيته البيولوجية والفيزيولوجية، وتحاول أن تستخرج من خصائص جسمه، الكيفية التي تمكن بها هذا الإنسان من إنتاج ظاهرته الحياتية عبر تاريخه. ولا أحتاج أن ألح على التذكير كيف أن الإخفاق كان نتيجةً لهذا الجهد الذي بذله علماء البيولوجيا في منتصف القرن العشرين، وكيف ظهر عجز فاضح في استخدام المنهج العلمي في هذا المنحى الدرسي. ولا يرجع سبب ذلك إلى قلة المعلومات البيولوجية المتوفرة في تلك الفترة قياساً لما لدينا الآن، بل إن سبب الإخفاق يرجع إلى عدم قدرة تخليص المنهج العلمي مما شابه من مناهج المعرفة، وإعماله في ساحة تناسبه، تمنحه أن يكون كشافاً يضيء لنا وجود الإنسان، ويقرأ لنا إنتاجاته كلها.

الثانية: انصبت على دراسة إنتاجه الثقافي† بكل أشكاله المتوفرة في أرشيف وجوده. قائمةُ أسماء كبيرة ستمتد أمام ناظريك، تنبئك عن مدى الجهد الذي بذل في هذا السبيل، وتعرض عليك حجم الإخفاق الذي أصاب هذه الأعمال. وإن كان لنا أن نأخذ مثالاً واضحاً للدلالة على ذلك، فإن

---

* يحدد هذا الكتاب دلالة كلمة "الإنسان" معتمداً على خصائص إنتاجه الحياتي المغاير لإنتاجات الأجناس الحية الأخرى، وهذا ما جعل البحث ينصب على دراسة حركة الإنسان كمطلقٍ لهذه الإنتاجات.

† تحدد المرجعية النظرية التي يستند إليها هذا الكتاب معنى مصطلح الثقافة بأنه تأثير المعرفة المتنوعة في منح السلوك الإنساني مظاهره، التي تجلت عند الأفراد والجماعات والشعوب، ثم الإنسانية كلها. وعندما صاغت اللغة الإنسانية مصطلح الثقافة، اعتمدت دور المعرفة في منح السلوك الإنساني سمات إنسانيته التي تميزه عن الحيوان. فدلالة كلمة الثقافة تنصب على المعرفة حين تعمل صقلاً وتهذيباً في السلوك الإنساني، وتظهره مناسباً لمرحلة التطور المعرفي الذي مرت به الإنسانية خلال مراحلها التاريخية.

"الماركسية" تشكل المثال الأوضح. لقد تبنى ماركس وأنجلز المنهج العلمي ونتائجه في دراستهم لوجود الإنسان من خلال دراسة إرثه الثقافي. وقدموا نظرية علمية عنه، أكثرا فيها من ذكر مصطلح العلم في فروع دراساتهم.وبسبب عدم قدرة التوصل إلى تحديد مدخل لتطبيق المنهج العلمي على الإنسان، ظهر أن ما أنتجوه شكّل حالة ثقافية جديدة، جعلت العلم مضمون إيمانٍ جديد، وكانت مناهج المعرفة الذاتية هي أساسها، مما حوّل نظريتهم العلمية إلى أيديولوجيا. وهكذا بقي الإنسان في ظهوره الثقافي عصّياً على المنهج العلمي في مطالع القرن الحادي والعشرين، ولم تستطع خصائص العلم في الماركسية أن تجد طريقها لكشف خبيئة هذا الإنسان، وتقديم صورة لجوهره. لقد سمح المنهج المعرفي الذاتي في الماركسية في تحقيق فوز أيديولوجي، وسعى لأن يلوّن كل شعوب الأرض بها. وجاء إخفاقه ليكشف ـ بشكل لا يقبل الجدل ـ أن الثقافة لا تصلح أن تكون المحور المركزي لدراسة الإنسان بالعلم،لأنها واحدة من الأمور التي تحتاج هي أيضاً لدراستها بالمنهج العلمي.

اختيار ساحة الحركة في كتابنا محوراً لدراسة الإنسان، في طريق التوصل إلى «نظرية كل الأشياء» بديلاً عن البيولوجيا والثقافة، مكنت البحث أن يكون علمياً. لقد وضّحت أن الجسم الإنساني كتلة مادية تشكل طاقة، تدفعها بقوة مناسبة على مسار معين، مراكمة نتائج للحركة. لقد حقق مجموع النشاط الإنساني هدفاً مادياً، بدا باختراع الآلة وتطويرها بالتكنولوجيا. فظهر الإنسان (وجوداً وتاريخاً وهدفاً) ساحة مادية بحثية، تسمح بتطبيق المنهج العلمي عليه، بدون أي قيد أو تشوش منهجي.

وبذلك يحقق لنا تحديد الحركة بكل مستوياتها محوراً لدراسة الإنسان، إمكانية أن ندرس الإنسان بالمنهج العلمي التجريبي، وستشكل هذه النقلة كما سنرى ـ قياساً على ما جرى على يد إسحاق نيوتن ـ نقطة البدء في

رسم صورة جديدة لهذا الإنسان بالعلم، تسمح بإنشاء قراءة شاملة لطبيعته، ولكل ما أنتجه، وتظهر أثر نشاطه في تطور الكون الفيزيائي، وهو ما يسهل صياغة "نظرية كل الأشياء"، التي تاق أينشتاين إلى إنتاجها، ولم يوفق في ذلك، فبقي جهده العظيم سيمفونية ناقصة.

من أول النتائج المفيدة التي يحققها تعيين الحركة الإنسانية محوراً لدراسة الإنسان، ظهور الموضوعية في الدراسة كلازمة للمنهج العلمي. وذلك لأن دراسة الحركة في الفيزياء قد سمحت بهذا الفصل بين الراصد وبين المادة المدروسة. وهي ما سيسمح بتحقق الموضوعية في دراسة الإنسان، وإنهاء تأثير كل التصنيفات الذاتية (البيولوجية والثقافية) التي خضع لها الإنسان خلال تاريخه. إن مادية الجسم سمة مشتركة بين كل أفراد هذا الجنس، وغائية الحركة التي يطلقها بحفاظها على الحياة، واحدة عند الجميع بلا استثناء. وهذا ما جعل بالإمكان تحديد هوية واحدة للإنسان بدون أي تمييز بيولوجي أو ثقافي. فاستطاعت دراسة الحركة الإنسانية تجاوز كل التصنيفات المعتمدة على الفروقات البيولوجية بين البشر، الممثلة بـ (الجندر واللون والعرق). منهيةً بذلك كل حالات التفريق في هوية الإنسان، التي ما زالت تنتج ضروباً من التعصب والتمييز بين الناس، شكلت، وما تزال تشكل، معيقاً للتقدم الإنساني، ومنعت دراسة الإنسان بموضوعية.

ولا يقتصر نجاح الموضوعية الملازمة للمنهج العلمي على إنهاء التصنيفات الناتجة من فروقات البيولوجيا، بل يمتد هذا النجاح ليشمل إنهاء التصنيف الثقافي بكل أشكاله، كمعيار تقييمي أحدث تاريخياً، يعتمد على ما خلقه تنوع الظاهرة الثقافية وتعددها والتي تعد بالآلاف.

أصل التصنيف الثقافي، هو هذا الارتباط للثقافة بالسلوك الإنساني من حيث هو حركة تميز الإنسان عن جميع الأحياء. بحيث يشكل الإنسان الفرد وجوداً محدوداً بقناعاته الثقافية مقابل كل ما عداه، محدداً بثقافته موقعه من الكون وعلاقاته مع الآخر. وبسبب دور الفردية المركزي في تشكيل الشخصية، يؤكد صاحب الثقافة على أن ثقافته بكل مكوناتها هي الحقيقة، وأن الآخر الحامل لثقافة مختلفة على خطأ. وهذا التأكيد هو استحقاق متناسب مع خصائص الفردية في الحفاظ على الوجود بكل عناصره. إن تحديد الحركة كمحور مادي لدراسة الإنسان، ستكشف ماهية الثقافة وطبيعة ارتباطها بالسلوك، وكيفية نشوئها من الحركة، مما يسمح بكشف كيفية انبثاق الثقافات المتنوعة من مصدر واحد (الحركة الحية الموحدة).

إذا كانت الحركة أسلوب وجود الشيء منذ الانفجار الكوني العظيم، فسوف يكشف المنهج العلمي بموضوعيته أن تشكل الثقافة إنما هو ناتج ضروري لحركة الإنسان التي يطلقها جسم كل فرد للحفاظ على وجوده، لتحديد دوره في إنتاج الآثار التي يمكن تشكلها من هذه الحركة. وأن الثقافة بكل مكوناتها مربوطة بالحركة لا تنفك عنها. فكما أن الطبيعة قد أنتجت تشكلات مادتها الفيزيائية بأسلوب حركتها الناتجة عن نظامها الجواني، فإن الإنسانية كوجود مادي حي أنتجت مواد ثقافاتها بأسلوب حركتها البرّانية. وبهذه الرؤية يسهل علينا النظر إلى أنواع الثقافات على أنها الطبقات المتراكمة من جيولوجيا البناء الاجتماعي الإنساني، وأن نضجها خلال التجربة الإنسانية كان القاعدة لتوسيع دائرة عمل الحركة الحية الموحَّدة من المادة الحية إلى المادة الجامدة (اختراع التكنولوجيا). ومن نقطة النظر هذه فإن نجاح المنهج العلمي في كشفه لطريقة بناء المادة الفيزيائية بالحركة، يرشحه لكي يكون الأداة المناسبة لكشف بنيان الثقافة

موضوعياً، بكل متولداتها الإبداعية والفنية، عن طريق دراسته للحركة الإنسانية.

دعني أخفف من جفاف البحث الذي لفَّع هذه الصفحات التي تبحث في تطبيق المنهج العلمي الموضوعي على الإنسان، وأُدخل شيئاً من الفكاهة والترفيه عليها. بأن أدعوك لأن تتخيل معي عالماً جيولوجياً يدرس طبقات الأرض في منطقة مخصوصة، وقد تيقن أن حركة الأرض خلال 4 مليارات سنة قد أنتجت هذا كله، وأن كل طبقة من الطبقات كانت ضرورية جداً في تشكل الأرض كما نعرفها الآن. فيقوم رغم يقينه العلمي هذا، باستخدام معيار تصنيفي، يوافق به على بعض الطبقات، ويرفض بعضها الآخر. ثم يتحكم فيه هذا المعيار التصنيفي الذاتي، فيأخذ على أساسه باصطناع خطاب يسميه خطاباً علمياً، يعتمده لرفض بعض هذه الطبقات، ويطالب بنفيها وإقصائها من مجال بحثه العلمي. بل إنه ليشتد تأثُّره بخصائص خطابه التصنيفي، فيحاول توفير أدوات يحاول بها استئصال بعض هذه الطبقات من الوجود الأرضي. أتخيلك تضحك ضحكاً شديداً، وتنظر إلى فعلٍ مثل هذا بغرابة شديدة، وتصنفه بأنه هستريا أو جنون علمي. فاعلم إذن أن تطبيق المنهج العلمي بلازمته الموضوعية على دراسة الظاهرة الإنسانية، مع الاحتفاظ بآثار التصنيفات البيولوجية في محاور الجندر واللون والعرق، والاستسلام إلى معيار التصنيفات الثقافية في محاور اللغة والعادات والدين والإيديولوجيا، سوف يجعل مثل هذا البحث في الإنسان مزحة مستفزة، تستخرج الضحك والقهقهة من محافل العلم على اختلاف اختصاصاته.

هذه الموضوعية ستفرض على العالم الدارس للحركة الإنسانية صفة الحيادية، ولن يسمح تطبيق المنهج العلمي بأي نوع من الانحياز لأي فرع من التصنيفات السابقة. وكذلك لن يجد دارس الإنسان بالمنهج العلمي أي

دافع للانحياز إلى أي جماعة، سواء كان وجودها مغرقاً في قدمه، أو كانت حديثة الميلاد تظهر خصائصها جديدة كل الجدة. وهو لن يستطيع تعليل أي تحيّز في بحثه مهما لفّق له من الدعاوى والأدلة. وستفرض موضوعية المنهج العلمي على الباحث أن يعطي الجنس كله أفراداً وجماعات، وعبر زمن التجربة الإنسانية الراجع إلى عدد من ملايين السنين، الاهتمام ذاته، ويمنح أي جزء أو مرحلة حقها من البحث. دون أن يتشكل في داخله كعالم يدرس حركة الإنسان أي موقف انحيازي. هذا التحديد لهوية الإنسان استناداً لوحدة حركته المادية، سوف يجعل موقف الباحث من جميع أفراد الجنس الإنساني على اختلاف تصنيفاتهم واحداً، وينفي عنه موقف الانحياز، ويمنع من تداخل أدوات المنهج العلمي بخصائص مناهج المعرفة الإنسانية.

الفصل السابع: الانفجار العظيم للنظام

"كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة" النفري* في المواقف

يستطيع باحثون كثيرون أن يغنوا ما قدمته هذه الدراسة بشكلها المختصر والمركز، وذلك لأنها حاولت تقديم صورة الوجود بالخطوط العريضة، كما تتناولها التشكيلات الثلاثة (العلم الحديث والفلسفة والدين). وسيجد مثل هؤلاء الباحثين أن البرنامج الأساس لقراءة صورة وجود الإنسانية قد ثبت في إطاره، ولكن غنى الوجود وكثرة جزيئاته، تجعل عملية استحضارها كلها بالنسبة لباحث واحد أمراً مستحيلاً. إن ما أرادت العبارات السابقة في هذه الفقرة أن تقوله، هو أن استحالة استحضار الأجزاء التي يتكون منها الوجود في عمل واحد، وبقاء أجزاء كثيرة جداً خارج نسق البحث، لا يعني أبداً نقصاً فيما قدمه عرض الأقسام الثلاثة التي حاولت أن تعرض صورة للوجود.

أحد أهداف هذا الكتاب العملية أن يتحول إلى عمل مشترك بين الباحث والقارئ: تتحدد فيه مهمة الباحث في تقديم الخطوط العريضة للصورة لكل موضوع يتناوله الكتاب، ويكون دور القارئ إغناء هذه الصور، بضم جزئيات جديدة إلى خطوطها العريضة، من خلال خبرته الحياتية الخاصة وحسب قدرته الشخصية، بحيث يصير الكتاب ساحة عمل يشترك فيه كل قارئ يطل عليه، تصبح خلاله مادة الكتاب قاعدة تصورٍ للقارئ المهتم والمتابع. وهذه رياضة فكرية يطمح الكتاب إلى تحقيقها عند كل قارئ من قرائه، وهي تتم في مناخ الحرية المطلقة النابعة من خصائص العلم، دون أية محاولة ضغط معرفي أو إرهاب فكري.

---

* محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري: شخصية يكتنفها الغموض في تاريخ التصوف الإسلامي، ينسب له كتاب المواقف على أساس أنه هو الذي قام بترتيب أوراق جده الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصاحب الحقيقي للكتاب، واللذي توفي عام 965 م.

مهمة عمود الصورة التي يجهد الكتاب في تقديمها، هي مهمة شائعة في أوساط العلم الفيزيائي حين يقوم علماء كبار بمحاولة تأليف كتب لغير المتخصصين، يقدمون تصورات الفيزياء وقضاياها الكبرى، لكي تأخذ مكانها في تشكيل معرفة القارئ غير المتخصص. أسماءُ عمالقةٍ كثر في ساحة العلم الفيزيائي قاموا بذلك، يأتي أينشتاين على رأسهم. ويمكن أن نعد من هذه القائمة ستيفن هوكنغ، وستيفين واينبرغ، وميشيو كاكو، وجواو ماغيجو... وثبت الأسماء غير هؤلاء كثير. إن المنهج الذي سار عليه هؤلاء المؤلفون، يتلخص في أنه يجب فصل هموم الاختصاص وآليات إثبات قضاياه المتداولة بين أصحاب الاختصاص، والتي هي أمر تقني بحت، عن التصورات التي يقدمها كتابهم المقدم إلى قارئهم غير المتخصص، الذي يسعى الباحث من خلاله لجعل تصورات علمه أمراً شائعاً بين قرائه. وقد أصبح هذا الاتجاه واسع الشيوع، وأخذ الكثيرون من علماء الفيزياء يساهمون فيه. أما الحكم على نجاح كتاب من هذه الكتب في تحقيق غايته، فلا شك أنه سيتحقق من خلال قدرة الكتاب على نقل قضاياه إلى قرائه، وجعل هذه القضايا جزءاً من معرفتهم الشخصية.

كتابنا هذا يندرج في هذا الاتجاه. إنه محاولة من الباحث أن يقدم التصورات المتعلقة بالبحث الجديد الذي قاربه، واستطاع أن يوجد له نظرية علمية تقرأ الإنسان، كاشفة عن ماهية وجوده، ودور خصائص تطوره الإنساني في التطور الكوني العام المبتدئ بالانفجار الكوني العظيم منذ ما يقارب 15 مليار سنة. ولهذا لم يحتو الكتاب دقائق البحث ولا آليات بناء النظرية، بل ضمّ التصورات الشاملة التي أنتجتها هذه النظرية، التي قدمت صورة جديدة لحضور الإنسان في الكون. والباحث كله أمل ألاّ يخلّ بهذه الخطة، وذلك من خلال التزامه بدقة الفصل بين تقنيات الاختصاص التي لا يسعى الكتاب إلى عرضها، وبين تقديم التصورات كما تؤشر قدرة القارئ على التقاطها.

يجد الباحث أن عليه التنبيه على أمر يحتاج إلى فضل إيضاح. إن مادة البحث التي تعرضها كتب الفيزيائيين لغير المختصين، تتعلق بالكون الفيزيائي. وهي ساحة بحث مفصولة عن الإنسان، ولا تمتلك نقاط تقاطع معه إلا في النادر. ولهذا فإن قارئ كتب أنشتاين وهوكنغ وكاكو وماغيجو وغيرهم، يستطيع أن يتلقى تصورات مؤلفاتهم بحيادية تامة، وذلك بسبب هذا الانفصال بين موضوع البحث (الفيزياء) وبين القارئ كإنسان. أما هذا الكتاب فهو يعرض مادة بحث تدور تصوراتها عن الإنسان ذاته، وهي تحاول أن تظهر مكان هذا الإنسان ونشاطه في تطور الكون الفيزيائي، وهذا ما يقيم تداخلاً وتفاعلاً بين تجربة القارئ وخبرته الحياتية من ناحية، وبين المادة العلمية التي يقدمها الكتاب من ناحية أخرى. إن هذا يجعل عملية تلقي تصورات الكتاب ساحة اشتباك، حيث يجد القارئ أنه مطالب أن يبذل جهداً، وجهداً مؤلماً أحياناً، في جعل تلقيه لهذه المادة العلمية تلقياً موضوعياً. وهذه معاناة خاصة بهذا الكتاب، وبما سيليه من كتب هذه السلسلة، التي ستعرض تصورات جديدة كشفتها هذه النظرية العلمية عن الإنسان، في هذا الاتجاه البحثي الجديد. وأعِدُك أيها القارئ أنك ستجد بعد بَذْلِكَ هذا الجهد وما حمّلك إياه من مشقة، الجائزة التي يعدك العلم بها دائماً؛ وهو تقديم الواقع المدروس كما هو موضوعياً، مما يُمكّنك من الحصول على صورة للوجود واضحة وجلية، ستشكل لديك المدخل لامتلاك السعادة المعرفية.

مصطلح "الانفجار العظيم للنظام" يحمل آثار علم الفيزياء الكونية، حين صاغت مصطلحها الهام "الانفجار الكوني العظيم"، وأدت إلى استنتاج أن الحركة هي أسلوب وجود الأشياء منذ انطلاقه. وبسبب اشتراك علم الفيزياء وهذه الدراسة عن الإنسان في موضوع محور الحركة، التي يتابعها الفيزيائيون في وجودات مادة الكون الفيزيائي ومسار تطورها الجواني، ويتقصاها هذا الكتاب في وجود الإنسان ومسار تطوره البراني.

فإن توحيد نقطة الرؤية للإنسان والكون، بسبب توحد البحث في الحركة، هو الذي أجاز استخدام مصطلح "الانفجار العظيم للنظام"، وهو الذي سيسمح بكشف دور الإنسان في تطور الكون الفيزيائي.

مكان حدوث الانفجار العظيم للنظام هو الأرض التي تحضن الإنسان، ومنها أخذ هذا الانفجار يمدُّ موجاته تباعاً. لقد ابتدأ بموجته الحية كنقطة انطلاق له، وهو مازال يحمل آثار هذه الموجة حتى الآن. وانفجار النظام هذا لم يُحدث دوياً، ولا أطلق حرارة هائلة. ولهذا لا تبحث قارئي العزيز عن آثارٍ ومخلفات هذا الانفجار من حولك في الطبيعة، لأن ما حدث هو انبثاقٌ للنظام الحي - كموجة أولى لانفجار النظام - خرج فيه من حيّز المادة التي يتشكل قيام وجودها وإطلاق حركتها به (الجسد الحي الفردي)، وأخذ يعمل بجدة تامة من خارجها، في عملية تغيير علاقة النظام بالوجود.

إذا استرجعت الاستشهادات التي تحدث فيها علماء الفيزياء عن موقع النظام بالنسبة لمادة الكون، واستحضرت أنه نظام جوانيٌ تحقق عمله- في إقامة وجود الكون وإطلاق حركته- داخلياً بالانفجار الكوني العظيم قبل 15 مليار سنة، استطعت أن تحدد أن حدوث الانفجار العظيم للنظام على الأرض قد تم في فترة زمنية، يمكن تحديد طرفها الأول باكتمال حلقات سلسلة التطور الحيواني التي يعمل فيها النظام داخلاً، ويتشكل طرفها الثاني من ظهور الإنسان مكتملاً بعناصره التي حملها جسمه، والتي مازالت كما هي حتى الآن*. إن هذه الفترة الزمنية هي وقت حدوث الانفجار العظيم للنظام في موجته الحية التي تُشكل نقطة انطلاقه.

---

* لم يعد من الممكن حسب هذه الرؤية تشكل جنس حي متطوراً على الإنسان بيولوجياً، استجابة لتصور أنه حلقة في سلسلة التطور الحيواني الجواني. وذلك لأن النظام الحي في التطور الجواني قد أكمل ظهوراته، وانتقل للعمل البرّاني. وهذا ما جعل تفاعلات البيولوجيا تطلق كامل أشكال التطور البراني ناتجاً لحركتها. وهو ما أنهى سلسلة التطور الحي الجواني، وحضّر الكون كله لانطلاق التطور البراني بشكل كامل.

وستتذكر- عزيزي القارئ- أن علماء تطور الأحياء، يبحثون عن الحلقة المفقودة لجسر الهوة التطورية بين حلقة القرود وبين حلقة الإنسان، على أساس تصورات علم الأحياء القائلة أن الإنسان حلقة في سلسلة التطور الجواني التي تشكلت فيها كل الكائنات الحية، وهم مازالوا يجدّون في البحث ولم يجدوا شيئاً[*]. وذلك لأن الإنسان- كما سيعرضه هذا الكتاب- هو بداية حلقة تطورية جديدة، ليس في خط الأحياء فقط، بل تذهب لتشمل مسار تطور الكون الفيزيائي كله.

النظام والمادة

الحديث عن النظم، سيكون هو الساحة التي يتعرض لها هذا الفصل. وهو مستوى غير مادي، ولكن علاقته بالمادة لا يمكن فصلها بأي وجه من الوجوه. وتصوُّرُ الأمر سهلٌ علينا نحن الذين نعيش في زمن الثورة التكنولوجية، لأن الباحثين في ساحة التكنولوجيا قد سّهلوا علينا باختراعاتهم عملية هذا التصور المجّرد للنظم، وصاغوا لنا بداية خطاب نظمي يحدثنا عن ساحة لا مادية، وعن كيفية تفاعل النظام مع الوجود المادي، وذلك من خلال برامج (softwares) الآلات التكنولوجية وآليات

---

[*] يؤكد هذا الكتاب أن الحلقة المفقودة التي يبحث عنها علماء التطور، قد أخذت تتجمع مادة جيدة لديهم عنها. ولكن تراكم المعلومات عن هذه الحلقة سوف يخرج برؤية عن وجود الجنس الإنساني أوسع بكثير مما يخمنه علماء التطور. إن ما سيبرز من خلال هذه الدراسات المتطورة- متعاضدة مع تطور الدراسات في الفيزياء الكونية- هو تعديل الرؤية الشاملة لمسار تطور الكون المتشكل بالانفجار الكوني العظيم. إن هذه الرؤية الناتجة عن تراكم المعلومات في محوري التطور الحي والتطور الكوني، ستدل- كما ستوضح قضايا هذا الكتاب- أن المسار التطوري في الكون ليس واحداً. **بل هو عبارة عن مساري تطورٍ في الحركة الكونية نتيجة تغير موقّع عمل النظام في الوجود**. وهذا ما سيجعل المعلومات المتراكمة تؤكد أن الإنسان هو مادة حية، وهو- مع الأحياء كلهم- جزء من مادة الكون، ولكن طبيعة الحركة التي أطلقها السلوك الإنساني كحركة موحَّدة، هي حد فاصل في مسار التطور الحي أولاً، ثم الكوني مستقبلاً. وأن الإنسان لهذا ليس حلقة في التطور الحيواني كما عرضت ذلك أدبيات الداروينية الحديثة، حين لم تلاحظ في دراساتها محور الحركة وأهميته في وجود الكون ومكوناته، ولم تستطع نتيجة هذا البعد عن محور الحركة أن ترصد الفارق بين حركة الإنسان من ناحية، وحركة الأحياء الاخرى والحركة الكونية من ناحية أخرى.

تفاعل مكوّناتها، مؤدين ذلك في مستوى جديد من الخطاب اللغوي الإنساني. ولهذا فإن أبناء القرن الحادي والعشرين يتحسسون وجوداً مستقلاً للنظم العاملة في مادة التكنولوجيا، والمانحة لها قدرة إطلاق حركة لم تكن تملكها أصلاً. وهذا المستوى يصعب فهمه حتى الاستحالة على الإنسان قبل اختراع التكنولوجيا. يؤكد هذا الخطاب النظمي الذي تقوم محافل علماء التكنولوجيا بصياغته، أن هذا النظام هو جوهر حركة هذه الأدوات والآلات، وأن خصائص هذه الحركة وطرق ظهورها الواقعية ناتجة عنه. لقد أخذ الخطاب التكنولوجي يحدثنا عن عمل النظام باستقلالية أولية، دون أن يكشف بعد- بسبب عدم تراكم المعلومات الكافية- عن العلاقة بين نظام الحركة، ونظام قيام وجود المادة الأولي.

وبسبب قفزات التكنولوجيا في القرن العشرين، صار من الممكن أن نستمع لمتحدث يتكلم عن نظام ماء دون أن يتحدث عن متجسداته المادية التي يتلبسها هذا النظام ويطلق الحركة فيها. هذه السهولة التي حزناها من خلال تلقينا لخطاب العلم المتحدث عن النظم في التكنولوجيا وفهمها، تذكرنا بالصعوبة الشديدة التي كان يجدها قارئ فلسفة أفلاطون حين كان يحدثه عن "المثل"، في محاولة مبدئية منه صاغ بها إشارة مبهمة إلى ساحة النظم. إن من أبسط الأمثلة، أنك صرت تسمع عن النظام الذي تبنى السيارة وفقه، وكيف يتم انطلاق الحركة منها، دون أن تتحدث عن سيارة محددة. وتجد أن آلية فهم الحديث عن النظام قد استقرت عندك، وأصبح أمراً مألوفاً لك، وليس عصياً عليك.

إمكانية الفهم لمستوى النظم، إنما تحققت من وجود حركة تمتلك خصائص الحركة الحية في مخترعات ذات مادة غير حية (التكنولوجيا)، نستخدمها ونعايشها بتكامل تام. إن انتقال نظام الحركة الحية من الإنسان (المادة الحية) إلى الآلات التكنولوجية (المادة الجامدة) قد سمح لنا أن

نتجاوز صعوبة التصور، وربما استحالته، التي كان يعانيها قارئ مُثُلِ أفلاطون وغيره من باحثي الميتافيزياء*، وهكذا أصبح أمر الحديث عن النظم مفصولة عن مادتها أمراً ممكناً بالنسبة للأجيال التي تعايش التكنولوجيا. وهذا الواقع الذي أنتجه التطور الإنساني هو الذي سمح بنشوء تصور "الانفجار العظيم للنظام"، الذي يتحدث عن عمل النظام الكوني مفصولاً عن المادة، ومن موقعٍ خارجها.

حُددت الأرض موضعاً لهذا الانفجار، وكذلك ظهر أن النظم هي المستوى التي حدث الانفجار فيه. ويبقى أن يتم شرح ما المقصود بالانفجار؟ بعد أن جرى لفت انتباهك إلى أنك لن تجد آثار دمار وتخريب نتيجةً له. بل إنك ستجد، على العكس من ذلك، آثاراً إيجابية هي بدايات إعمار جديد في مادة الكون. إن هذا الانفجار هو عملية انبثاق وخروج للنظام الكوني من البنية المادية، وتشكيله موقعاً جديداً لعمله خارجها، بعد أن كان يعمل من داخلها فقط كما حدثنا الفيزيائي الأمريكي "إيفان والكر" عام 1970: «وبما أن كل حدث هو في نهاية الأمر نتاج حدث واحد، أو عدة أحداث كوانتية، فإن العالم مسكون بعدد لا محدود تقريباً من الكيانات الواعية، الكتومة (بالمعنى الرياضي)، غير المفكرة عموماً، المسؤولة عن سير العالم»[46].

---

* من هذا المنظور يتضح مبرر انتهاء وجود أبحاث الميتافيزياء، المحجوبة عن عيون أسلافنا، مما فرض حينها على العلماء أن يصنفوا أبحاثهم في قسمي الفيزياء والميتافيزياء. إن انطلاق الحديث عن الانفجار العظيم للنظام وضع قاعدة نظر موحّدة للكون كله، بحيث أصبح من الممكن للدراسة والبحث أن تنظر إليه بمنهج درسي واحد هو المنهج العلمي الموضوعي. إن مبررات تقسيم البحث إلى فيزياء وميتافيزياء كانت ترتكز إلى خفاء النظم عن ملاحظة الإنسان. ولكن نجاح الفيزياء في دراستها للحركة ودورها في تشكيل الكون، وقيام بحثنا هذا بدراسة الحركة الحية وعلاقتها بناتج النشاط الإنساني قد سلّط الضوء على آلية تشكل الوجود، وظهور طريقي تطوره الجواني والبراني. وهو ما سمح لبدء انقشاع الضباب والغيوم من أمام مادة بحث الميتافيزياء.

النظام الكلي العامل في الكون الفيزيائي هو ما أشار إليه "إيفان والكر" في نصه السابق. وتستطيع أنت أن تنظر حولك على الأرض، لترى أن المادة الحية التي تشكل النباتاتُ والحيواناتُ أجناسَها، هي شكل وجودٍ مختلفٍ عن المادة الجامدة، من حيث طبيعة الحركة التي يتم إطلاقها، والعلاقة الرابطة بين وجود الحيوان وبين حركته. مما يعني أن النظام الحي يمتلك خصوصية عن النظام المقيم للمادة الجامدة السابق الذكر، نابعة من طبيعة الحركة الحية كحركة ميكانيكية، ومن غائيتها المتمثلة بحفاظها على وجود الكائن الحي. إن النظام الحي هو نظام داخلي كذلك، يقيم وجود الكائن الحي ويطلق حركته. وقد لمح علماء الأحياء هذا فأطلقوا على هذا النظام الحي عند الحيوان اسم «الغرائز»، مراعين في هذه التسمية الموقع الذي يحتله النظام. وبالنظر من هذه الزاوية إلى علاقة موقع النظام بوجود المادة، وطبيعة عمله الناتج عن هذا الموقع، يتم ربط المادة الحية بالمادة الجامدة (الكون الفيزيائي) بمحور واحد. يتحدد من خلال إضاءة موقع النظام بالنسبة للوجود المادي، وما ينتجه هذا الموقع من حركات ذات خصائص معينة ينشئ بها الأشياء (أشكال التجسُّد). إن هذا الربط بين المادتين المعتمد على موقع النظام، سمح بتحديد خصائص الخط التطوري للكون بمكوِّنيه، المادة الجامدة والمادة الحية من ناحية، وأظهر- من ناحية أخرى- الجديد الذي يمثله وجود الإنسان في مسار التطور الكوني وإمكانية تعليله علميا.

وبانتقال سريع للحديث عن الموقع الذي تشغله النظم التي تطلق الحركة في آلاتنا وأدواتنا الإلكترونية، فإنك ستجد أن نظام الحركة الحية قد حُمِّل على المادة الجامدة (جسم الآلة المادي) من خارجها، كما تحققت على يد الإنسان في مسيرة تطوره الاجتماعي. مما أوجد فعل نظامين فيها، أولهما: نظام يقيم وجود المادة الجامدة كما هي في الطبيعة. وثانيهما: نظام حي منقولٌ إليها من الإنسان يطلق الحركة بخصائصها الحية، متداخلاً مع

نظام المادة الجامدة، ونافذاً إلى أعماقها حسب تطورها. وبقراءة سيناريو تطور التكنولوجيا منذ أن اخترع "جيمس واط" محركه البخاري عام 1769، نلمح أن خط التطور يرتكز إلى تنامي نفاذ النظام الحي في بنية نظام المادة الجامدة، وتفاعلهما على نمط مخصوص*.

لا بد من الإشارة إلى أن النظر إلى الوجود المادي على اختلاف مظاهره، سواء كان جامداً، أو حياً على اختلاف أجناسه، أو تكنولوجياً بمختلف أشكاله. إنما يُرصد في هذا البحث من خلال علاقة المادة بالحركة المنطلقة منها، اعتماداً على أن الحركة هي أسلوب وجود الشيء تطبيقاً لتصور انطلاق الوجود كله بحركةٍ انفجارية منذ ما يقارب 15 مليار سنة. ومن هذا المنظور تم اكتشاف واقعة الانفجار العظيم للنظام، وقامت النظرية التي يرتكز الكتاب إليها برصد موجته الأولى في حيز المادة الحية، وتتبعت آثاره في تشكيل مادة حية جديدة، كان الجسم الإنساني هو وحدتها المفردة. كما رصدت كيفية توسيع الانفجار لدائرة تأثيره من خلال اختراع الإنسان للتكنولوجيا، محضّراً واقعاً موضوعياً جديداً لتوسيع الدائرة لتشمل الطبيعة في الأرض، ثم المجموعة الشمسية لاحقاً.....!!

---

* هذا محور درسي جديد في التكنولوجيا ناتج من انكشاف مضمون تجربة الإنسان التاريخية، يقدم رؤية مركزية عن وجود التكنولوجيا المتجانس مع الإنسان، وفي مسيرة تطورها والآفاق المستقبلية الذاهبة إليها. إنه سيساهم بإنهاء هذا الفزع المتوهم من تصور الدور المستقبلي للتكنولوجيا، كعنصر جديد في تطور الكون ينازع الإنسان مكانته، ويدمر- في سياق هذا الصراع- مرتكزات الدور الإنساني الكوني.
تكشف أدبيات المستقبليات عن خيالات، صور تحمل فيها التكنولوجيا سمات صراع مع الإنسان، مؤطرة في أنماط علاقة الإنسان بالإنسان. إن رؤية كتابنا المنصبّة على محور الحركة ستعطينا قاعدة تصورات جديدة تتطابق مع الواقع، تزيل من داخلنا بذور هذا الفزع المبهم والغامض الذي أخذ يمد شبكته في داخلنا. وستمدنا بقدرة تطوير تصور لواقعة حضور التكنولوجيا في حياتنا من ناحية، وفي الكون الفيزيائي من ناحية أخرى، وتظهر دور التكنولوجيا الإيجابي في كلا الناحيتين، وتضيء ساحات عملها، وطبيعته.

شكل كوكب الأرض، مكان حدوث انفجار النظام، حالةً خاصة بين كواكب المجموعة الشمسية. حيث امتلك ماءً وغلافاً غازياً ومجالاً مغناطيسياً إضافة لخصائص أخرى، جعلته بنيةً محكمة الإغلاق، حضنت في داخلها المادة الحية التي يرصدها علم الأحياء بدءاً من أبسط أشكالها وصولاً لأعقدها. وقد سمحت بنية الأرض الخاصة هذه للمادة الحية بأن تسير في خط تطوري، رصده علم التطور وكشف عن الروابط بين حلقاته. وكانت المادة الحية بكل ظهوراتها فيه، تقوم – من منظور موقع عمل النظام – على نظام داخلي، يقيم وجودها ويطلق حركتها، وينتج جميع أجناسها بذلك.

تقدم نظرية «الانفجار العظيم للنظام» تصوراتها عن الأرض المحتضنة لكامل أشكال الحياة، على أنها المكان الذي جرى فيه انفجار النظام. وأن هذا الانفجار قد انطلق من المادة الحية، بسبب خصائص بنائها وحركتها، اللذين شكلهما تطور الكون المحكوم بنظامه العامل داخلاً منذ الانفجار الكوني العظيم. إن محور الدرس الذي تصدت له النظرية في هذا الحديث عن الانفجار، هو موقع النظام الذي يقيم وجود المادة في الكون؛ فالمادة الجامدة التي تشكل منها الكون الفيزيائي، وكذلك المادة الحية المحضونة في الأرض، على الرغم من اختلافهما في مستوى التطور اعتماداً على دور الحركة في كليهما، قد حُكما من زاوية النظم بأصل واحد، هو أن النظام الذي أشاد بناء المادتين وأطلق حركتهما، إنما يعمل من داخل المادة.

لا تصبك دهشة من أني لم أذكر الإنسان في حديثي عن الأرض ومادتها الحية. فسبب هذا السكوت هو أن الإنسان كمادة حية يمثل نقطة الخروج على هذه العلاقة، وهو يشكل الدليل المادي- الذي يمكن رصده- على حدوث انفجار النظام. فالمادة الجامدة على سطح الأرض في كل

تشكيلاتها الوجودية محكومة بموقع النظام الجامد داخلاً، ولن تجد متجسداً مادياً صلباً أو سائلاً أو غازياً يخرج عن قاعدة هذه العلاقة بين النظام الجواني والمادة: «فهل هذا ظهور آخر لهذه الغرابة المنطقية؟ إنه وجود نظام داخل السديم، فما المشترك بين عمود دخان، وبارقة في السماء، وراية تصفق في الريح، وماء يسيل من حنفية؟ في الواقع هذه المظاهر سديمية أي غير منظمة. ولكننا حين نتفحصها في ضوء هذه المقاربة الجديدة، نعني نظرية السديم، سنكتشف أن الأحداث غير المنظمة في ظاهرها، وغير الممكن توقعها، تتميز بنظام مدهشٍ وعميق في آنٍ. كيف يفسر وجود نظام في صميم السديم والفوضى؟»[47]. وكذلك فإن المادة الحية بكل متجسداتها بدءاً من وحيدة الخلايا، وحتى أضخم متجسدات المادة الحية في الأشجار والحيوانات، إنما تخضع للعلاقة ذاتها مع موقع النظام الباني للمادة والمطلق للحركة جوانياً. وهذه الوحدة بين المادتين في هذه النقطة، هي التي تسمح لنا أن نرى مظاهر انسجامهما وتكاملهما، وأن ننظر إليهما بمنظور واحد مبني على زاوية العلاقة بين النظام والمادة، وألا ننذكر الإنسان معهما.

الموقع الداخلي للنظام الجامد الباني لكل متجسدات المادة الجامدة، يطابقه في الموقع النظام الحي الباني لكل متجسدات المادة الحية على سطح الأرض. هذا التطابق لموقع النظام (الجامد والحي) في المادتين، سيسمح للانفجار العظيم للنظام أن يشكل موجته الحية كدائرة أولى، من خلال تشكل موقعٍ للنظام الحي خارجاً، يرتبط ضرورةً بالمادة الحية (الإنسان)، وسيمتلك في مسار تطوره لاحقاً قدرة التأثير على المادة الجامدة كما بدأ يتحقق الآن واقعياً (التكنولوجيا والتغيرات المناخية والبيئية).

كيف تلمست النظرية حدوث انفجار النظام، وتشكل موقع خارجي له يعمل في المادة معمرّاً لها بآلية جديدة، إذا كان هذا الانفجار قد تمَّ في ساحة النظم التي لا تضبط بالحواس؟ إن الجواب على هذا السؤال يطرح طبيعة المنهج الذي جرى العمل عليه، حتى أمكن التوصل إلى نظرية «الانفجار العظيم للنظام». إن اعتماد محور الحركة أساساً لدراسة المادة الحية، وطبيعة فوارقها عن المادة الجامدة، هو الذي مكن من ذلك. فقد جرى تحليل الحركة الإنسانية وكشف مكوناتها، وإرجاع هذه المكونات إلى مصادرها الواقعية. لقد انصبت الدراسة على كامل مستويات الحركة الإنسانية، بدءاً من حركة الفرد، ومروراً بالسياسة، وانتهاءً بحركة التاريخ. فظهر اختلاف الحركة الإنسانية عن حركة كامل مكونات الأرض (الجامدة والحية)، من حيث موقع النظام. لقد أوضح التحليل أن الإنسان شكَّل ظاهرة مختلفة من ناحية حركته، أدت دراسة مكوناتها إلى التأكيد على أنها لم تتولد في سياق سلسلة التطور الحيواني الخاضعة لعمل النظام في موقعه الداخلي، بل وضحت أنها جاءت نتيجة تغير في موقع عمل النظام الحي المقيم للمادة الحية.

سلسلة التطور والإنسان "الحلقة المفقودة"

إن جوهر تطور الأحياء كما رصده علم التطور القائم على النظرية الداروينية، هو صراع من أجل البقاء ينتج حالة اصطفاء طبيعي. وهذه الرؤية لم تمتلك وحدها قدرة تفسير التغيرات في النظام الحي الداخلي عند الأحياء والمشفَّر في الـ (د ن ا)، مما دعا علماء التطورإلى دمج الداروينية بالنظرية الطفرية لِـ(دوفرس)، والتي تقول بوجود طفرات مورثية (تغيرات مفاجئة في ترتيب الحموض الريبية النووية في الـ(د ن ا))، ما سمح بتعليل مسيرة التطور في الأحياء بآلية ظهور صفات جديدة عندهم، تؤدي بتداخلها مع الاصطفاء الطبيعي إلى ظهور أنواع جديدة من الكائنات الحية.

لقد استطاعت النظرية التركيبية الحديثة الناتجة عن ربط وحدات التطور (الجينات) بآلية التطور (الاصطفاء الطبيعي) تحديد الآلية التي حدثت وفقها التغيرات في النظام الحي المقيم لأجساد الكائنات الحية، وأشارت لوجوه من الظاهرة، إلا أنها لم تستطع استيعابها كاملةً، كما ظهر في عجزها عن قراءة ما تمثله الظاهرة الإنسانية كناتج في هذا المسار التطوري.

فعلى الرغم من التشابه الكبير بين الإنسان والقرود الكبيرة (مورفولوجياً وبيولوجياً)، وارتفاع نسبة التطابق بين "د ن ا" القرد والإنسان (96%)، فقد قصّرت النظرية التركيبية في فهم الاختلاف بين حركة الإنسان وحركة القرد، من حيث متولدات النشاط الإنساني. فرغم التطابق الغائي للحركتين من حيث دورهما في الحفاظ على وجود الكائن

على محاور الأمن والغذاء والتكاثر، فقد بقي تعليل متولدات النشاط الإنساني في ظاهرة الاجتماع أمرا مستحيلاً في سياق نظرية التطور.

إن أسس التعليل الحالية التي يعتمدها علم التطور، لا تسمح بإنتاج قاعدة قراءة تستوفي عناصر الظاهرة الحية كلها، ولا تظهر ارتباطها بمسار تطور الكون الفيزيائي.لقد سد تعليل نشوء حلقات التطور بالصراع من أجل البقاء الأفق أمام علم الأحياء، ومنعه من امتلاك جذر فهم منسجمٍ مع الواقع. مما أوجد حاجزاً مانعاً من تعليل ما جرى في سلسلة التطور، حتى تولَّد الإنسان ككائن حي بكل تميزه. وهذا ما أبقى النقلة التطورية من القرد إلى الإنسان حلقةً مفقودة.

الأحياء في الكرة الأرضية هي متشكّلٌ جديد للمادة، متأخر زمنياً على المتشكّلات الجامدة للمادة التي انطلقت إلى الوجود بالانفجار الكوني العظيم. وينكشف من عملية الدراسة والمقارنة جوهر الزيادة في كائنات المادة الحية على متجسدات المادة الجامدة، من خلال مراقبة خصائص الحركة الحية. فكلا المادتين وجود امتلك حضوره بالانفجار الكوني العظيم، وامتلكا تجسداً قائماً على نظام داخلي، مكن من تصنيفهما معاً من هذه الزاوية، بينما يرتكز الاختلاف بينهما على الفوارق في خصائص الحركة. إن الحركة الحية تشكل عنصراً فاعلاً في الحفاظ على وجود المادة الحية (الكائن الحي)، وهي تحقق هدفها بدقة على محاور الأمن والغذاء والتكاثر. وبذلك يتبدى ربط غائي بين الوجود وبين حركته في الكائنات الحية لا نجده في متجسدات المادة الجامدة.

حركة جسم الإنسان ترتكز إلى هذا الأصل الذي استقر في حركة الحيوان. فالجسم الإنساني وجود مادي حي يقوم على نظام يعمل داخلاً، ويقوم هذا النظام الداخلي بإطلاق حركة حية على ذات المحاور التي

رسمتها الحركة الحية عند الحيوان (الأمن، الغذاء، التكاثر). إن الفارق بين الجسد الحيواني وبين الجسم الإنساني يكمن في امتلاك البنية البيولوجية للأخير قدرة إحداث أثر تنظيمي خارجها (آتٍ مما تحمله من قدرات إيجاد وتنظيم اختزنتها عبر مراحل سلسلة التطور الجواني). لقد ظهر امتلاك الجسم الإنساني لهذه القدرة في أشكال متعددة، كانت التكنولوجيا هي أوضح وأجلى آثارها الواقعية. وهذه النقطة هي معدن التميز بين الإنسان وبين الحيوان. وبهذه الرؤية أمكن إظهار تميز الإنسان عن الحيوان، من خلال دراسة الفوارق بين حركتيهما.

سأضع هذه الكلمة «**التميز**» بشكل ظاهر، وأرجو ألا تغيب عنك وأنت تتابع هذا البحث المتحدر في جريانه، الساعي إلى إنشاء تصور للوجود مبتدع يرتكز على الانفجار العظيم للنظام. ستستخدم أدبيات النظرية كلمة «التميز» بشكل مركزي، لتشير إلى الفارق بين الجنس الإنساني وبين غيره من أجناس الحيوانات، الناشئ من طبيعة الحركة التي يطلقها جسم كل فرد من أبناء الجنس الإنساني. ولهذا ستعرّف النظرية الإنسان، اعتماداً على هذا التميز، بقولها: «**الإنسان جنس حي متميز، راكم بنشاطه زيادة في الوجود، أسست لإطلاق الدور الحي كونياً**». وقد ظهر هذا التميز من خلال الآثار الخارجية لنشاطه في محاور كثيرة، سوف نتعرض للهام منها خلال عرض خطوط هذا التصور الجديد لوجوده.

التغير في الحركة الحية هو الذي أعطى الجنس الإنساني تميزه. وذلك بعد أن أدت مسيرة التطور الحيواني إلى إنتاج كامل خيارات الحركة الحية، في هذه الحلقات التطورية التي يرصدها علم التطور. ويشير علم الأحياء في دراسته للخريطة الجينية إلى أن تطور الأجناس الحيوانية القائمة على عمل النظام في موقعه داخلاً قد وصل إلى ذروته في حلقة «القرود»، وأن الإنسان جاء بعد ذلك يحمل هذا التغير في حركته المظهرة

لتميزه. لقد امتلكت حركة الإنسان خصائص جديدة أوضحتها قدرة التأثير التنظيمي في الخارج. وقد ظهرت الخصائص الجديدة في انكشاف الوجود للإنسان، وقدرته على رسم صورة للوجود حتى يحقق هذا التأثير، وكذلك بإنتاجه قواعد تنظيمية لهذا التأثير مستقلة عن فرديته ينضبط بها نشاطه (قواعد تنظيمية فوق فردية)، مما سمح بتراكم هذا التأثير منتجاً وجوداً كونياً جديداً (التكنولوجيا)، بقي الإنسان يغذيه بنشاطه حتى الآن، مفتتحاً بذلك مستوىً جديداً للتطور الحي في الكون الفيزيائي. **هكذا أمكن رؤية كيف أن القرود شكلت آخر حلقة في سلسلة التطور الحيواني، وأن الجسم الإنساني شكل بداية وجود جنس حي جديد، نتج في سياق تطوريٍ مختلف عن الذي كانت الأجناس الحيوانية تخضع له في سلسلة التطور.** وستدلك أدبيات علم البيولوجيا على الفوارق القليلة بين القرد والإنسان، وكيف أدى تركيز الدراسة عليها دون الالتفات إلى محور الحركة، إلى هذا المنزلق الذي سمح برؤية الإنسان قرداً متطوراً. وبهذا المنزلق الذي وقع فيه علم الأحياء، أُغلِق أفق البحث لكشف ماهية الإنسان وكيفية وجوده، وطبيعة دوره الكوني.

الحركة عند الحيوان بكل عناصرها أداة الجسد الحي للحفاظ على وجوده. وهي تؤدي ذلك بدقة كبيرة، يتبدى مداها في تحقيقها لهذا الهدف كاملاً. وكذلك تحافظ الحركة الإنسانية على الجسم الإنساني بذات الدقة. **إن التميز الذي امتلكته حركة الإنسان لا يعود إلى دقة زائدة في تحقيق هدف الحفاظ على الوجود، بل يرجع إلى أن تغيّراً طرأ على منبع الحركة ومساراتها، أنهى بقاء آثار التفاعل البيولوجي محصوراً في داخل الجسد الحيواني، وجعل آثار تلك التفاعلات تنطلق حاملة قدراتها على الإيجاد والتنظيم إلى حيز الخارج، مطلقة خطاً تطورياً جديداً، شكل حيزاً تأثيرياً مختلفاً عما شكله الخط التطوري المتحقق في سلسلة تطور الحيوان.** وهذا ما جعل النظرية تعلن أن الإنسان ليس حلقة في سلم التطور

الحيواني، بل هو بداية سلسلة تطورية كونية جديدة للنظام الحي، ظهرت آثارها من خلال نشاط الإنسان الممتد على تاريخه الواقعي.

حددت نظرية "الانفجار العظيم للنظام" عناصر تميّز الإنسان عن الحيوان، وأظهرت أن هذا التميز قد تشكل من تغيّر في الحركة. وبهذه الرؤية استطاعت أن تتجاوز عنق الزجاجة الذي علق فيه علم الأحياء، وانكشف لها أن تعليل علم الأحياء لمحّرك التطور بأنه صراع من أجل البقاء، هو ما سدّ آفاق البحث النظري لهذا العلم، وأغلق الأفق أمام قدرة تعليل كل مظاهر تميّز الإنسان عن الحيوان، سواء في الفروق البيولوجية والمورفولوجية الطفيفة، أو في الجدة التامة لآثار الحركة الإنسانية خارجاً. ولهذا فإن تعليل مظاهر تميز الإنسان (عقل الإنسان وفكره وذكاؤه ولغته ومعرفته وعلمه، بالإضافة إلى الحديث عن روحه ونفسه وحريته وعواطفه) قد غدا أمراً ممتنعاً في أبحاث عالم البيولوجيا "كاريل"، ودفعه إلى إعلان أن الإنسان مجهول.

اعتماد حركة الإنسان محوراً لدراسة عناصر تميّز الإنسان، أضاء سلسلة التطور الحيواني بكشاف آخر، فهي لم تعد ساحة صراع بين الأجناس للحفاظ على الوجود، بل بدت مساراً تطورياً لإظهار خيارات الحركة الحية واقعياً. فبعد أن تشكلت الحياة على الأرض، وجوداً مادياً له حركة ذات دور جديد في هذا الوجود، يتم بها اندفاع الجسد الحي على مسار محدد يستجيب لهدف مركزي هو الحفاظ على الوجود. أخذ النظام الحي المغروز داخلياً - مستجيباً لاختلافات بيئة الواقع - يطلق خيارات حركة مناسبة، تأتي استحقاقاً لطبيعة بنية النظام العامل داخلاً، وتلائم بشكل تام طبيعة الحيّز الذي تتم به الحركة (البيئة)، مشكّلة في كل حلقة تطورية نموّ مسار التطور الحي الجواني.

سلسلة التطور الحي الجواني هي ظهور هذه الخيارات في تغيّر نمط الحركة خلال كل جنس حي، وهذا التغير هو حاصل تفاعل البيولوجيا المطلق للحركة، يجري ويتراكم في داخل البنية للحفاظ على وجود الجسد الحي، دون أن تمتلك الحركة قدرة التأثير خارجاً. وكانت ظهورات التطور تمر من خلال متجسدات مادية حية تنتج من هذا التراكم، وتتشكل من تغيراتٍ في بيولوجيا الجسد الحي داخلاً (الطفرات).

استغرقت عملية التطور زمناً طويلاً على سطح الأرض، أنتجت خلاله كامل خيارات الحركة الحية، واستطاع كل جنس حي حامل لواحد من هذه الخيارات أن يطلق حركته ناجحة في الحفاظ على وجوده. وقد رصد علم التطور مظاهر هذه الحركة في تشكلها الواقعي في الجسد الحي عند كل جنس حي(البنية البيولوجية والمورفولوجية) وربط بينها، واكتشف بذلك وجود السلسلة التطورية بين الأجناس الحية.

اكتملت عملية إيجاد الأجناس الحية، وتم إطلاق خيارات حركتها المناسبة بظهور حلقة القرود على سطح الأرض.وهذا ما شكلّ كمال الأرضية التي سيتحقق من خلالها ظهور قدرة التأثير الحي في الخارج عند الإنسان. لقد شكل الجنس الإنساني نقطة انطلاقٍ لتأثير تفاعلات البيولوجيا خارج المادة الحية،مفتتحاً بذلك بداية مسار تطور حي جديد،تعمل فيه محركات التطور (قدرة التنظيم والإيجاد) خارج المادة الحية. وهذا يوضح أهمية الجنس الإنساني كمحقق لإطلاق مسار التطور الكوني البرّاني. إن التعبير عن حصول ذلك واقعياً في خطاب الكتاب، اقتضى جملة من المصطلحات المخصوصة، سهّلت إنشاء شبكة المفاهيم للحالة التي جرت. وهذه المفاهيم ستتشكل الحضور التصوري للرؤية التي تم بها التأثير خارجاً.

السلوك الإنساني "التوحيد"

أجناس النبات والحيوان بكل أشكالهما في سلسلة التطور هي مظاهر الوجود الحي المضبوط بمسار التطور الكوني الجوّاني، حيث العلاقة بين النظام والمتجسدات الحية تتشكل من خلال عمل النظام من موقعه داخلاً. لقد تطور الكون الفيزيائي المتشكل بالانفجار الكوني العظيم قبل ذلك بهذه العلاقة بين النظام ومتجسداته المادية، وأنتج الأرض التي حضنت وجوداً حياً يطلق شكل حركة متطور في المسار الجوّاني ذاته، متطابقة مع الحركة الكلية في الكون الفيزيائي من حيث موقع عمل النظام. لقد شكلت الأرض مسرحاً لتطور الحركة الجديدة، منتجةً كامل خيارات النظام الحي في متجسدات الأجناس الحية. ونتج عن ذلك تحقيق الموقع الداخلي للنظام الحي كمال نضجٍ، ظهر باكتمال تحقق خيارات الحركة الحية واقعياً. وبسبب خصائص الحركة الحية بمتجسداتها المادية، تم انبثاق النظام خارج المادة الحية، مشكلاً موقعاً خارجياً للنظام الحي، يقيم علاقة ضرورية مع الموقع الداخلي على نمط مخصوص، مما أطلق ظاهرة التوحيد الكوني من النظام الحي على سطح الأرض.

التوحيد الكوني هو ناتج لازم للانفجار العظيم للنظام. إنه ناتج ارتباط ضروري لقوى موقّعي النظام (داخلياً وخارجياً)، لتعمل معاً في متجسدٍ واحدٍ على إنتاج حركة جديدة (الحركة الحية الموحدة)، تنقل التطور الكوني من مساره الجوّاني، وتؤسس مادياً لمساره البرّاني، لإنتاج حالة جديدة في بناء الكون المادي.

موقعان للنظام الحي أحدهما في مكانه التقليدي في الجسد الحي، يقيم مادة الجسد ويطلق حركتها للحفاظ على وجوده. وموقع آخر خارج المادة الحية، مفصول عن المادة نتج من الانفجار العظيم للنظام. وبين النظام في موقعيه علاقة ضرورية حتمية. إن التدقيق في علاقة هذين الموقعين

يكشف طبيعة التوحيد الكوني في نقطة الانطلاق هذه، ويسمح بتحليل نمط الحركة الحية الجديدة المطلقة من الجسد الجديد (الجسم الإنساني). ويتضح من هذه الإضاءة المركزة جداً امتلاك قدرة تحديد خصائص النظام الحي في موقعه الداخلي (الجسم الإنساني)، وخصائصه في موقعه الخارجي، وما هي مرتكزات العلاقة الضرورية بينهما، لإطلاق الحركة الجديدة الموحَّدة (الحركة الإنسانية) متميزة على الحركة الحيوانية.

واقعة التوحيد الكوني بين موقعي النظام الحي المتولدة من الانفجار العظيم للنظام أنتجت متجسداً مادياً حياً خاصاً بها، يصلح لإطلاق حركةً تفتح مساراً تطورياً جديداً، يختلف عن مسار التطور القديم في أنه يتم برانياً. لقد تمت واقعة التوحيد الكوني في مستوى النظم، وقد جاءت نتيجة لخروج النظام، وشكلت مسارها التطوري خارج المادة الحية وليس في داخلها. لقد تم تشكيل المتجسد الحي الجديد (الجسم الإنساني)، القادر على إطلاق الحركة الحية الموحدة (الإنسانية)، التي سينتج عنها خط التطور الحي البرّاني.

المتجسد المادي المتميز (الجسم الإنساني) الذي تخلّق من واقعة التوحيد الكوني خلال مرحلة الحلقة المفقودة، شكّل البنية المادية التي تحمل خصائص التوحيد الكوني في بنية المادة الحية، لينطلق بذلك لاحقاً توسيع التوحيد إلى خارج حدود المادة الحية. إن خصوصية الجسم الإنساني بنيوياً عن كل الأجناس الحيوانية في سلسلة التطور، إنما ترتكز على أنه متجسد حي، تظهر في داخله (البنية البيولوجية) آثار التوحيد الكوني. وهذه الخاصية قطعت بينه وبين سلسلة التطور الحيواني كله، رغم أنه يتشكل من المادة الحية ذاتها في سلسلة التطور الحي الجواني. لقد تمّ القطع بين مساري التطور الجوّاني والبرّاني عن طريق تغييرٍ في الحركة، حيث تشكلّ المتجسد الجديد (الجسم الإنساني) نتيجةً لعملية

التوحيد الكوني، فجاء قادراً على إطلاق الحركة الحية الموحدة القادرة على التأثير خارجاً. ستبقى كافة الأجناس الحية تطلق حركتها معزولة عن التوحيد الكوني، وتعجز لذلك أن تشارك الإنسان في إنتاج عالمه المتطور لاحقاً.

يندفع جسد كل حيوان تشكَّل في سلسلة التطور الحي الجوّاني بقوة منطلقة من داخله إلى هدف محدد في الحفاظ على وجوده، وتنضبط هذه الحركة وتوجّه من الداخل أيضاً. أي إن النظام المطلق للحركة، المحدد لشدتها ومسارها وهدفها، موجود داخلاً بكامله. وإنه يطلق هذه الحركة بكمال داخلي تام، بحيث أن الجسد الحي يحافظ بها على وجوده بنجاح. وهذا ما دعا علماء الأحياء لوصف هذا النظام بمصطلح (الغريزة)، من حيث أنه نظام مغروز بكامله في داخل الجسد الحي. يمتلك قدرة إقامة وجود الجسد الحي المفرد، وإطلاقه للحركة على محاور الأمن والغذاء والتكاثر مضبوطة وموجهة للحفاظ على وجوده الفردي.

الحركة المطلقة من جسم كل إنسان فرد، هي في أساسها حركة حية مادية، تنطلق بالفرد الإنساني ككتلة مادية على محاور الأمن والغذاء والتكاثر، ويحافظ الجسم بها على وجوده كما هو شأن كل جسد حيواني. وهذا ما يرينا أن الموقع الداخلي للنظام الحي* في الجسم الإنساني، يمتلك المهام ذاتها التي يمتلكها النظام الحي في الجسد الحيواني. إن تميّز الإنسان على الحيوان إنما تشكل في خصائص حركته، حيث يتضح من تحليل الحركة الإنسانية أنها تنطلق من داخل الجسم، ولكنها تتعرض لعملية ضبط وتوجيه من خارجها، زائدة على ما في داخلها، تسمح بمنحها قدرات

---

* ستستخدم النظرية مصطلح "العقل الحي الفردي" لتدل على هذا القسم المشترك بين الإنسان وبين الحيوان. وذلك كمصطلح إجرائي دقيق يسهِّل لاحقاً الحديث عن البنية الإنسانية الموحَّدة "الشخصية"، حين تقوم بإنتاج التواصل مع الموقع الخارجي للنظام الحي.

جديدة. فحركة الجسم الإنساني تنطلق من الأساس ذاته الذي تنطلق منه حركة الحيوان، ولكن تميّز الإنسان ينتج عن خصائص الضبط والتوجيه للحركة، فتظهر حركته حاملةً خصائصها الجديدة كما تمّ الإشارة إليه. وهذا ما دفع علماء الأحياء إلى الاستنكاف عن استخدام مصطلح (الغريزة) لتوصيف مُطلقات الحركة الإنسانية، فأطلقوا عليها مصطلح "الدافع"، استجابة لأن الدافع يطلق الحركة، أما ضبط شدتها ومنحى مسارها فيتم خارجاً.

لا بأس من العودة إلى الخطاب الفيزيائي للتزود منه، وهذه ليست نقيصة في نظرية "الانفجار العظيم للنظام"، بل هي ظهور لخصائص التزامها بالمنهج العلمي وانفتاحها على كافة فروع العلم، من حيث أنها تتحدث عن الحركة أساساً، وهي مبحث فيزيائي نظري بحت.

موقعا النظام الحي (الداخلي والخارجي) هما ساحتا قوى حية للنظام ذاته، تتوحدان لإطلاق حركة فردية تمتلك انسجاماً تاماً بين مصدريها، سمح لها ذلك بإنتاج واقعة التوحيد الكوني التي تبحث عنها الفيزياء. إن خصائص الحركة الحية في جميع الأحياء وطبيعة اختلافها في التطور عن الحركة في الكون الفيزيائي، قد سمحت لمسار التطور الجوّاني بإنتاج واقعة التوحيد الكوني بخصائص النظام الحي، والذي ظهر في الجنس الإنساني إنتاجاً لحركة حية موحَّدة (السلوك الإنساني).

السلوك الإنساني مصطلح يشير إلى أن توحيداً لقوى موقعي النظام الحي قد حدث بنجاح في الكون. وذلك من خلال خصائص هذين الموقعين. فالموقع الداخلي للنظام بقي قادراً على إطلاق حركته الحية المادية للحفاظ على وجود الجسم على محاور الأمن والغذاء والتكاثر، كما هو الشأن في كل جسد حيواني مفرد، وقام الموقع الخارجي بشكل متدرج،

بضبط وتوجيه الحركة الحية المطلقة من الساحة الداخلية بنجاح تام. لقد ظهر السلوك الإنساني حركة حية جديدة بسبب نجاح التوحيد، أوجدت مسار تطور حي جديد، يقيم إنشاءاته التطورية خارج المادة الحية، لأول مرة في تاريخ التطور الحي على سطح الأرض. إن إنتاجات نشاط الإنسان على كل محاوره عبر التاريخ، هي مظاهر هذا الخط التطوري الجديد.

بصعوبة استطعت- قارئي العزيز- أن أمسك قلمي ليوقف اندفاعه في الحديث عن الإنسان وسلوكه الممايز له عن الحيوان، وأن يستغرق في الحديث عن أن وجود الإنسان كمادة حية، وإطلاقه لسلوكه، هو التصور الجديد للتطور في الكون المادي من خلال تميز الإنسان عن الحيوان. لكن هذا لا يمنع من أن يكشف الكتاب عن قضية يقدمها هدية لعلماء الفيزياء، وهي أن الإنسان هو الظاهرة الكونية، التي يجري فيها توحيد لعمل قوى الكون ناجم عن حضور النظام الحي من موقعه خارجاً. وأن هذا التوحيد قد ظهر نجاح تطبيقاته واقعياً، من خلال تشكيل الاجتماع الإنساني بكامل خصائصه وإيصاله إلى نهاياته، ثم البناء على نجاح الاجتماع لاحقاً في توسيع دائرة عمل الحركة الحية الموحدة، من دائرة المادة الحية إلى دائرة المادة الجامدة (التكنولوجيا). إنه هدية الكتاب لمحافل العلم الفيزيائي الجادة في البحث عن واقعة وجودية للتوحيد الكوني. لقد تحقق من خلال بنية الجسم الإنساني في كل فرد منا، تشكيل بنية مادية حية تطلق عملية التوحيد الكوني، وذلك من خلال سلوكنا الإنساني الذي نحافظ به على وجودنا المادي الحي، ونقوم من خلاله بإعمار الكون من خارجه. وأنت ذاكر أيها القارئ اليأس الذي لفّ حديث العالم الفيزيائي جواو ماغيجو في نصه المنشور عام 2003 في كتابه "أسرع من سرعة الضوء": «علي أن أؤكد أن حاجتنا لنظرية كمومية عن الثقالة لا تأتي من وجود تعارض مع معطيات تجريبية، وذلك **لأننا لم نجد بعدُ ظاهرةً فيزيائية تخضع للثقالة**

الكمومية، من الممكن ألا يوجد توحيد. وأن الثقالة ببساطة، غير قابلة للتكميم. ولكن هذه الإمكانية تبدو إهانة لمنطقنا العلمي، إن الطبيعة حولنا تصرخ من أجل وجود مبدأ واحد قادر على احتواء جميع النظريات الحالية، غير المنتظمة، التي نستخدمها لوصف العالم الفيزيائي حولنا»[48].

لا تظن أيها القارئ العزيز أن الرابطة بين الكون الفيزيائي والانسان غير موجودة، وأنه لا توجد صلة بين الكون الفيزيائي الذي يتحدث عنه جواو ماغيجو، وبين الإنسان الذي يتحدث عنه هذا الكتاب، وأن هناك فصلاً تاماً بينهما. فمثل هذا الظن إنما هو ناتج عن التصورات التقليدية التي لخّص الكتاب خطوطها العريضة في حديثه عن تصورات العلم والفلسفة والدين. من حيث أنها تصورات لم تستطع أن تدخل الوجود الإنساني وناتجه الموضوعي في نسيج الكون الفيزيائي.

وجود المادة الحية في سياق التطور الكوني المنطلق بالانفجار الكوني العظيم، لا يُوجِد للعلم ارتباكاً في دراستها. وذلك لأنها مع المادة الجامدة تشكل وجوداً مادياً محكوماً في إنتاج حركته بالخصائص ذاتها الحاكمة لمسار التطور الكوني الجواني. وبذلك تشكَّل منظور واحد لوجودات هاتين المادتين (الجامدة والحية)، بناء على وحدة موقع النظام في كليهما. وهذا ما ينهي وهماً بتصور وجود فاصل بينهما (الجامد والحي) ناتج عن تعقد البنى الحية، وهو ما يسمح للعلم أن يمدّ نفوذه ليشمل كل أشكال وجود المادة جامدة وحية*، وينتج قاعدةً لوضع الإنسان في مكانه من الكون.

بهذا التوضيح ينكشف لماذا وقف العلم عاجزاً عن استيعاب الحركة الإنسانية ضمن الحركات الكونية، وبقي تشكيل السلوك الإنساني كحركة

* هناك نزاع بين علماء الفيزياء وعلماء الكيمياء والبيولوجيا حول علاقة العلمين الأخيرين بالفيزياء ووجوب أخذ نتائج الاكتشافات الفيزيائية قاعدة لأبحاث العلمين المذكورين.

في الكون لغزاً حتى الآن بالنسبة للعلم. لم يكن من الممكن أن يصل علم الفيزياء إلى اكتشاف أن السلوك الإنساني هو المظهر الحركي لواقعة التوحيد في الوجود، وهو مطلِق عملية الإيجاد والتنظيم برّانياً. وذلك بسبب هذه القطيعة التي نشبت بين العلم والمعرفة في مطالع العصور الحديثة، من خلال الصراع الذي قام منذ القرن السادس عشر بين الكنيسة ورجال العلم، والذي أدى إلى قطيعة أبستمولوجية بينهما، منعت من أن يتوضح أن العلم الموضوعي، هو تطور طبيعي للمعرفة الإنسانية المتلبسة بالخطاب الديني في أوروبا المسيحية. إنّ الظروف الواقعية لهذا الصراع التاريخي وما نتج عنه من قطيعة ابستمولوجية، أنتجت العجز عن فهم الإنسان وعلاقته بالكون، ودور سلوكه كحركة متميزة لإعمار الكون، مما منع دراسات العلم التجريبي تناوله بمنهج العلم. إن هذا ما أوصل جهود الفيزيائي الكبير أينشتاين في بحثه الدؤوب لإنتاج نظرية كل الأشياء إلى عجز كامل، وكذلك أوصل أبحاث العالم الطبيب ألكسيس كاريل لتقديم صورة للإنسان بالعلم، إلى إخفاقه التام كما ظهر في كتابه الذي عنونه بـ «الإنسان ذلك المجهول».

نعود إلى بحث السلوك الإنساني المتحقق من جسم كل فرد منا. إن النظر إليه كحركة حية موحدة تجسدت فيها عملية التوحيد الكوني، يكشف لنا الخطوات التي تم بها إنشاء بنية الجسم الإنساني، التي سمحت بحصول عملية التوحيد لساحات قوى الحركة الكونية، كما أنتجها النظام الحي، وما هو المسار الذي جرى فيه هذا التوحيد بين موقعي النظام الحي؟. وكيف حقق هذا التوحيد بتفوق إنتاج ظاهرة الاجتماع الإنساني حيث شكلّ الاجتماع مظهر توحيد المتجسدات الحية (أفراد الجنس الإنساني) بأطر تنظيمية خارجية؟ ثم كيف تم البناء على نجاح ظاهرة الاجتماع في توسيع دائرة عمل الحركة الموحدة، كحركة كونية جديدة، إلى المادة الجامدة (التكنولوجيا)؟ مما يجعلنا نرى هذه الحركة الجديدة المتولدة من التوحيد

الكوني، وهي تستعد لإنتاج تأثيراتها في نظام الأرض، من خلال بدايات تغير المناخ والبيئة.

يقوم علم البيولوجيا ومعه علم الفيزيولوجيا بالبحث الجاد في بنية الجسم الإنساني، ومحاولة إضاءة البنية المادية التي هي جسم كل فرد منا. وقد توصل هذان العِلْمَان إلى نتائج باهرة، كان من أبرزها ظهور الخريطة الجينية للإنسان، وظهور هذا التقدم الهائل في محور الاستنساخ الذي يخطو خطواته الأولى بنجاح مبشّر. ورغم هذه النجاحات في العلم الذي يدرس الجسم الإنساني، إلا أن البحث في طبيعة السلوك الإنساني المميز لحركة الإنسان عن حركة الحيوان، الباني لإنشاءات هائلة منطلقة أصلاً من تفاعلات الجسم، ما يزال يشكل نفقاً للألغاز، تقف كل الجهود العلمية على بابه عاجزة ولا تمتلك مفتاحاً للدخول إلى ساحته.

الجسم الإنساني هو متجسد حي يبنى من الخلية الحية كما هو شأن كل أجساد الحيوانات التي تعايشنا على سطح الأرض. والفروق في الخريطة الجينية بينه وبين القرد طفيفة لا تزيد نسبتها في خريطة الإنسان على 4%. إن كتاب العالم ديزموند موريس (القرد العاري) يشكل نموذجاً لعملية مقارنة بالعلم لأنماط الحركة عند الإنسان والقرد، وقد أدت النتائج في قراءة العالم إلى الحكم على الإنسان بأنه قرد باستحقاق. ويظهر فهرس موضوعات الكتاب محاولة جمعٍ لنقاط لقاء كثيرة، سواء بين أعضاء الجسدين، أو بين حركتي هذين الكائنين، سهّلت على المؤلف استنباط الحكم الجائر والظالم، والذي عزز بقاء الإنسان لغزاً محيّراً أمام العلم، لا يمتلك أن يعلل بسبب هذه القردية المزعومة للإنسان، الإنتاجات الجديدة التي حققها هذا الجنس خلال تجربته التاريخية.

النظرة الإبداعية الجديدة التي قدمتها نظرية «الانفجار العظيم للنظام»، الكاشفة عن أن جسم الإنسان هو مظهر التوحيد في الكون، وأن الحركة الصادرة عنه تشكل نقطة انطلاق الحركة الموحدة، لتشكيل البذرة الجنينية لحركة كونية جديدة (مسار برّاني للتطور الكوني)، سمحت لنا أن نكتشف كيف تم تشكل الجسم الإنساني كما هو في كل فرد منا، بطريقة مختلفة عن الطرائق التي تشكلت بها الأجناس الحيوانية، وما هي المراحل التي مرّ فيها هذا الجسم خلال زمنه التاريخي، منذ أن انطلق الانفجار العظيم للنظام في الأرض.

قاعدة التصور* الذي تقدمه النظرية، ينبني على تشكل موقعين للنظام الحي (ساحتي قوى) يعملان معاً لإطلاق حركة كونية جديدة، تنتج عنهما معاً(الحركة الموّحدة). وجود هذين الموقعين أنتج بنية حية مناسبة لهذا الغرض (جسداً حياً هو جسم الإنسان)، امتلكت القدرة على أن يتحقق في داخلها توحد عمل الموقعين في صيغة بيولوجية مركّبة، سمحت بإطلاق حركة حية جديدة (السلوك الإنساني). إن زيادات الخريطة الجينية للجسم الإنساني، هي ناتج مادي لعمل ساحتي القوى، شكَّله كمادة حية تستجيب لحضور الساحتين وعملهما. وهذا ما جعل الجسم الإنساني يطلق حركة مادية موحّدة، تنقل عملية التطور من مسارها الجوّاني إلى مسارها البراني، وتمتلك قدرة التوسع والامتداد، لتُدخِل الكون الفيزيائي تحت سلطة التوحيد الكوني. هذا التصور لتشكل الجسم الإنساني، ينهي كل أساس التوهم أن الجسم الإنساني هو حلقة تطورية في سلسلة التطور الحيواني، الذي سمح لديزموند موريس أن ينزلق بعنوان كتابه عن الإنسان فيجعله "القرد العاري".

* ملاحظة: أدرك أن التصورات عن النظام وآلية خروجه مكثفة جداً، وهذا يجعل فهمها يشوبه عسر محدود. والذي فرض ذلك هو أن الشرح سيجعل كتابنا تخصصياً يشرح نظرية علمية، ولا يعود موجهاً للقارئ غير المتخصص. وهذا ما يتعارض مع هدف الكتاب.

انفجار النظام حصل نتيجة استيفاء سلسلة التطور الحي لكامل خيارات الحركة الحية، مما منح الموقع الداخلي للنظام الحي صفتي النضج والاكتمال نتيجة لذلك، ومكنه من الانبثاق* ليتشكل حضور الموقع الخارجي للنظام الحي ذاته. إن الظروف الواقعية لانبثاق النظام سمحت لموقعه الخارجي ضبط وتوجيه الحركة الحية المادية الناتجة عن الموقع الداخلي، محدثاً واقعة التوحيد الكوني (الجسم الإنساني)، المشكلة للمادة الحية التي ستطلق الحركة الموحدة (السلوك الإنساني) وتغذيها على طريقة مخصوصة، أقل ما توصف به أنها غاية في التعقيد. إن الجسم الإنساني كما هو في كل واحد منا، هو متشكّل هذه العلاقة بين النظام في موقعيه (الداخلي والخارجي). فقد شكلت علاقة التوحيد بين الموقعين زيادات بيولوجية ومورفولوجية للجسد الحي في الحلقة المفقودة. وهي زيادات تبدو في ظاهرها بسيطة وجزئية، ولكنها شكلت في واقعها الزيادة اللازمة ليصير جسمنا قادراً على إطلاق الحركة الحية الجديدة، الرافعة للتطور الكوني من مساره الجواني القديم إلى مساره البرّاني الجديد. الجسم الإنساني بعد اكتماله يشكل محتوى مركباً ومعقداً للنظام الحي، يمتلك كل العناصر اللازمة للاستجابة للعلاقة مع النظام في موقعه الخارجي. وأترك لخيالك قارئي العزيز أن يستحضر أشتات صور لهذه المرحلة من خلال ملايين السنين التي تتحدث عنها أدبيات علم الأنثروبولوجيا، في محاولته كشف أسرار الحلقة المفقودة، خلال بحثه عن الهياكل العظمية والجماجم المنثورة على ساحة الأرض (إنسان بكين ومن هو أقدم منه)، التي تحمل أوائل لمسات التغيير التي أحدثها حضور الموقع الخارجي، وطبيعة عمله

---

* نستخدم مصطلح انفجار النظام استيفاءاً لخصائص هذا الانبثاق. بعد أن أخذت أمواج الانفجار تمتد خارج حركة الإنسان، لتحقق لاحقاً تغييراً في الكون الفيزيائي. ولهذا فقد ابتدأت العملية انبثاقاً حين تشكل الجسم الإنساني، ولكنها ما لبثت أن تحولت إلى انفجارٍ يتوجه ليستوعب الكون كله.

في بنية الجسد الحي الواصل إلى ذروته في حلقات الحركة الحية المجسدة في أجناس سلسلة التطور.

حدث في زمن الحلقة المفقودة تغيير غير مسبوق في البنية البيولوجية والفيزيولوجية، لا يشابه أبداً نمط الطفرات التي تشكلت بها الأجناس الحية في سلسلة التطور الممتدة على مئات ملايين السنين. إنه بداية خط تطوري جديد، أخذ يشكل فيه الخارج (الموقع الخارجي للنظام الحي) أول آثار حضوره في المادة الحية، بتشكيل بنية بيولوجية تناسب هذا الحضور. وهكذا انتقلت مسيرة التطور الحي نقلة، غيرت علاقة المادة الحية بالكون الفيزيائي عن طريق ميزة التأثير فيه، لتأخذ بإطلاق مسارٍ تطوري جديد تتحقق إنشاءاته الوجودية من خارج المادة (إعمار الكون). لقد شكل انفجار النظام نقطة بداية العمل الإعماري للنظام من موقعه خارجاً، بعد أن كان يقوم بعمله البنائي من موقعه الداخلي فقط، منتجاً بذلك مسار تطور جديد يقوم بإعمار الكون المادي. إن الموجة الأولى لانفجار النظام (انبثاقه) قد حدثت في حدود المادة الحية، بسبب خصائص حركتها. كانت الخطوة الأولى لإنتاجات الانفجار العظيم للنظام، هو تحقق واقعة التوحيد الكوني في مستوى النظام، وقد تولد عنها تشكيل الجسم الإنساني كمتجسد حي جديد، منهياً حالة اقتصار مسار التطور الكوني على عمل النظام من موقعه داخلاً.

الجزء الثالث: رحلة التوحد من الإنسان إلى الكون

يقوم سيناريو نظرية "الانفجار العظيم للنظام" على أن الانفجار حصل في مستوى النظام، وأنه أطلق توحيداً كونياً. السؤال الذي يفرض نفسه: **كيف تشكل الجسم الإنساني كموقع داخلي ليقيم علاقة مع الموقع الخارجي للنظام الحي؟**

من خلال النظر في طبيعة حركة الحيوان تتوضح دلالة مصطلح "الغريزة"، من حيث أنه إطلاق للحركة الحية، تلبيةً لحاجة تتحدد داخلياً على محاور الأمن والغذاء والتكاثر، للحفاظ على وجود جسد الحيوان. تحدد غريزة الحيوان شدة الحركة، وحاجتها إلى كمية الطاقة والمسار الذي تتجه إليه، والهدف الواجب تحققه. ولا يخرج جنس حيواني واحد عن هذا الدور لغريزته (برنامج إطلاق الحركة).

ومن خلال مراقبة النشاط الإنساني لأفراد جنسنا في القرن الحادي والعشرين، نجد أن كل فردٍ منا ملزم بالحفاظ على وجوده من خلال حركة جسمه الحية كما هو الأمر في جسد الحيوان، ولكنه يختلف عنه في أن تحديد شدة الحركة ومسارها وهدفها لا يتم من داخله فقط. لمْ يعد نشاطنا الإنساني بسيطاً كحركة الحيوان، بل إنه تعقدّ بالخضوع لضبط معقد ومتداخل، يتشكل من علاقة كل منا مع نظامٍ حي فوق الفرد، نلتزم مراعاة ما يفرضه، بدءاً من الأعراف والتقاليد، ومروراً بالأسرة فالدولة فالمجتمع الدولي، ووصولاً الآن إلى قيود النظام العالمي الجديد. لايمكن لأي واحد منا أن يطلق حركته تبعاً لرغباته الفردية كما هو شأن الحركة عند الحيوان، لأن هذا أمر متعذر الآن، وهو يتجه لكي يصبح مستحيلاً. يمكن من باب التبسيط أن أشبه لك عملية الضبط المعقدة هذه، بما يحدث لخلايا الجسم من ضبط لتفاعلاتها بتأثير نظام أعلى منها، ونتيجة لمتغيرات تتعلق بالنظام الكلي للجسم وليس بالخلية وحدها، رغم أنها تحمل في داخلها كامل

النظام الباني لها والمطلق لتفاعلاتها، وإن أي خلل في هذه العلاقة بين الجزء والكل يؤدي إلى تهديد حقيقي لبقاء كليهما.

يقول أندرو فنسنت* في حديثه عن الدولة كنظام يضبط سلوك الفرد من خارجه: «إن أي شخص قام بدراسة الدولة بشكل متعمق، هو في واقع الأمر مدرك لهذه الحقيقة. هذا لا يعود فحسب إلى تاريخها المشوه أو أهميتها المركزية بالنسبة لظروفنا المعاصرة، ولكن أيضا إلى مشكلة ازدواجيتها، وجودها كحقيقة صارمة، ومع ذلك هلاميتها وصعوبة تحديدها. إن لها خاصية أن تندمج وتنفصل عن ممارسات عديدة وأفكار عديدة بسهولة مفزعة. إن الدولة ليست شيئاً يفصح عن نفسه للوهلة الأولى. وبالرغم من صلابتها (جرب ألا تقوم بدفع الضرائب، أو أن تغادر بلادك بدون جواز سفر) فهي مع ذلك يصعب تحديدها أو تعريفها. هي فكرة أو مجموعة من الأفكار، قيم وحقائق عن الوجود الاجتماعي.»[49]†. حاول أن تخالف إذن النظام العام الخارجي، وسوف تجد أن استمرار وجودك قد أصبح متعذراً، ولاتزال استحقاقات ضبط النظام خارجاً تضغط حتى تكمل عملية الضبط على قواعد جديدة تختلف عن قواعد الضبط الداخلية.

النظام الاجتماعي بكل حلقاته حضور تنظيمي زائد على الفرد، ضابط وموجّه للحركة الحية المطلقة من جسمه. وهو في أطره كلها متولد من حضور الموقع الخارجي الذي شكله انفجار النظام. وبسبب وحدة النظام

* بروفيسور بالعلوم السياسية في جامعة شيفلد في انكلترة.

† هذا النص المنقول عن فنسنت هو توصيف في النصف الثاني للقرن العشرين عن أثر متقدم لعملية التوحد الاجتماعي، منعكس واقعة التوحيد الكوني. وهو خطاب غير قادر على الضبط والتحديد، ولعله يساعدك قارئي العزيز على إعذار الذين تحدثوا في مراحل تاريخية سابقة بنصوص تمثيلية وغامضة، عن آثار عملية التوحيد الاجتماعي في أطر تنظيمية خارجية أضيق من الدولة كالأسرة مثلاً.

الحي في موقعيه الداخلي والخارجي، فإن الضبط والتوجيه الخارجي لمشكّلات محددة للموقع الداخلي في بداية حدوث الانفجار، أخذ يؤثر في تشكيل موقع داخلي مناسب لحضور النظام خارجاً. وهذا ما جعل الموقع الداخلي في أجساد حية معينة لما قبل إنساننا الحاضر ينفتح للعلاقة مع الموقع الخارجي للنظام، يقوم فيها الموقع الخارجي بالضبط والتوجيه، ويقوم الموقع الداخلي المطلق للحركة الحية التقليدية بالاستجابة لهذا الضبط، متخلياً بالتدريج عن اختصاصه كضابطٍ وموجهٍ داخلي، ومنتجاً حركة حية متدرجة في حملها لخصائص التوحيد بين الموقعين، يطلقها جسد حي مخصوص (جسم الإنسان). وهكذا وجدت علاقة متداخلة يضغط فيها الموقع الخارجي على الموقع الداخلي متحكماً به لضبطه وتوجيهه، ويقوم الموقع الداخلي بالتهيكل بما يلائم مستويات انفتاحه لذلك الضغط، متدرّجاً في تشكله البيولوجي والفيزيولوجي، ليشكل طرفاً مادياً مقابلاً أمام الموقع الخارجي.

أدبيات الأرشيف الإنساني الشفهية والكتابية لا تنبئنا كيف تمت هذه العلاقة الضرورية بين موقعي النظام الحي لإنتاج البنية المادية للتوحيد الكوني، المنتهية باكتمال خلق الجسم الإنساني كما نحن عليه الآن. ولكنها تحدثنا عن الجسم الإنساني المكتمل، بعد أن انتهى تكوين البنية الجديدة، التي أصبحت تستجيب بسهولة ويسر لاستحقاقات ضبط الموقع الخارجي، من خلال كمال انفتاح البنية الداخلية. وتؤكد أن تميزه مربوط بالعلاقة الضرورية مع حضور النظام الحي في الخارج، ثم تنطلق الأدبيات راصدة العلاقة بين الموقعين في مراحلها المختلفة.

لنعد لمراقبة ما يعنيه العرف والعادة والتقليد، وماذا تدل عليه كلمة الأخلاق واقعياً. ولنراقب الظروف التي تشكلت فيها الوصايا والشرائع، وكيف ظهر مفهوم "الله الحي"، وكيف ساد في ثقافات غالبية الشعوب

شرقاً وغرباً. ثم لنراقب ما هي مرتكزات الحداثة، وكيف تولدت من تفاعل النشاط الإنساني في العصور الوسطى حين كان شعار "الله الحي" هو السائد؟ وكيف شكلت هذه الحداثة دولتها النموذج، حتى عمّ وانتشر في الأرض كلها مما مهدّ السبيل لنشوء القانون الدولي في القرنين التاسع عشر والعشرين؟ ثم كيف نقوم بنشاطنا الموحَّد في توليد النظام العالمي الجديد؟

ستجد من خلال هذا المنظور- على رغم اتساع رقعة البحث، وضخامة المشاق التي تصيب من يتصدى لعمل كهذا- أن الوجود الإنساني لم يعد لغزاً لا يمكن كشفه، وأن النشاط الإنساني لم يعد حركة شواش لا يمكن كشف قوانينها، بل إنهما- في سياق المنظور الجديد الكاشف لجذر تشكل الإنسان- قد جاءا حلقات تطور جديد يتم خارجاً. هو معقد جداً ولا شك، ولكنه محكوم بقوانين نبعت من هذه العلاقة بين موقعي النظام الحي (التوحيد الكوني وعاكسه المادي في التوحد الاجتماعي)، متولدةً من هذا الانفجار العظيم للنظام. وستجد أن هذا الكتاب يستجيب لهذه الرؤية بدقة، ويسعى لرسم صورة بالخطوط العريضة لهذا التطور الجديد.

الفصل الثامن: التوحد حسب الجسد (الحب)

"الله محبة" يوحنا الرسول

حضور موقعين للنظام الحي يتحددان داخلاً وخارجاً، يعملان معاً بشكل ضروري وبتنسيق منسجم، أطلق حالة انجذاب توحيدي بين الموقعين منذ اللحظة الأولى التي حدث فيها الانفجار العظيم للنظام. وبما أن الجسد الحي هو حامل النظام الحي في موقعه داخلاً، وهو نظام محمول في ثنائية الأنثى والذكر. فقد دفعت عملية التوحيد في مستوى النظم إلى حالة توحد دائم بينهما منذ اللحظة الأولى للانفجار العظيم للنظام (بدايات الحلقة المفقودة)، رابطةً بهذه العلاقة بين الأنثى وبين الذكر، لتشكيل حضور توحدي تطبيقي في كبيرات المادة الحية، لتشكيل خطوات ما سيعرف في أرشيف الإنسانية باسم التوحد الاجتماعي الأولي. وهكذا نما تشكل الجسم الإنساني كبنية مادية حية تحمل قابلية التعامل مع النظام في موقعيه، مرتكزاً على حالة الانجذاب بين المرأة والرجل، لإنتاج ظاهرة الاجتماع الإنساني، كساحة يحدث فيها التوحد المادي منعكس التوحيد الكوني في النظام، منتجاً ساحة حركة تفاعلية، حاملاً كل مضامين التطور الحي في سلسلة التطور، ليشكل حالة خلقٍ في الخارج، كما سيعرض هذا الكتاب قضاياه بشكل مبسّط.

الانجذاب بين أنثى الحيوان وذكرها لتحقيق التكاثر، هو المدخل الذي نسج التوحيد الكوني خطواته الأولى عليه، لإنتاج مظاهره المادية في كبيرات المتجسدات الحية، خلال تشكيل موجته الانفجارية الأولى. لقد فرض حضور الموقع الخارجي آثاره في غريزة التكاثر. فهي لم تعد تتحقق بضبط وتوجيه داخلي، ولم يعد اندفاعها كقوة تحريك يتم بتفاعل عناصر البيولوجيا فقط، ويظهر في فصول وأوقات محددة. بل أصابها تغيير جعلها تصبح محرك انجذاب دائم بين المرأة والرجل، جامعةً بينهما

بشكل دائم، وواضعةً أساس إنتاج المجتمع الإنساني بكل مراتبه التي تحققت لاحقاً.

الاجتماع الإنساني ناتج ملازم لتشكيل الجسم الإنساني كما هو في نموذجه الذي يمثله كل منا، وقد شكّلا معاً (الجسم والاجتماع) أداتي إطلاق خط التطور البرّاني، وبقيا متلازمين طوال مرحلة شغلت نسبة كبيرة من زمن التجربة الإنسانية، التي تحددت بدايتها بالانفجار العظيم للنظام. وقد تشكل خلال هذا الزمن الطويل الجسم الإنساني كوحدة فردية، وتشكّل ملازماً له علاقات القرابة كبنية تحتية لظاهرة الاجتماع الإنساني. إن النجاح في تشكيل هاتين الأداتين، سمح بتقسيم عملية الاجتماع الإنساني إلى ثلاث مراحل، عملت كل مرحلة على تطوير مسار التوحد الاجتماعي، واختصت كل منها بخصائص معينة في تشكيل بنية الإنسان من ناحية، وفي إنتاج ضوابط الاجتماع من ناحية أخرى.

أطلقت النظرية على المرحلة الأولى من انبثاق خط التطور البرّاني اسم "**التوحد حسب الجسد**"، مراعيةً في هذه التسمية الدور المركزي للجسد الحي الممثل بانجذابٍ جديد بين الأنثى والذكر. وقد حوت هذه المرحلة كامل الأحداث التي يبحث عنها العلماء في الحلقة المفقودة. تشغل هذه المرحلة الجزء الأكبر من زمن التجربة الإنسانية، وهو جزء تم فيه بناء الجسم الإنساني بخصائصه الحالية، وأُنشئت فيه البنية التحتية للاجتماع الإنساني. ولذلك استخدم مصطلح "الجسد" لأن الجسم الإنساني تشكل في نهايتها، وكان الموقع الداخلي للنظام الحي (نظام الجسد) صاحب الدور الأكبر في عملية التوحد الاجتماعي في هذه المرحلة، وكانت مهامه البنائية مركزية في تلك المرحلة، وسينبني عليها كل ما سيحدث لاحقاً في المراحل التالية للتجربة الإنسانية. لقد تم في هذه المرحلة انفتاح متدرج للموقع الداخلي، من خلال علاقته المتنامية مع الموقع الخارجي. وقد تحقق

نتيجة تنامي هذا الانفتاح تغيير جزئي في البنية البيولوجية للجسد الحي الناتج في سياق سلسلة التطور الجواني. فتشكلت الزيادة في الخريطة الجينية للإنسان على ذروة الخرائط الجينية كما هي عند الحيوان نتيجة العلاقة مع الموقع الخارجي للنظام الحي. وأدت عملية الانفتاح كذلك إلى أن يصبح مخزون البيولوجيا عبر سلسلة التطور الحي خلال مليارات السنين، قاعدة إطلاق حلولٍ لكل العقبات والتحديات أمام الحركة الإنسانية، الناشئة من تنوع البيئات الحاضنة للإنسان على سطح الأرض. وهكذا أصبح مخزون التطور في البنية البيولوجية الذي حمل على عاتقه بناء كل الأجناس الحية حين كان يعمل جوانيا، مستعداً لكي يكون قاعدة لعملية البناء برانياً. ورافق هذا التغير الجيني تشكلاً جديداً في المورفولوجيا، مناسباً لتأدية استحقاقات عملية التوحد. فجرى تعديل الأجهزة والأعضاء، بما يناسب الانفتاح كمتحقق للتطور الذي ستظهر آثاره خارجاً.

تشكلت في نهاية المرحلة بنية جديدة للموقع الداخلي المفتوح، اصطلحت النظرية على تسميتها باسم "أداة التوجيه الثنائية"؛ تتألف من العقل الحي الفردي المفتوح*، ومن الوعي كزيادة متحققة من تغّيرات البنية البيولوجية. هكذا ظهرت تركيبة الجهاز العصبي عند الإنسان، في شكل جديد غير مألوف عند الحيوان، بحيث امتلك قدرة إنتاج حركة تستجيب للدور الشائع عند الحيوان بالحفاظ على الوجود، مع مراعاة استحقاق وجود الآخر خارجاً، والذي مثّل اختلاف الأنثى والذكر في بنيتهما البيولوجية أول محطة له. لقد جرت هذه العملية الطويلة والمعقدة،

* منذ نشوء علم النفس على يد الطبيب العالم سيجموند فرويد، جرى بغموض تحسس العلم لوجود هذه الثنائية في بنية الإنسان الفرد، فاستخدم مصطلح اللاوعي أو اللاشعور للدلالة على ما تسميه النظرية بالعقل الحي الفردي. وتدل التسمية بالسلب (اللاوعي) على غموض الرؤية وانسداد الأفق، مما منع أن يكون المصطلح أساساً لتطوير البحث. وهو ما دفع نظرية الانفجار العظيم للنظام للتخلي عنه واستبداله بمصطلح " العقل الحي الفردي" الذي سمح بتحديد التفاعلات الناشئة منه.

استجابةً لأساسها الكوني العامل في ظاهرة التوحيد النظمي، خلال مرحلة زمنية طويلة أطلق عليها علم التطور "الحلقة المفقودة".

أداة التوجيه الثنائية هي مطلقة الحركة الموحَّدة من الجسم الإنساني المتشكل في هذه المرحلة، وهي المغذية لكل مظاهر التوحد في ظاهرة الاجتماع الإنساني. لقد عمل العقل الحي الفردي المفتوح كواحد من مشكليها، فأنتج الحركة الحية المادية للحفاظ على وجود الجسم الإنساني، وشكَّل الوعي- المتخلّق في البيولوجيا تدريجياً نتيجة ضغط حضور الآخر- ساحة إطلاق السلوك المنسجم مع حضور الآخر، وتطوير التأثير المتبادل بينهما، بحيث أن حركة الجسم صارت تتشكل بانسجام مختلف النسبة، بين دافع حركة الحفاظ على الوجود (الأنانية)، وبين إلزامات حضور الآخر الذي يجب التوافق معها (الغيرية). لم تعد الحركة الحية في جسم الإنسان تنطلق لحفظ الوجود فقط كما كان الشأن في جسد الحيوان، حيث تشكل الغرائز قوة حركة منغلقة، بل تشكلت البيولوجيا والفيزيولوجيا في الجسم الإنساني في بنية جديدة، جمعت بين كل العناصر المادية التي يجب أن تشتمل عليها عملية التوحد مع الآخرين (أداة التوجيه الثنائية)، والقادرة على أن تستجيب لكل مستلزماته لاحقاً.

انصب التغيّر الفيزيولوجي المتدرج في مرحلة التوحد حسب الجسد، على الأعضاء والأجهزة لتصبح كما هي في أجسامنا الحاضرة. وهو أمر يجدُّ علم الأحياء في كشف حصوله، وتبيان الفروق حسبه بين الإنسان وأجناس الحيوان. وقد شكلّ أرشيفاً تسمح معلوماته بكشف ماهية التغييرات التي حصلت. إن ما سيركز عليه الكتاب- بالإضافة إلى فكرته الأساس، وهي أن هذا التغيير حصل بسبب حضور النظام الحي في موقعه خارجاً، وليس نتيجة تفاعل بيولوجي مغلق في الموقع الداخلي- هو تسليط الضوء على تغيُّرات جهاز النطق، وجهاز السمع، وسيتحدث في المرحلة

التالية عن التأثير في جهاز الرؤية. إن التغيرات في هذه الأجهزة هي التي ستشكل الناتج الأهم للانفتاح المتولد من تأثيرات التوحد في هذه المرحلة. واستقرار هذه التغييرات هو الذي سيؤسس لإنتاج المرحلة الثانية منه، التي سيكون العقل الحي الفردي قد أكمل انفتاحه فيها، وصار الجسم الإنساني ممتلكاً لكل تمايزه عن جسد الحيوان، وصار متجسِّداً حياً يطلق حركة جديدة موحَّدة لا يمتلك مثلها أي جنس حيواني يعايشه، وصار أيضاً حضور الخارج (الآخر والطبيعة) عنصراً مركزياً في ضبط حركته التي كان يطلقها مقصورة على الحفاظ على وجوده. لقد أنهت مرحلة «التوحد حسب الجسد» بناء الجسم الإنساني القادر على النطق والسماع والرؤية المخصوصة ناتجاً للانفتاح في الموقع الداخلي للنظام الحي، وأنتجت مرافقةً له- من خلال حضور الآخر الضروري- البنية التحتية للاجتماع الإنساني المتمثل بعلاقات القرابة بين الأفراد، الذين امتلك كل منهم حركة فردية تراعي حضور الآخر أمامه.

بالخطوط العريضة نستطيع أن نجمل ماذا تحقق في مرحلة التوحد حسب الجسد (الحلقة المفقودة). فقد تشكل داخلياً انفتاح العقل الحي حداً فصلَ الإنسان بشكل مركزي عن كل الحيوانات، ونتج عنه بناء جديد للداخل، تحقق بتولد أداة توجيه ثنائية لحركة الجسم الإنساني، ارتكزت مادياً إلى تغيير في البنية البيولوجية والفيزيولوجية. ونتج عن هذه التغيرات الداخلية جسم حي منتصب، له أجهزة ثلاثة تعمل متكاتفة مع أداة التوجيه الثنائية. فصار كل فرد من أفراد الجنس يتواصل مع الآخر محافظاً على الفراغ الفاصل بينه وبين الآخر، ومخترقاً له بأصوات إطلاقاً واستقبالاً، تحمل معانٍ يمتلكها العقل الحي الفردي المفتوح. مما منح كل فرد من المتواصلين قدرة التقاطها وتحليلها لتصبح أداة تواصل بين العقول الفردية المفتوحة، مشكلةً أداة التأثير المادي الجديد القادم من الآخر. وهذا ما ألزم الأفراد المتواصلين إطلاق حركة مناسبة لحضور الآخر في

الخارج. وهذا ما أحدث لاحقاً تغييراً في وظيفة العين، وجعلها أداة التقاط دائم لتأثير الخارج طوال فترة انفتاحها، وهو ما أضعف إلى حد شبه كامل دورها في عملية إطلاق تأثير العقل الحي الداخلي المحدود للخارج.

أبرز هذا التشكلُ للجسم الإنساني أثر حضور الموقع الخارجي للنظام الحي بشكل لازم، وربْطِه للموقع الداخلي المشكَّل من أداة التوجيه الثنائية بعلاقة ضرورية معه. حدث هذا الربط أساساً في مستوى النظم، وتحقق مادياً في الجسم الإنساني بتغيرات البنية البيولوجية والفيزيولوجيةٌ. أنتجت البنية المادية الجديدة (جسم الإنسان) الناشئة من العلاقة بين موقعي النظام، تواصلاً بينهما لا يلتقط بالحواس، التي تهيكلت لتتلقى مؤثرات الخارج المادية. ستعبّر المرحلة الثانية من مسيرة التوحّد عن هذه العلاقة بين الموقعين بمصطلح "الروح"، وستجعل دلالة مصطلح "العلاقة الروحية" منصباً بشكل مركزي على هذا الوجود الجديد (العلاقة بين الموقعين). لقد كمل تشكل جسم الإنسان الفرد في آخر مرحلة التوحد حسب الجسد كما نحن عليه الآن، وأسس لانطلاق الشخصية الإنسانية المستقلة المبنية على حضور الموقع الخارجي للنظام الحي. وهكذا امتلك كل جسم إنساني قدرة إطلاق الحركة الحية الموحّدة، وأخذ السلوك الإنساني يغذي نمو التطور البرّاني- الذي كان جنينيّاً حينذاك- ويراكم نتائجه في مجال عمل التوحد الاجتماعي من خلال آلية العادة والألفة عند الفرد، وما رافقها من شيوع التقليد للآخر، وهو ما شكلّ عرفاً شائعاً شكَّل بذرة نشأة المجتمع.

حُكمَ مسار التطور البرّاني في محطاته الأولى بقواعد دقيقة نابعة من البنية البيولوجية، ستسميها اللغة في مرحلة التوحد الثانية باسم "الأخلاق". حيث ارتبط تطور التوحّد في علاقات القرابة بانسجام مع طبيعة خلْقِ الجسم الإنساني. وأصبح طرفا مجرى نهر التطور الإنساني محددين بشكل

ملموس واقعياً. وهكذا كان الجديد الكوني الذي تشكل بالانفجار العظيم للنظام، ينشئ بنية مادية لإطلاق الحركة الموحّدة (الجسم الإنساني)، مزامناً لإطلاق نسيج توحد الأجسام في علاقات القرابة، كبنية تحتية لإنشاء ظاهرة الاجتماع الإنساني واقعياً، والتي ستتشكل لاحقاً دليلاً مادياً على وجود عملية التوحيد الكوني في مستوى النظم. وسيتم هذا من خلال تواصلٍ جديد وغير مباشر، تحققه بذور اللغة، حين حملت الأصوات التي يطلقها الإنسان مضامين من العقل الحي الفردي المفتوح (المعاني).

رافق تنامي إنشاء بنية الجسم المادية تجذر علاقات القرابة، الدافعة إلى مزيد من انفتاح العقل الحي الفردي في الجسم. وشكّلت تلك التغيرات البيولوجية قاعدة تفرعات الأعراق، نابعة من الأصل الذي تأسست عليه التجربة الإنسانية وهو التوحيد الكوني. واحتوت علاقات القرابة هذه الفروقات، بحسب درجة انفتاح العقل الحي الفردي، بعد أن تشكل له أفق استراتيجي بحضور الموقع الخارجي للنظام الحي. شكّلت آلية الانجذاب الجديدة بين المرأة والرجل جذر علاقات القرابة، وفرضت حضوراً دائماً لجسم الآخر أمام الحواس*، التي تهيكلت كمعبر مفتوح للخارج إلى الداخل. أدى ضغط حضور جسم الآخر إلى علاقات تداخليه (جنسية) بينهما، حكمتها معايير جديدة لم يكن لها حضور في أجناس الحيوانات. وهكذا تتابع تشكل تيار هذا المستوى من ظهور التوحد لجمع الأفراد إلى بعضهم، معتمداً على مركزية العقل الحي الفردي المفتوح، المحكوم ضرورةً لضغط الموقع الخارجي، ذي الدور المركزي في إكمال صياغة

* إن حضور الآخر أمام الذات، هو قاعدة إطلاق الاجتماع الإنساني، وهو ناتج من حالة الانفتاح المتولدة من الانفجار العظيم للنظام. لقد أدى الانفتاح كناتج لواقعة التوحيد الكوني إلى أن يتحول الإنسان الفرد إلى متلقٍّ لتأثيرات الخارج (طبيعة وآخر) متفاعل معها، ومطلقٍ لناتج هذا التفاعل فعلاً مؤثراً في الطبيعة والآخر. إن هذه الحالة التي نعيشها بكل وضوحٍ الآن، قد تشكلت خفيةً خلال مسيرة الجنس الإنساني. وكانت أحداث التاريخ هي محطات مستويات هذا الانفتاح حتى وصل إلى ما نحن عليه الآن.

الجسم الإنساني، كبنية قادرة على إطلاق الحركة الموحَّدة بكل جدتها وتعقيداتها المستقبلية.

أنا أعلم عزيزي القارئ أن الفقرات السابقة كانت جافة وفيها شيء من العسر والتعقيد، رغم كل الجهد المبذول في ألا أنقل لك أيها القارئ تقنيات بناء نظرية «الانفجار العظيم للنظام». سأحاول الآن أن أحاورك مبيناً أنك تستطيع أن تلمح حضور هذا الذي حاول قسم **التوحد حسب الجسد** (الحلقة المفقودة، المرحلة الأولى لعملية التوحد الاجتماعي) أن يلخصه.

العمل الذي نوجه إليه نشاطنا الفردي لتأديته، مقونن بقواعد تنظيم خارجية تضبط مساره بنسبة دقة لا بأس بها. يشوب اندفاعنا إلى عملنا كثير من العيوب، تتشكل من عدم التزامنا بالقواعد المنظّمة (خرق النظام)، وتفرض هذه الشوائب أداءاً غير احترافي لدى البعض. تحليل مصادر هذه العيوب في الأداء يبين أنها ترجع إلى خصائص فرديتنا، حيث يتركز ذلك كله في أساسات بنائنا الداخلي (شخصيتنا)، وتأخر انسجامه مع التطور خارجاً. تحاول فرديتنا أن ترفض الخضوع لقوانين النظام الذي يوجهنا، لأن القوانين الخارجية تشكل قيداً يفرض على العقل الحي نمط سلوك غير مألوف بالنسبة له، وهذا ما يشكلّ ضغط الخارج بأشكاله المختلفة علينا، وهو ما يلزمنا بالاستجابة له على أشكال متعددة واقعياً. السلوك المبني على أنانيتنا ينطلق من أساسات بنائنا الداخلي التي يعتبرها كلُ منا شخصيته التي هي قوامه، بينما يؤكد حضور النظام الحي الخارجي على وجوب هيكلة هذه البنية ليتم انسجامها معه، لكي تطلق سلوكها حسب قوانين النظام المنتج للتوحيد. هذه الصورة الآن تشكل مقلوب ما حدثتك عنه في تلك المرحلة من بناء الظاهرة الإنسانية (الجسم، علاقات القرابة)، حيث صار حضور الموقع الخارجي الآن مركزياً وواضح التأثير، وصار دور الموقع الداخلي بمكونيه (العقل الحي الفردي

والوعي) الممثل بشخصية كل فرد منّا تابعاً له، على عكس ما كان عليه الحال في تلك المرحلة.

إكمالات بناء المرحلة الأولى من التوحد، اعتمدت كما قدمنا على دور مركزي للموقع الداخلي ممثلا بالعقل الحي المفتوح. نشوء الوعي في البنية البيولوجية كان ناتج الضغط المتنامي لحضور الموقع الخارجي للنظام. تشكيل الصيغة البيولوجية الجديدة (أداة التوجيه الثنائية) من المكونين السابقين، كان يشكل جذر كل عملية البناء (الخلق) للجسم الإنساني، ليتم انفتاح العقل الحي الفردي من خلال الضغط الهائل، لينشئ كامل استحقاقات علاقته الضرورية مع الموقع الخارجي.

العقل الحي الفردي نظام كوني محدود يقيم وجودا مادياً هو الجسد الحي، ويحافظ عليه بإطلاق حركة تناسب دقتها خاصية الجسد. ضغط الموقع الخارجي، مع الانفتاح المتشكل منه في العقل الحي الفردي، وضعت الكائن (مشروع الجسم الإنساني) أمام تحديات خارجية، أخذ العقل الحي الفردي المفتوح- بكونه النظام الحي المتجسد في مادة حية محدودة- يقدم حلولاً ليتجاوزها، كتحديات تهدد وجوده وتعيق عملية الحفاظ عليه. الحلول هي قدرات النظام الحي الداخلي المفتوح المنطلقة حسب التحديات للحفاظ على وجود الجسم في الظروف الجديدة. ستطلق النظرية على هذه الحلول مصطلح (مضامين العقل الحي الفردي)، وستكون مشتركة نظريا بين الأفراد، رغم أنهم لم يملكوا قدرة إظهارها بشكل متساوٍ لعدم تماثل التحديات أمامهم.

الحلول المقدمة من العقل الحي الفردي على التحديات الخارجية هي مضامينه البنيوية، التي تراكمت فيه خلال سلسلة التطور الجواني، عبر مليارات السنين. أثّر ظهورها التدريجي الناجم عن حضور الآخر على

التواصل الصوتي، وهو ما منح الأصوات الصادرة عن الجسم تردداتٍ وأشكال عديدة، شفّرت الحل فيها (حروف). علاقات القرابة المبنية على أساس وحدة بيولوجية، كانت ذات صفة إلزامية فرضت مسؤولية نحو الآخر. الأصوات المختزنة للحلول نقلتها إلى الآخر، فصار يتم تلقيها من الآخر، وهي بالنسبة له تأتي من الخارج. هكذا جرى ارتباط الوعي- كمتشكل لضغوط الموقع الخارجي- بالصوت الإنساني المتَلَقَّى من الآخر، والمطابق لمضامين العقل الحي الفردي المفتوح عند المتلقي. وهكذا ساهمت الأصوات الإنسانية في أن تكون أقدم مصدر خارجي يساعد في تشكيل بنية الوعي، مانحةً إياه مضامين العقل الحي الفردي القادمة من الآخر (الخارج).

عملية "الخَلْق"* هي إنشاء الجسم الإنساني بعد إنتهاء التطور الجواني في سلسلة التطور بما يلائم دوره، وكانت اللغة أداة تواصل تناسب هذا الدور. أقامت بدايات اللغة الممثلة بأحرفها تواصلاً من الخارج منظماً بين الأفراد (العقول الحية المفتوحة). ساهم التواصل مع الآخر على الحصول على حلول التحديات لتشكيل الوعي، وامتلاكه لمضامين العقل الفردي آتيةً إليه من الخارج. وهكذا تحولت ردود الفعل المشكلة لحلول التحديات إلى أداة تواصل إنساني تسمح باستقلالية الشخصية، والحفاظ على فردية الجسم، وتقيم بنية داخلية لكل جسم إنساني تجسِّدُ التوحد مع حفاظها على

---

* تستخدم أدبيات المعرفة الإنسانية، وعلى رأسها خطاب الدين التوحيدي، مصطلح الخَلق للإشارة إلى تشكل الإنسان والسماء والأرض، وتنسب هذا الخلق دائماً إلى الله الحي. يتم عادةً فهم اللفظ من خلال دلالته على أن الخلق هو إيجاد من العدم. وهذا ما يوجد تصادماً فكرياً مع فهم العلم لسيناريو وجود الكون والإنسان. تحدد نظرية "الإنفجار العظيم للنظام" دلالة لفظ الخلْق على أنه إعادة بناء لوجود (السماء والأرض والإنسان) تمَّ من الخارج، إطلاقا لمرحلة تطور كوني جديد. وبذلك يتضح أن الإنسان يتأسس على جسد حيواني لم يكن صالحاً للدور الجديد. وأن الأرض والسماء المحيطة بها ظهورجديد لمادة فيزيائية تشكلت ملائمة للدور الإنساني. وبهذه الدلالة لكلمة الخلق تزول حالة التصادم بين فهم سيناريو الخلق في نصوص الدين التوحيدي، وبين فهم سيناريو الوجود كما يرسمه العلم. ويصبح، من الممكن جمعهما في سيناريو واحد، مقدمة لإزالة كل العقبات أمام عملية توحيد خطاب الإنسانية في مرحلتي المعرفة والعلم.

استقلالية الفرد. وهكذا أخذت عملية التوحد الاجتماعي تنشئ شبكتها في مستوى النظم (تواصل مضامين العقول الحية عند الأفراد)، مع الاحتفاظ بالحضور المادي للأجسام المستقلة. وسمحت كثرة التحديات الناتجة عن تنامي الانفتاح في العقل الحي الفردي، بظهور تعقيدات تركيبٍ في الأصوات الحاملة للحلول. وسيكون هذا كله هو قاعدة العلاقة بين البيولوجيا والثقافة لاحقاً.

أسئلة "علم اللسانيات" يمكن أن تجد المدخل لوضع أجوبتها عن كل فرع من فروع علمها من هذه التصورات، وذلك من خلال ما قدمته نظرية (الانفجار العظيم للنظام) من رؤية، سمحت بتحديد الخطوات التي تشكل بها الإنسان الفرد. وكيف تشكل سيناريو خلق الجسم الإنساني كنقطة انطلاق للتطور البرّاني- متجاوزاً سمات التطور الحيواني (الدارويني) الجواني، المرصودة في أدبيات علم التطور- من خلال خضوعه لعلاقة ضروريةٍ مع الخارج تشكلت صدىً لواقعة "التوحيد الكوني".

النتائج الواقعية التي ختمت المرحلة الأولى من التجربة الإنسانية، ظهرت مكثفة في المحاور التي عمل فيها التوحيد الكوني. لقد أكملت العملية التطورية المرتكزة على دور الخارج (الخَلق) إنتاج الجسم الإنساني الفرد بشكله الذي يمثله جسم كل منا الآن، وامتلك كل واحد بنية تسمح بالحركة منسجمة مع حضور الموقع الخارجي للنظام الحي. لقد اكتمل الانسجام بين موقعي النظام، وصار الفرد بسبب قيام بنيته على أداة التوجيه الثنائية (العقل الحي الفردي والوعي) يتلمس حضور النظام الحي، وأصبح هذا الحضور يشكل لديه أفقاً استراتيجياً، يسمح له بالحفاظ على وجوده أمام تحديات الخارج (المكشوف له) المهددة لوجوده الفردي. اكتملت ردود فعل العقل الحي الفردي على جذر تحديات الخارج، وصارت حلول التحديات (المضامين) أكبر من إمكانية العقل الحي للفرد

الواحد المحدود بمادته أن يخزنها في داخله، وأصبح الوعي مخزنها الجديد، وصار تلقيها من الخارج يتم بتدخل الحواس.

تنامي حضور الموقع الخارجي في علاقته الضرورية، مع الفرد المبني على أداة التوجيه الثنائية، جعل تركيب الكلمات من الأحرف عملية معقدة، وغير محتكرة من العقل الحي الفردي المفتوح الواحد. وهو ما أبرز دور التعلم من الآخر الناشئ من نمو الوعي التدريجي.

نشأت الأسماء في تطور اللغة بدايةً، نتيجة ذلك التنامي في التواصل بين الموقعين الداخلي والخارجي للنظام، وقد حمل كل فردٍ ذلك الناتج في داخله من خلال أداة التوجيه الثنائية. سهلت أسماء اللغة العملية المعقدة لتواصل الداخل مع الخارج، مما أنشأ لكل فرد وحدة الشخصية، وظهور خصائص الحركة الحية الموحّدة (السلوك)، المتكاملة بين الأفراد في مسيرة النشاط الإنساني. هذا الإنتاج كله شكل قاعدة إطلاق مرحلة تطورية جديدة، أخذت تتمركز آلياتها في حضوراتٍ خارج كل فرد في علاقات النظام الاجتماعي.

الفصل التاسع: التوحد حسب المعرفة (اللغة)

"اللغة هي السيرة الذاتية للعقل البشري" ماكس مولر*

عن بداية هذه المرحلة، امتلكت اللغة المكتملة أسماؤها قدرة الحديث عن الإنسان. فابتدأت مرحلة التوحد حسب المعرفة مستخدمة نتائج كل ما تحقق في مرحلة (التوحد حسب الجسد)، والتي هي: **1-الجسم الإنساني** مكتمل المظهر والبنية الداخلية، وهو الشكل المادي الواضح في وجوده. **2- الموقع الخارجي للنظام الحي** كحضور تنظيمي يتحدد في شموليته وعلاقته الضرورية مع الموقع الداخلي لكل فرد. **3- لغة الإنسان** هي كلمات مفردة صيغت مكوناتها (الحروف) بطريقة معقدة، وضح فيها دور الخارج كاملاً. **4- سلوك إنساني** جوهره حركة تحافظ على وجود الجسم، ويتنازع فيها مشكلاها (العقل الحي الفردي، الوعي) بشكل متوازن، عاكساً حضور واقعة التوحيد الكوني.

ما يميز عملية التوحد في مرحلتها الأولى، هو تشكلها في حيز البيولوجيا (الجسد) مما أبقاها خفية ومخبوءة، وجعل وجود الجسم الإنساني كما نعرفه الآن الدليل الوحيد عليها. إن إنجازات المرحلة السابقة المنشأة من واقعة التوحيد الكوني، هي أساسات مطمورة في البنية البيولوجية، وسيبني التوحد الاجتماعي بين الأفراد عليها إنشاءاته كلها. ستكون خصائص عملية الخلق التي تمت في المرحلة السابقة، هي النبع الذي سيمد عملية البناء في ظاهرة الاجتماع الإنساني بكل عناصر مسار التطور (السلوك واللغة). سيكون السلوك (الحركة الموحَّدة) كأداة إعمارٍ للخارج، ساحة توازن بين استحقاقات موقعي النظام منذ بداية هذه المرحلة. وستقوم اللغة بالتطور منتجة كلمات جديدة "الأفعال" المناسبة

---

* ماكس مولر (1823-1900): عالم انكليزي بفقه اللغة، ألماني المولد.

لخصائص هذا الطور من الإعمار. وستختفي في هذه المرحلة مظاهر انغلاق الموقع الداخلي، وقدرته في إنتاج حركة تنبع منه وله حصراً. ستصبح خطوات الإنسان محطات توازن دقيق بين موقعي النظام الحي، وستكون آلية معقدة لإنتاج كل ما شّيد في هذه المرحلة من الإعمار، الذي رُصد مضمونه في لغة الإنسان وبعض آثار عمل يديه (الرسومات الأولية، الأدوات البدائية.....).

استقر حضور كلمة "المعرفة" في التجربة الإنسانية في هذه المرحلة، بعد انتهاء تشييد الجسم، كاصطلاح مركزي يشير إلى حصة الفرد الإنساني في إطلاق عملية التطور البرّاني. لقد امتلك كل جسم إنساني أداة توجيه ثنائية، وصارت حركته الحية سلوكا موحّداً لقوى موقعي النظام الحي. رسَّخت خصائصُ التوحيد الكوني المطلق للتطور البرّاني خريطةً لذلك الخارج، يستطيع الجسم (الأداة المادية للإعمار) عن طريق حواسه المفتوحة على الخارج أن يتحرك حسبها. **لقد انتهى دور الغريزة المركزي في التعامل مع محيط الخارج للحفاظ على الوجود.** لقد أصبحت عاجزة عن أن تكون الأداة الوحيدة لتوجيه الحركة، وصار الحفاظ على الوجود عملية شاقة يظهر فيها ضغط الخارج بقوة، مما يشكل داخل الفرد مشقة ومعاناةً وقلقاً، وهذا ما جعل اللغة تنتج لاحقاً مصطلح "الخلاص" توقاً منها لانتهاء ضغط الخارج على الداخل، فانطبق هذا المصطلح بشكل مركزي على يسوع المسيح (المخلّص).

إن قدرة كل جسم على امتلاك ضوئه الفردي شكّل قاعدة شخصيته، وسيكون كل فرد بهذا الضوء قادراً على التحرك في دروب الخارج لتحقيق الحفاظ على وجوده. وستطلق اللغة على هذه القدرة الفردية مصطلح (المعرفة)، إشارة إلى مساهمة كل فرد في عملية التطور البراني، ناتج عملية التوحيد الكوني، كمصدر لكل ما ميز أفراد هذا

الجنس، ومنح حركتهم الحية إنسانيتها، وأعطاها قدرة دفع التطور البراني لتعزيز قاعدة التوحد خارج الجسم الإنساني.

شغلت هذه المرحلة من الاجتماع الإنساني فترة أقصر من الفترة السابقة. تحديد بدايتها يمكن أن يتم بالبحث العلمي الجادّ لضبط ظهور الجينات الوراثية المسؤولة عن اللغة، ويمكن تتبع محطات تطور المرحلة بدراسة الخطاب اللغوي الشفهي والكتابي، وخصائص صياغته، وتطور مدلولاته كما عكستها اللغات المختلفة، الذي يمثّل متراكَم هذه المرحلة من التجربة الإنسانية بكامل مكوناتها المخزونة في لغاتها. وهو يدور حول تفاعلات هذه المرحلة خارج الجسم الإنساني، لأنه يعتمد اللغة أداة لإظهار آثار انطلاق عملية التوحد. علم اللغة المقارن يجدُّ الآن في جمع مادة بحثه من كل مكان. يسعى علماء الانثربولوجيا إلى ضبط لغات بسيطة التركيب تستخدمها جماعات مغرقة في قدمها. المادة التي يجب دراستها ضخمة جداً، ويحتاج منهج دراستها إلى زوال الخفاء عن كيفية نشوء اللغة عند الإنسان، وهذا ما تسعى نظرية (الانفجار العظيم للنظام) لإضاءته، كقاعدة نظرية لهذه الإسهامات العملية التي يبذلها علم اللسانيات. لقد اكتملت قدرة البنية البيولوجية على إطلاق آثار تفاعلاتها الداخلية خارجاً، وأخذت تراكمها في هذه المرحلة في اللغات الإنسانية من ناحية، وفي بعض آثار عمل يد الإنسان من ناحية أخرى. لقد ظهرت في هذه المرحلة ملامح خط التطور البراني.

شكلت اللغة محل تراكم معظم نتائج التطور البراني في هذه المرحلة، بعد أن كانت البيولوجيا خزان التراكم في المرحلة السابقة. وكما أن البنية البيولوجية بمخزوناتها المتشكلة في سياق التطور الجواني كانت محدد حركة أفراد كل جنس حي، فإن اللغة كخزانٍ لمتراكم التطور البراني كانت المحدد المركزي لسلوك الإنسان في الجماعات المختلفة. فأدبيات

اللغة تحوي مرتكزات السلوك الإنساني المشفَّرة في قواعد اللغة الضابطة لمفرداتها، وفي منطق اللغة الظاهر في التوافق النسبي لنصوصها مع وقائع الخارج بكامل جزئياته الملتقطة بالحواس. وكانت مرتكزات السلوك المحملة في اللغة تنتقل عبر الأجيال من خلال انتقال اللغة بالتعلم (من الخارج)، مما شكل لها خطاً تطوريا متماسكاً.

حملت اللغات خلال تطورها إشارات عديدة لمشكِّلاتها، والتي تتحدد بالعقل الحي الفردي المقيم للجسم السادي للإنسان، والنظام الحي في موقعه الخارجي الذي لا يلتقط بالحواس. وهكذا حملت اللغات الإنسانية كلها هذه الخصائص، ورسم خط تطورها إكمال دورها في تشكيل علاقة الإنسان بالإنسان. ثم اختصت مرحلة تطورية معينة ظهرت في اللغات السامية، بالكشف عن علاقة الإنسان – كل إنسان – بالنظام الحي في موقعه الخارجي، حيث أطلقت هذه اللغات على هذا الموقع أسماء (الرب، يهوه، إله، الله)، فاستوفى تطور اللغات الإنسانية مهامه، في تشكيل السلوك الإنساني منشئ التطور الاجتماعي، من خلال ضبط سلوك الإنسان في علاقته مع الآخر، ومن خلال علاقته مع النظام الحي في موقعه الخارجي أيضاً. وظهر الدين التوحيدي الذي شكل في زمن العصور الوسطى العالمين المسيحي والإسلامي، مقدمة ضرورية لتشكيل المرحلة الثالثة من التطور الإنساني "التوحد حسب العمل".

هذا ما يعطي خط اللغات السامية مكانته المركزية في التطور الاجتماعي للإنسان، مقابل اللغات الأخرى التي استجاب تطورها لمفردات الخارج الموضوعي الملتقطة بالحواس، مغلبةً دور الوعي في إنتاجاتها بدلاً من القلب (العقل الحي الفردي)، كاللغة اليونانية.

أحكام مركزة احتوتها الفقرات السابقة لم تعرض أمثلة وشواهد لها. ويرجع سبب ذلك إلى أن الشواهد هي عمل الاختصاصيين، وعرضها كما هي موجودة عند العلماء سيكون أمراً لا يشترط إمتلاك القارئ له كخبرة شخصية. سأقدم لك عزيزي القارئ شاهداً مركباً يشكل تمثيلاً لغالبية ما تقدم من أحكام في الفقرات السابقة.

إلياذة هوميروس كنص لغوي من أرشيف الإنسانية العام باللغة اليونانية هي واحد من مصادرنا. تروي الإلياذة إشارة إلى الملك أوديب، الذي حدثنا عنه لاحقاً سوفوكليس، مفصلاً في علاقته بوالده ووالدته. وقد اعتدنا أن نقرأ النص على انه أثر أدبي يصوّر مأساة إنسانية فردية. ويحاول دارسو الأدب ونقاده أن يقدموا لنا مضامينها المختلفة، ولا تزيد حصيلة هذا الاتجاه عن تحليل عناصر المأساة كحادثة فردية، وإبراز الناحية العاطفية فيها، وكشف ملامح صورة من مأساة الإنسان الوجودية.

قصة ثانية ترويها التوراة باللغة العبرية في سفر التكوين. قرّاؤها ينظرون في معانيها الإيمانية، ويحصّلون من خلال قراءتها نشوة روحية. إنها قصة النبي "إبراهيم" وزوجته "سارة"، وكيف منحهما الرب ابنهما إسحاق. إن قراءة القصتين دون أن تكون نظرية (الانفجار العظيم للنظام) خلفية لهما، لم تسمح أن يُستخرج من القصتين أكثر من متعة حزينة ترافق قارئ الأدب اليوناني، ونشوة روحية ترافق قارئ الأدب العبري.

سنضع القصتين في سياق منظورنا الذي شكلناه حسب نظرية "الانفجار العظيم للنظام"، وستكون كامل أحداث التاريخ الإنساني الواقعي السابقة للقصتين مقروؤة بالنظرية كخلفية لهما. يتشكل من قراءتنا هذه- إضافة لكل ما يتركه النصان من أثر خفي وغامض في نفوسنا- النقاط الدلالية التالية: يعالج النصان أزمة وجودية تتعلق بالعلاقة الإنسانية

المتولدة بين المرأة والرجل والولد، وهما يدلان بشكل واضح رغم اختلافهما في تناولهما للموضوع على وجود هذه الأزمة.

ترسم قصة أوديب في الأدب اليوناني معالم تجربة جرت في بلاد اليونان، وعبّرت عنها اللغة اليونانية بخصائصها. شخوص التجربة هم: الملك "لايوس"، وزوجته "جوكستا"، وولدهما "أوديب"، وهم يتحركون في تجربتهم حسب حلم فسّره عراف دلفي. تفاعلت عناصر التجربة في دروب الأزمة، وكانت النتيجة من نشاطهم سلبية مخفقة، تبدت في مقتل لايوس الوالد على يد ولده أوديب، وانعكس إخفاق التجربة على الوالدة جوكستا بأن شنقت نفسها، وقام الولد أوديب بفقئ عينيه وانطلق في دروب الحياة هائماً على غير هدى.

يرسم نص التوراة معالم تجربة جرت في منطقة شرق المتوسط، وعبّرت عنها اللغة العبرية بخصائصها. شخوص التجربة هم: النبي "إبراهيم"، وزوجته "ساره"، وولدهما "إسحاق". وهم يتحركون في إطار تجربتهم حسب أوامر واضحة من الله الحي. تفاعلت شخصيات التجربة مولدة أحداثها نتيجة إيجابية ناجحة. وقد تبدت صفات إيجابيتها ونجاحها في استمرار نسل الوالدين، ونجاة الشخصيات كلها من النهاية المأساوية التي حلت بشخوص التجربة الأخرى. فمن خلال توجيهات الله الحي الواضحة والمتتالية، نجا الوالدان من الموت الشنيع الذي انتهت إليه شخصيتا "لايوس" و"جوكستا"، وهذا ما أشار إليه النص حين عرض موت ساره ميتةً طبيعية وهي محتفىً بها من زوجها إبراهيم ومن ابنها إسحاق، ونجاح إسحاق بعد وفاة أمه في الزواج من "رفقة" ومنحها حبه. وقيام الأب إبراهيم بالزواج من زوجة أخرى "قطوره" أنجبت له ستة أبناء، بعد انكسار مخاطر القتل له في رابطة انحصار حب الولد بأمه، من خلال زواج ابنه إسحاق برفقة، وحبه لها في خباء أمه ساره.

لقد كشفت القصتان في سياق هذا المنظور عن مستوى جديد من المضامين لا يقدمه مستوى قراءة النصين تقليدياً. فقد أخذت ملامح محطة في تاريخ الجنس الإنساني تتضح لنا، وترسم معلماً بارزاً من معالم التطور الاجتماعي. وينكشف من خلال تحليل النصين حسب هذه الخلفية، كيف تمّ حلّ أزمةٍ وجوديةٍ بشكل إيجابي من خلال خصائص اللغة العبرية؟ وكيف عجزت اللغة اليونانية بخصائصها عن تقديم الحل؟ وكيف أصبحت اللغة العبرية حاوية لتطور نشاط الإنسان المستفيد من هذا الحل (بني إسرائيل)؟ وهذا ما يجعلنا نفهم سبب هذه القدسية للغة العبرية في كتابها "التوراة" وكيف استطاع خط هذه التجربة الإبراهيمية مجسداً بالمسيحيين الذين جاؤوا في سياقها، أن يسود تاريخياً، محتوياً أصحاب اللغة اليونانية ضمنه؟

عزيزي القارئ ربما فاجأك هذا الكنز الذي كانت اللغة تنتجه وتطمره في تعبيرها عن التجربة الإنسانية المتشكلة من النشاط اليومي للإنسان، وأن اللغة الإنسانية تشكل الأرشيف الذي يضم هذه الثروة كلها. وستجد أن أرشيف التجربة الإنسانية ليس كلمات صيغت على قد حاجات الإنسان المادية، بل هي حضور لمسار نظري، يكشف عن العتلة التي تم من خلالها رفع خط التطور الجواني، لينطلق عليه خط التطور البراني.

اختزنت مرحلة "التوحد حسب المعرفة" نتائجها في نضوج اللغة خلال ظهورها الشفهي والكتابي، أي أن عملية التوحد حسب المعرفة صارت تتم خارجاً (في تطور اللغة والاجتماع). لقد تأسس ظهور هذه الثمار من خلال استيفاء حركة جسم الإنسان عناصرها عن طريق ضبط حركة (اليد والعين) بالكتابة، بعد أن أنهت ضبط اللغة الشفهية (اللسان والأذن) قبلها. أحداث كثيرة يمكن أن تكشف ذلك عندما توضع إلى جانب بعضها في سياق منظور منسجم، يتبدى من خلاله أن نشوء الكتابة كان

ذروةً لنضج اللغة الشفهية. في عملية الكتابة زاد مستوى ضبط العين واليد، وربطهما- كعضوين في جسم الإنسان- بشكل نهائي بعملية البناء خارجاً. تطور الكتابة أدخل العين في عملية تفاعل مع اللغة، فأغنت الموقع الداخلي بنمط جديد من مدخلات الخارج، تمتلك مستوى من السعة والدقة أكبر من خصائص اللغة الشفهية. أشار هذا النضج في اللغة إلى تركيز تأثير الموقع الخارجي على الموقع الداخلي بشكل واضح. وتكشف لنا نصوص أرشيف الإنسانية ذلك بدقة تامة.

أصبحت مجتمعات منطقة حوض المتوسط شرقاً وشمالاً وجنوباً ساحةً لظهور هذا المستوى الجديد في خط التطور. بين الفراعنة والسومريين ظهرت بدايات الكتابة كما ترصدها الدراسات الأثرية. وعلى الساحل السوري جرى تطوير الأبجدية المعروفة في "أوغاريت"* متفاعلة مع تجربة المنطقة المعرفية. وقامت المدن الفينيقية بنقل هذا الجديد في اللغة (الكتابة) إلى مدن اليونان المفصولة عن ظروف تجربة منطقة شرق المتوسط، مما دفع إلى ظهور الجديد في تطور الإنسانية على شاطئ المتوسط (الشرقي والشمالي) في نهاية الألف الثانية ومطلع الألف الأولى قبل الميلاد تقريباً.

رافق نضوج اللغة الشفهية وظهور الكتابة تنامي للعلاقة بين موقعي النظام الحي (الخارجي والداخلي)، مما أحدث تفرعاً في تأثر كل من العقل الحي الفردي والوعي بضبط وتوجيه الموقع الخارجي للنظام، مما أدى لانتاج كل من الدين التوحيدي (على الساحل الشرقي للمتوسط) والفلسفة

* أوغاريت: مدينة أثرية على الساحل السوري تعود لـ 7500 سنة ق.م. تعد الأبجدية المكتشفة فيها من أكمل أبجديات العالم القديم وأغناها وأكثرها شمولاً، تحتوي على 30 حرفا مسمارياً، يرمز كل منها لحرف ساكن واحد وليس لمقطع أو كلمة.

اليونانية (على الساحل الشمالي) كمحاور في مسيرة تطور التوحد الاجتماعي

أنتج في منطقة شرق المتوسط محور الدين التوحيدي الذي أعلن حضور "الله الحي" في علاقة التوحد*. لقد كان هذا المحور وريث تراكم كامل التطور البراني منذ انطلاق الانفجار العظيم للنظام وحتى تلك المرحلة، وقد شكل القاعدة لإيصال مرحلة التوحد حسب المعرفة إلى نهايتها الواقعية، كما تمثلت في حلقات الدين التوحيدي الثلاث. وحول خصائصه ورؤيته للوجود دارت غالبية أدبيات الأرشيف الإنساني للمرحلة. لقد قصَر هذا المحور همّه في إبراز العلاقة التوحيدية بين النظام في موقعه الخارجي وبين العقل الحي الفردي كمشكل مركزي للموقع الداخلي للنظام، وأوصلها إلى ذروتها بعرض حضور "الله الحي"، وأنتج هذا التيار عُنصريه المركزيين (الإيمان بالله الحي والالتزام بشريعته). اتسم الإيمان باستيعابٍ تامٍ لعلاقة قلب الإنسان الفرد بالله الحي، وظهرت الشريعة ضبطاً دقيقاً لسلوك الإنسان الفرد معزوة إلى الله الحي، حاوية كل حركة أطلقها جسمه خلال فترة تطوره، وآليات تشكلها، لكي يكون هذا الضبط الظاهر مناسباً للإيمان.

على ضفاف شمال المتوسط وفي جنوب شرق أوروبا (بلاد اليونان) تشكل محور تطور معرفي آخر، بامتلاك الكتابة مقطوعة عن تجربة شرق المتوسط، مما جهز اليونانيين لإطلاق بداية ظهور دور الوعي في أداة التوجيه الثنائية، كقاعدة لفرع جديد في تطور المعرفة. إن هذه العلاقة التوحيدية- التي كان الوعي أساسها- قطعت بين التجربة اليونانية، وبين خط التطور الديني السائر إلى كماله في شرق المتوسط. مخزون التجربة اليونانية من خط التطور الديني الموروث بقي مقصوراً على متراكم ناتج

---

* هذا ما تبينه قراءة سفر التكوين في التورات وآيات الخلق في القرآن.

الخرافة والأسطورة، واهتمت التجربة اليونانية بإنتاج وتطوير المعرفة على أساس دور الوعي، ولم تخض في تشكيل الخط الأول، الذي طوّر التوحيد في محور الدين التوحيدي في شرق المتوسط. أطلقت العملية التوحيدية في اللغة اليونانية العلاقة مع الطبيعة، منتجةً في الألف الأول قبل الميلاد مادة العلم اليوناني، ورؤيته الفلسفية ظاهرة في أسئلتها، المقطوعة عن يقين الدين التوحيدي. دلّ اكتشاف أرسطو للمنطق على طبيعة الحال التطورية للّغة اليونانية، ودورها المختلف عن دور اللغة العبرية، وكشفت هذه البنية اللغوية عن دور اليونان في عملية التوحد في الاجتماع الإنساني الكلي. لقد كان الإرث اليوناني محصوراً بشكل كامل في دائرة إنتاج آثار الوعي الإنساني، كانعكاس لعملية التوحيد النظمي. وقد تخلى علماء اليونان وفلاسفتهم- خلال انهماكهم في إنتاج خطِّهم في تطوير التوحد- عن هموم شرق المتوسط في إنتاج الدين التوحيدي. لقد أوصل بروز دور الوعي العملية التوحدية إلى ذروتها، وأظهر اكتمال المعرفة الإنسانية كمشاركة من الإنسان الفرد في عملية التطور البراني. و لكنه لم يكن من الممكن لهذا الخط (الفلسفة اليونانية) أن يشكل الواقع، قبل أن ينهي العقل الحي الفردي إكمال دوره المركزي في عملية التوحد الاجتماعي، كما ظهر في التجربة التاريخية اليهودية والمسيحية والإسلامية. وهذا ما أثبته الواقع التاريخي في ظاهرتي العالم المسيحي والعالم الإسلامي في العصور الوسطى.

أظهرت قرون ألفية الميلاد الأولى في شرق المتوسط إكمال خط تطور الدين التوحيدي في حلقتيه المسيحية والإسلامية، بعد أن أرست حلقته اليهودية القواعد لهما. توقفت الفلسفة اليونانية عند محاورها الثلاثة: منطق أرسطو، علوم اليونان، أسئلة الميتافيزيق. وكشف الدور الروماني- وريث اليونان- عن عدم وجود منبع في التطور الاجتماعي لتغذية خط الفرع اليوناني. ثم حَسمت عملية التوحد الاجتماعي العلاقة بين المحورين،

بتسويد محور الدين التوحيدي عن طريق اعتناق قسطنطين الأكبر (الروماني) للمسيحية، وتحول المسيحية إلى الدين الرسمي لإمبراطوريته. فشمل شعار **الله الحي**- الناتج المركزي لتطور عملية التوحيد- أوروبا محتوياً إنتاج اليونان. ثم ظهر الإسلام بخصائصه، ليمد شعار **الله الحي** في آسيا وإفريقيا. وتكشف هذه القراءة الشمولية بخطوطها العريضة جداً كيف جمعت عملية التوحد الاجتماعي- منعكس التوحيد الكوني- بين محوري التوحيد في نموذجيه "الدين التوحيدي" و"الفلسفة اليونانية"، مقدمة لتوسيع دائرة التوحيد الكوني في العصور الحديثة.

توضّحت صورة الجنس الإنساني في الألف الأولى بعد الميلاد بشكل دقيق. فقد اكتمل تطور التوحيد بين الموقع الخارجي للنظام الحي والعقل الحي الفردي المفتوح (القلب). ساد شعار (الله الحي) في العالمين المسيحي والإسلامي ممتداً من المحيط الأطلسي غرباً إلى المحيط الهادي شرقا، وضم في عداده غالبية تجمعات الجنس الإنساني. أعلن الدين التوحيدي في نصوصه عن ضرورة وجودية لانبثاق العالم الآخر مستقبلاً، ليتم تنامي هذا الخط التطوري وتتابعه. وبذلك وضحت طبيعة اختتام عملية البناء التوحيدية المرتكزة على قلب الإنسان في علاقته مع الله الحي. واستوفى سلوك الإنسان المرتكز إلى هذه العلاقة كل أنماطه كحركة موحّدة واقعياً. لم تكن إنشاءات المحور التوحيدي الثاني (الوعي) من مهام الخط الأول، لأنها لا تتغذى من نموه. فمهام الخط الثاني (الفلسفة) كانت التأسيس لنشوء العلم في العصور الحديثة لاحقاً، بناءاً على انطلاق دور الوعي بعد اكتمال دور القلب. كانت ذروة إنتاج الدين التوحيدي في العالمين المسيحي والإسلامي نشر نموذج الإنسان الفرد الكامل، الذي مثله يسوع المسيح في تجربته. لقد أظهر الدين التوحيدي هدفه التطوري في نصوصه، وبقي ينتظر انتهاء عالمه (عالم الدنيا)، الناتج من التجربة التاريخية لأتباعه، ليتولد عالم آخر جديد، يتأسس على نجاح الدين التوحيدي في نشر نموذج

الإنسان الفرد الكامل، ولينطلق في قيادة بناء التطور الإنساني، الذي سيحمله لاحقاً خط الفلسفة والعلم الحديث.

أريد أن أذكرك بالعبارة التي قالها "النِفّري" في مواقفه، والتي افتتحت بها حديثي عن نظرية الانفجار العظيم للنظام "كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة"، أنني أريد أن اتخذها عذراً لكل ما لاقيته عزيزي القارئ من مشقة وصعوبة، في متابعة الصورة التي أشرت إلى ملامحها العامة بالخطوط العريضة. وأنا متأكد أنك ستعذرني لهذا التكثيف، لأن هدف الكتاب هو تقديم الخطوط العريضة لصورة للوجود الإنساني ودوره التطوري، منسجمة مع ما يقدمه العلم الآن عن صورة الكون وتطوره بمادتيه الجامدة والحية.

استطاع محور الحركة الذي اعتمدته النظرية كمدخل لها لدراسة الإنسان، أن يقدم إحاطة بكل متولدات هذا البناء الإنساني، الذي أشاده هذه الجنس الحي خلال تاريخه الواقعي حتى مطلع العصور الحديثة. لقد ثبت أن التوحد قد حكم كل حوادث هذا التاريخ بلا استثناء. ضمَّ هذا التاريخ محاولة ناجحة لتحكم إيمان وشريعة الله الحي بسلوك الإنسان كقواعد ضبط حي من خارجه، بعد أن صار الكشف هو السمة الظاهرة لكل فرد من أفراد الجنس الإنساني. وقد عجزت محاولات التقييم والتفسير المتعددة عن تعليل مسار التجربة الإنسانية، حيث امتلأ أرشيفها بالحديث عن النور والهداية وبصيرة القلب، مؤكدة أن هذه الصفات هي المظهر الأساسي لتميز الجنس الإنساني عن الحيوان.

لعلك تذكر أن قصة النبي إبراهيم قد أشارت إلى نجاحٍ في حل إشكالية قلة النسل الإنساني، من خلال التزامه بوعد الله الحي له*. وإذا تابعت قراءة النص في التوراة ستجد ظهور كلمة "أسرة"، حين تم تحويل اسم النبي "يعقوب"(حفيد إبراهيم) إلى اسم إسرائيل. لقد تطورت بذور الحل التي ظهرت في تجربة إبراهيم وسارة، وأنتجت عند يعقوب وجود إطار تنظيمي هو أسرة الله (إسرائيل). لقد ولّد الدين التوحيدي- محور تطور التوحيد بين العقل الحي الفردي (القلب)، وبين الموقع الخارجي للنظام الحي (الرب الإله)- الحل الناجح لأزمة الإنسانية المحصورة في عنق الزجاجة بسبب قلة المواليد في تلك الحقبة. الأسرة كإطار تنظيمي أوسع من الفرد (خارجي)، ضبطت جذر الاجتماع الإنساني، كمتشكل موضوعي لعملية التوحيد الكوني المنتجة للسلوك الإنساني، وشكلت قاعدة تطور الأطر التنظيمية الخارجية لاحقاً.

لننظر بدقة في دلالة مصطلح "الأسرة"† كنظام ضابط لعلاقة المرأة والرجل والأولاد، سنجد أن الحصر والتقييد هو ما يشير إليه في اللغة العبرية. لم يعد هذا الإطار التنظيمي الخارجي يسمح ببقاء العلاقة بين

* لا يمكن للكتاب أن يقف أمام كل جزئية ساهمت في تكوين مسار التجربة الإنسانية بأعدادها التي لا تحد، لأن هذه مهمة خارجة عن هدفه. ولكن لابد أن يشار هنا إلى أن الوعد الإبراهيمي الذي وعده الله لإبراهيم، إنما يقرأ بانسجام في ضوء تلك النتيجة التي عرضت بإيجاز، حين تمت المقارنة قبل صفحات بين قصة أوديب وبين قصة إبراهيم. إن الوعد الإبراهيمي قد شكل نقطة الانعطاف الهائلة في تاريخ الإنسان حين أنتج "الأسرة" كرباط آسر ومقيّد لدوافع عدة أفراد ينضوون تحته. وهو ما أوجد لأول مرة كونياً إطاراً تنظيمياً يعمل خارج المادة الحية. وسيشكل إطار الأسرة القاعدة التي ستتطور عليها أنظمة حكم الأنسان حتى نهاية العصور الوسطى، والتي شكلت تفاعلاتها إنتاج إطار الدولة في العصور الحديثة، التي ستجمع الإنسان كمادة حية مع الطبيعة كوطن في إطار حي يربطهما خارجاً.

† لابد لي هنا أن أوضح لك نقطة هامة، وهي الفارق بين مصطلح الزواج ومصطلح الأسرة. علاقة الزواج أساساً هي ناتج الانجذاب بين المراة والرجل "الحب"، التي كانت محكومة بدوافع الداخل البيولوجية (الجنسية)، فكان الزواج قبل ظهور الديانات التوحيدية يدوم بدوام الحب ويزول بزواله. أما الأسرة فهي علاقة الزواج بعد أن تم ضبطها بقواعد خارجية (مفصولة عن دوافع الداخل)، شكلت إطاراً تظيمياً خارجياً لها، جعلها تتمحور حول هدف إنجاب الأولاد وتربيتهم، منحياً مركزية الحب فيها، كما كانت عليه قبل تشكل هذا الإطار.

الرجل والمرأة متأثرة بآليات الانجذاب الحيواني بين الأنثى والذكر. دعنا نقارن بين الأديان الجنسية وبين الأسرة التي قدمها النص التوراتي، سنلحظ بوضوح أن انجذاب المرأة والرجل في توجيه الأديان الجنسية كان يهدف إلى تحقيق اللذة الجسمية تحت اسم "الحب". بينما سيتركز الانجذاب داخل إطار الأسرة ليكون مدخلاً لإكثار النسل. فإذا قرأت معي أدبيات اليهودية والمسيحية والإسلام وفق منظور كتابنا، ستجد تهميشاً للّذة الجسدية في إطار الأسرة، وتركيزاً كامل الوضوح على أن الهدف من علاقة الوالدين هو الإنجاب.

ستؤَسِّسُ "الأسرة" بخصائص الحصر والتقييد والأسر قاعدة تطويرٍ لأنظمة الحكم في المجتمعات الناشئة من تصورات الدين التوحيدي، في آلاف السنوات حتى نهاية العصور الوسطى. دعنا لا ننجر لتلك الاتهامات التي تصور أن هذا كان انحرافاً في علاقات الإنسان. إذا فعلنا ذلك ستتشوش رؤيتنا، وسنفقد القدرة على متابعة محور التوحد الاجتماعي، واكتشافنا لمحركات محطاته التنظيمية ذات الخصائص المناسبة لمستوى التطور في كل مرحلة. الأطر التنظيمية في تلك المرحلة في كل ظهوراتها (العمل - الحكم) انبنت على قاعدة التنظيم من الخارج (سلطة خارجية في المجتمع ترجع إلى الله الحي). وبذلك وجد لأول مرة كونياً نظام يضبط الحركة من الخارج بديلاً عن الداخل.

وإذا ما تذكرنا معا حديث الفيزيائيين والبيولوجيين عن طبيعة الوجود (الجامد والحي)، ذي البنية المضبوطة بعمل النظام داخلاً، أدركنا مدى النجاح الكوني الذي تحقق حين تم ظهور الأسرة في حلقة النبي إبراهيم، وتطويرها في حلقة حفيده النبي يعقوب (إسرائيل). تستطيع الآن- قارئي العزيز- أن تتعرف سبب هذه الحفاوة التاريخية بإسرائيل وبنيه في مرحلة (التوحد حسب المعرفة)، وستجد أن بعض ذيولها ما زالت حاضرة حتى

تاريخنا الحاضر في مرحلة (التوحد حسب العمل). وذلك لأنها المرة الأولى كونياً التي يتحقق فيها ظهور إطار تنظيمي كامل، يقوم بضبط وتوجيه بنى مادية حية من خارجها، ويحقق هذا النظام نجاحاً عملياً من خلال تلاؤمه مع البنى المتحركة داخله، مما يحقق تقدماً واقعياً بالخروج من عنق زجاجة أزمة قلة المواليد في الجنس الإنساني، التي كانت تهدد بانقراض الجنس الإنساني وتجربته.

كان محور الكشف الإنساني محطَّ اهتمام أدبيات شعوبٍ وجماعاتٍ كثيرة. ورافقه في حيازة الاهتمام محور التنظيم الحي من الخارج، الذي شكل إطارُ الأسرة قاعدته، وتم انتشاره في غالبية المجتمعات الإنسانية، واضعاً قواعد ظاهرية تضبط كل أشكال التجمعات عملاً وحكماً. سيبقى محور التغذية في هذه المرحلة (التوحد حسب المعرفة) خفياً، وهو ثالث محاور النشاط الإنساني (مع الكشف والتنظيم).

أكدت أدبيات الدين التوحيدي في حلقاته الثلاث أن هدف نشاط الإنسان هو إعمار الكون. وقد بقيت هذه الإشارات بدون شواهد مقنعة في تاريخ الجنس الإنساني حينذاك، لأن نشاط الإنسان كان ما يزال يهتم بالجسم وبالحفاظ عليه. سينتظر ظهور النتائج الباهرة لهذا المحور ابتداء المرحلة الثالثة من التجربة الإنسانية، حين أخذ التوحد يتم حسب قيم العمل، ولم يعد يتم حسب قيم المعرفة. وسنجد شواهد تكاد لا تحصى في العصور الحديثة على حدوث حالة التغذية من النشاط الإنساني. لندع عزيزي القارئ هذا إلى حينه ولنقم باختتام مرحلة (التوحد حسب المعرفة).

أكملت مرحلة التوحد حسب المعرفة مهامها كاملة. واكتملت اللغة الإنسانية من خلال ظهور خطاب مُظْهر لعلاقة الإنسان بالرب الإله من ناحية، إضافةً إلى كونها أداة تواصل بين الناس بعضهم مع بعض من

ناحية أخرى. أنّى التفتّ في العصور الوسطى ستجد لغة الإنسان هي مجال التطور، وفي سبيل رفع بنيانها واستكمال استحقاق استخدامها يتم تنافس المتنافسين. معرفة الإنسان المصاغة باللغة ستبلغ ذروتها في أدبيات العصور الوسطى، وستصبح اللغة محطّ الاهتمام، وستكون مضمار التسابق بين الشعوب والأمم.

استقرت أطر التنظيم الحية الخارجية المصاغة بنص لغوي في حدود حضور الإنسان كائناً متميزاً في الأرض، وكانت سمات كل آليات التنظيم قائمة على الضبط والتقييد من الخارج لاندفاعة الداخل. سيقفز مصطلح "الكبت" الذي وضعه عالم النفس "سيغموند فرويد"* في مطلع القرن العشرين إلى الحضور في خيالنا، لتوصيف العلاقة بين الإطار التنظيمي الخارجي وبين سلوك الإنسان الفرد، وسنجد، بعد التدقيق، أن هذا الاستحضار للمصطلح ليس دقيقاً، ولا ينطبق على الواقعة أبداً. بل إن العملية التي حصلت، كانت مختلفة عمّا شرحه فرويد في حديثه عن ظاهرة الكبت. لقد قامت قيود آسرة مصدرها الموقع الخارجي للنظام الحي في سياق التطورالاجتماعي (منعكس التطور الكوني البراني)، وليس من خلال حدوث انتكاسة وخلل في التعامل مع دوافع الإنسان خلال تطوره الاجتماعي. لقد تطورت بآليات هذا الأسْرِ علاقة المرأة والرجل والأولاد، وامتدت إلى كل علاقة يتوحد فيها إنسان مع آخر بإطار خارجي، مهما بلغت أعداد المنضوين داخله. الأسرة وما تولّد عنها من أنظمة حكم آسرة ومقيدة، كانت مصدر كامل النشاط الإنساني حتى نهاية العصور الوسطى، الذي تولد من ناتجه الإيجابي "العصور الحديثة". إن موقف فرويد من هذا الضبط والتقييد لدوافع الإنسان (الكبت)، الذي مارسته الأطر التنظيمية الخارجية، مشابه لموقفنا من البراكين التي نعتبرها الآن، من خلال

---

* سيغموند فرويد (1856 – 1939): طبيب أعصاب نمساوي، يعتبر مؤسس التحليل النفسي.

استخدامنا لحسنا المشترك، أداة تدمير وقتل، بينما كانت- كما يخبرنا العلم- في المراحل الأولى لتشكل الأرض ضرورة لازمة لبناء الكوكب، بالشكل الذي سمح بتشكل الحياة فيه.

هكذا تستطيع أن ترى أن مظاهر التوحيد الكوني أخذت تظهر خلال عملها في متجسدات المادة الحية، من خلال أطر التوحد الاجتماعي في تلك المرحلة. أرجو ألا تصيبك الحيرة حين تبحث حواليك عن هذه المظاهر، لأنك حيث وجدت شعار (الله الحي) مقابل كل الدعوات الوثنية والجنسية في أي مجال كان، فأنت أمام حديث عن المرجعية الحية الشاملة للنظام الإنساني خارجاً. وكيف يجب أن تخضع له كل حركة من حركات الإنسان حينذاك في كل مستويات التوحد الاجتماعي. إذا أطللت على تاريخ الإنسانية بهذا المنظار، ستجد في ألفيات التاريخ قبل العصور الحديثة شواهد لا تنتهي تؤكد ما حدثتك عنه.

الفصل العاشر: التوحد حسب العمل (التكنولوجيا)

"كتاب الطبيعة مكتوب بلغة الرياضيات" غاليليو

أصبحت حدود المرحلة الثالثة من التوحد الاجتماعي مضبوطة زمنياً. فهي قد بدأت منذ القرن السادس عشر، وما زالت مستمرة حتى الآن عام 2009. وتحديد بدايتها يرينا أن زمن مرحلة (التوحد حسب المعرفة) السابقة، كان صغيراً نسبياً قياساً إلى زمن المرحلة الأولى (التوحد حسب الجسد (الحلقة المفقودة))، فهي لم تزد على عشرات آلاف السنين على أبعد احتمال. استمرت التجربة الإنسانية في القرون الخمسة الأخيرة المشكلة للعصور الحديثة، بالتطور على أصولها التي انطلقت بها، منذ أن بدأ تشكيل جسم الإنسان إثر "الانفجار العظيم للنظام". وهكذا استمرت أجسام الأفراد تشكل ينابيع صغيرة تغذي من خلال حركتها الفردية نمو حضور الموقع الخارجي للنظام الحي، أساس إطلاق عملية التوحيد الكوني، وجوهر عملية التطور البرّاني في الكون كله.

شيدت المرحلة الأولى من التوحد جسم الإنسان كمادة حية، امتلك عناصر جديدة تسمح له أن يكون طرفاً مادياً في العلاقة التوحيدية، ليطلق حركة حية موحدة تنشأ من علاقة موقعي النظام. وقد تشكل الجسم الإنساني بنية حية مخصوصة بتأثيرات النظام من موقعه الخارجي، جعلته قادراً على أن يتواصل معه بشكل ضروري ولازم. كان انفتاح العقل الحي الفردي قاعدة هذا التواصل مع الخارج. وقد أنتج علاقات توحُدية بين أفراد الجنس الجديد، شكّلت في تلك المرحلة البنية التحتية للاجتماع الإنساني حسب علاقات الجسد (علاقات القرابة).

انطلقت المرحلة الثانية من التوحد الاجتماعي مبنية على النتائج التي حققتها المرحلة الأولى. تشكل جسم إنسان مكتملاً في شكله الخارجي الذي

نحن عليه الآن. وكانت أداة إطلاق حركته من داخله ثنائية، تشكلت من عقل حي فردي مفتوح تقوم تفاعلاته الداخلية بتحضير الطاقة، وتحويلها إلى قوة تحريك للجسم على محاور الأمن والغذاء والتكاثر. ومن وعي زائد على العقل الحي في تركيب بيولوجي، ناتج من تأثير النظام من موقعه الخارجي. لقد شكل الوعي نافذة الانفتاح، وصار يُحقق من خلال حركة الجسم للحفاظ على وجوده، إنتاج ساحة تأثير للحركة الحية الموحدة خارجه، من خلال محاور الكشف والتنظيم والتغذية.

كان الجسم الإنساني في مرحلة التوحد حسب المعرفة هو الوجود المادي الوحيد الذي يمتلك قدرة إطلاق الحركة الحية الموحدة. وكانت الأجناس الحيوانية تعايشه، من خلال إطلاق كل حيوان حركة حية بسيطة من داخله يحافظ بها على وجوده فقط. وكانت الطبيعة خارجه محكومة بقوانين نظامها العامل فيها جوانياًّ، وهي ما زالت خارج قدرة الحركة الإنسانية على التأثير فيها.

أدّت آلاف سنوات مرحلة التوحد حسب المعرفة إلى تنامي التعامل مع خريطة الوجود، التي يمتلك كل فرد إنساني انعكاساً لها، من خلال كشافٍ محدودٍ على قدّه، يضيء له دروب سيره فيها، ويساعده على ضبط حركته حتى تتوافق مع خصائص دروب الخريطة خارجاً. وفي دروب هذا المسير، امتلكت الإنسانية- كنتاج لعملية التوحيد- تنظيماً زائداً على فردية أفرادها، يأسر علاقات الأفراد مع بعضهم. تمت صياغة تأثير النظام الحي الخارجي بنص لغوي يتعامل معه الوعي بخصائصه الظاهرية. وحققت العملية التنظيمية المنتجة للأطر التنظيمية الخارجية، حشد نشاط الأفراد لتغذية لحمة الاجتماع الإنساني، حتى يصل إلى مستوى التماسك المطلوب لتأدية استحقاقات المرحلة، ليتم الانتقال صعوداً في مسار التطور البرّاني.

لنترك معاً قارئي العزيز تسليمنا للأحكام القيمية التي أصدرها مفكرو وفلاسفة عصر التنوير على نمط العيش في العصور الوسطى، ولنطلَّ عليها من نقطةٍ شكَّلها هذا المنظور الجديد للتجربة الإنسانية. سنجد أن محوري الكشف والتنظيم العاملين فردياً، اللذين استوعبا عملية التوحد الاجتماعي، تجسيداً للتوحيد الكوني بين موقعي النظام الحي، قد وصلا إلى خاتمتها، وأكملا إطلاق وتفعيل مضامين العقل الحي الفردي في ساحة الخارج. كان مسار التوحيد الذي قام بذلك، معتمداً على الربط بين العقل الحي الفردي (القلب) وبين الموقع الخارجي، قد اكتمل إخضاع تفاعلات العقل الحي لضبط وتوجيه الموقع الخارجي، وحُددت قواعد ضبط وتوجيه حركة الحفاظ على الوجود في الوصايا والشريعة. وأعلنت الكتب التي حوت النصوص الدينية بوضوح تام أن مصدر هذا كله هو "الله الحي".

بلغة النظرية التي نصوغ خطابها، شكَّل إعلان شعار "الله الحي" مصدراً لإيمان الإنسان في قلبه، وقاعدة لصياغة سلوكه بنصوص الشريعة، وقد شكل الإيمان مع الشريعة إشارةً لكمال حضور النظام الحي خارجاً، وإعلاناً عن قدرته على أن يضبط ويوجّه الوجود الإنساني. لقد تحققت عبودية الإنسان الفرد لله الحي انسجاماً مع دلالة مصطلح الدين، وتحولت من تجربة أفراد محدودين (تجارب التصوف الفردية)، إلى قاعدة ينطلق حسبها نشاط غالبية أفراد الجنس الإنساني في العالمين المسيحي والإسلامي. لقد اكتمل عالم الدنيا حيث كان الإنسان يشكل المتحرك الحي الوحيد الذي يصدر حركته حسب قواعد التوحيد الكوني، ومهّد تراكم نجاحات الواقع في هذه المرحلة لتشكيل عالمٍ آخر، من خلال توسيع دائرة عمل التوحيد الكوني من الإنسان لتشمل الطبيعة أيضاً، حاملةً خصائص الحركة الموحدة إلى المادة الجامدة (اختراع التكنولوجيا).

حقق فرع التوحيد الثاني في مرحلة التوحد حسب المعرفة- الذي ربط بين وعي الإنسان وبين الموقع الخارجي للنظام الحي كما تشكَّل بالفلسفة اليونانية- كل مهامه، وأوصل هذا الربط إلى نهايته الناجحة، واندفعت دائرة التوحيد لتنطلق نحو الوجود المادي الخارجي، حسب طاقة أداة التوجيه الثنائية. كان الوعي كنافذة انفتاح للعقل الحي الفردي (القلب) على الخارج يستخدم حواس جسم الإنسان كأدوات له لتحديد وجود الخارج المادي، وتوصلت التجربة اليونانية إلى تحديد معالم الخارج حسب قدرة الحواس على الرصد. لقد أدت مراقبة فلاسفة اليونان للوجود المادي (خارجاً وداخلاً) إلى إنتاج العلم اليوناني من ناحية، وإلى تشكيل أسئلة نابعة منه استعصت الإجابة عليها بسبب محدودية قدرة الحواس في رصد المادة واكتشاف ماهيتها من ناحية أخرى. دلت تجربة الرومان- ورثة اليونان- العاجزة عن تطوير هذه الأسئلة بالإجابة عنها، على أن العلم اليوناني قد استخدم أقصى إمكانات حواس الإنسان في الرصد، وهو ما مثّل ذروة قدرة الوعي في إنتاجاته. وهذا ما سيكون قاعدة انطلاق العلم الموضوعي في العصر الحديث، حين تُوسّع دائرة التوحيد الكوني عملها إلى الطبيعة.

المسيحية التي سادت في أوروبا حولت نمط العيش المبني على الفلسفة اليونانية، ليتأقلم مع قواعد العيش التي تقررها. والإسلام الذي نجح بعد ذلك بالتفاعل مع الفلسفة اليونانية بشقيها التقريري (العلم) والتساؤلي (أسئلة الميتافيزيقا)، هما النموذجان اللذان شكلا ذروة التوحيد الجاري في القلب، ومزجا ناتج محوري التوحيد الكوني(الكشف والتنظيم) في قلب الإنسان ووعيه، اللذين تشكلا خلال آلاف سنوات مرحلة التوحد حسب المعرفة، وجمعا ناتجهما في أدبيات العصور الوسطى على امتداد رقعة العالمين المسيحي والإسلامي، حين كان عمل التوحيد الكوني محصوراً في الإنسان (المادة الحية) فقط. لقد شكل إيمان الدين التوحيدي بـ(الله

الحي) الإجابة على أسئلة الميتافيزيقا اليونانية، وشكل علم اليونان أداة تعامل إنسان العصور الوسطى المتدين مع مظاهر الطبيعة، للاستفادة منها في حدود قدرة حواسه وأعضائه على ذلك.

سيأخذ الكتاب منذ الآن باستخدام حراك الإنسان الواقعي (الأحداث السياسية) كشواهد واضحة على المسيرة الاجتماعية للإنسانية، لأنه أصبح من الممكن الاستعانة برصد الأحداث الواقعية للتاريخ بدقة ابتداءً من هذه المرحلة. وستكون إشارات الكتاب للأحداث السياسية فيها أداته لعرض مسار التوحد الاجتماعي، وكشف ماهية حركة التاريخ ومعالمها. وهذا الرصد لا يحمل أي ظلٌ من محاولة تقييم ما حصل من أحداثٍ تحسيناً أو تقبيحاً، استجابة لموقف الحيادية التي يفرضها استخدام المنهج العلمي التجريبي. إن الحدث الاجتماعي يشكّل الظهور المادي لعملية التوحيد الكوني، وحضور هذا الحدث هو الدليل التجريبي على ما جرى من تفاعلات خفية في بنية توحيد النظم التي أنتجته. وبذلك توضّح النظرية قراءتها لوقائع ما ينتجه الإنسان في حركته السياسية، إذ تعتبر ناتج هذه الحركة بكل مكوناته الدليل المادي الراسم لمسار التطور البرّاني وطبيعة تشكلاته. وهذا ما جعل من الممكن تحديد ملامحه، وصار من المتيسر تحديد مجرى حركة التاريخ بوضوح.

النار التي صهرت العالم

تم استخدام مصطلح "التوحد حسب العمل" دالاً على هذه المرحلة من التوحد الاجتماعي في التجربة الإنسانية، اعتماداً على أن المعرفة الفردية قد أكملت مهامها في المرحلة الماضية. لقد تشكل نموذج الإنسان الفرد الكامل في المرحلة السابقة، بناءً على ما تحقق من ناتج التوحيد في قلبه، مضافاً إليه دفع متشكلات القلب لكي تتعامل مع مفردات الخارج المادية، وتم نشر نموذجه في النسبة اللازمة من عدد أفراد الجنس الإنساني. جوهر

كمال الإنسان الفرد هو اكتمال ظهور معرفته نتيجة تنامي دائرة التوحيد الكوني، وانعكاساتها الاجتماعية. لقد شكلت تجربة العالمين المسيحي والإسلامي الشكل الواقعي لهذا النجاح. إن ما سيحدث في العصور الحديثة هو إطلاق مستوى جديد من التوحيد الكوني خارج الإنسان المكتمل معرفياً، لكي يأخذ باحتواء الطبيعة ويمد دائرة عمله إليها (العلم)، مما سيُنتج وجودات مادية جديدة حاملة لخصائص التوحيد الكوني في الطبيعة الجامدة، تجعل الوجود جديداً (عالماً آخر)، لا يبقى فيه الإنسان هو المطلِق الوحيد للحركة الموحَّدة. إن قواعد العمل الموضوعية التي تقررت في هذه المرحلة، ستكون الساحة التي تجري فيها عملية تفاعل حضور الإنسان والتكنولوجيا بانسجام. ستُظهر قرون العصور الحديثة أن معرفة الإنسان لم تبق الساحة الوحيدة لفعل التوحيد الكوني في إنتاج نظم الاجتماع، بل لقد أصبح عمله- بمعايير تتوافق وحركة التكنولوجيا سرعة ودقة وسعةً واستمراراً- الساحةَ التي سينصب عليها تركُّز عمل التوحيد الكوني. وهذا هو أساس صياغة مصطلح "التوحد حسب العمل" كشعار لما جرى ويجري في قرون ما بعد العصور الوسطى.

حسم الحدث السياسي في القرن الخامس عشر العلاقة بين الإسلام والمسيحية كحلقتين أخيرتين من الدين التوحيدي بعد اليهودية. استطاع المسلمون العثمانيون أن يقوضوا الإمبراطورية البيزنطية وأن يُسقطوا عاصمتها القسطنطينية عام 1453. مطلقين توتراً هائلاً في العالم المسيحي، ولّد تيار حركة جديدة ستلوّن عيش الإنسانية كلها في قرونها التالية. سيصطلح المؤرخون على تسمية تلك العصور التالية للحدث باسم (العصور الحديثة)، إعلاناً عن فصل حاد بين نمط العيش الذي ساد في العصور الوسطى وما قبلها، وبين قواعد العيش الجديدة. حدّة هذا الفصل ووضوح طرفيه سوف تسمح بإطلاق صفة "الحداثة" على نمط العيش الجديد، مقابل وصف نمط العيش السابق بالقديم.

عملية سقوط القسطنطينية تمت كاستحقاق نهائي ختم اكتمال مرحلة التوحد حسب المعرفة. وجاء دافع العثمانيين لأسلمة أوربا متولداً من قيم تلك مرحلة، المتمحورة حول نشر الدين التوحيدي. وقد جَهد العثمانيون خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر وفي القرنين التاليين- مستجيبين لهذا التوتر في حركة التاريخ- لتحقيق هذا الهدف، ولكن جهودهم أخفقت في ذلك. ودلَّ هذا الاخفاق على أن قيم الدين التوحيدي لم تعد محلَّ اهتمام حركة التطور، وأن ما سيتحقق في العصور الحديثة كان نمط عيشٍ جديد، يقطع مع أنماط العيش التي تحققت في آلاف السنين الماضية.

إلا أن تلك الانتصارات للعثمانيين شكلت الصاعق الذي أطلق بداية التغيير في غرب أوربا على نمط العيش القديم السائد في ظل المسيحية، ودفع إلى إشادة البناء التحتي لإنتاج توسيع دائرة عمل الحركة الحية الموحدة ناتج التوحيد الكوني، لتنتقل من دائرة الإنسان إلى دائرة الطبيعة. إن جهود العثمانيين في محاولتهم أسلمة أوربا، وجهود الأوربيين في الحفاظ على مسيحيتهم- كمشكلين لنمط العيش في العصور الوسطى- شكلت الدافع لإطلاق التغيير في أقصى غرب أوربا (إسبانيا وفرنسا وبريطانيا)، كما تحقق واقعياً منذ النصف الأول من القرن السادس عشر. بذل العثمانيون أقصى طاقتهم لتحقيق هدفهم، واستمات المسيحيون في صمودهم لمنع ذلك. انتصار المسلمين وتقويضهم للإمبراطورية البيزنطية جعلهم يطمئنون إلى قوتهم، ويخلدون لنمط عيشهم الذي حقق نصرهم. بينما شكلت هزيمة المسيحيين ممثلة بسقوط بيزنطة ألماً رهيباً: «كانت الصدمة استثنائية كتب مؤرخ دير آراغانوس:" لم يكن، ولن يكون هناك حدث أشد رهبة منه". وردد معه دولوغوش البولوني قائلاً:"سملت إحدى عيني المسيحية، وبترت إحدى يديها". لم يكن هناك من يصدق بأن القسطنطينية ستسقط. كانت الثقة بأسوارها والمدافعين عنها عالية»[50]. مما

شكل دافعاً محرّضاً لقيادات وسط أوربا وغربها في البحث عن مصادر قوة جديدة، تحقق بقاء المسيحية لإفشال خطة العثمانيين المسلمين في أسلمة العالم.

تركّز جذر القوة التي امتلكها المسلمون والمسيحيون في بنى إيمان الطرفين وشريعتهم، وما بثّاه من اندفاع في نفس المسلم والمسيحي لنشر دعوته واقعياً. إن إيمان إنسان القرون الوسطى بقيم دينه كانت هي محرض ودافع قوته المادية التي تجعل نشر الدين هدفها الأول. وهذا ما جعل عملية تجهيز قوة الطرفين المتصارعين تقوم على التعبئة الروحية في مجتمعاتهم، وأفراد جيوشهم. وقد صورت أدبيات تلك المرحلة ذلك بدقة تامة من خلال نصوص الخطب التي كانت تحث الأفراد المقاتلين على بذل غاية جهدهم لتحقيق النصر.

السلاح المادي المستعمل كان واحداً عند الطرفين تقريباً، وكان عامل النصر يرتكز حصراً على تعبئة الإنسان الفرد. ليندفع هجوماً أو صموداً في ساحة المعركة. هذا ما حوّل انتصار المسلمين في تقويضهم للإمبراطورية البيزنطية، إلى دافع مؤرِّقٍ وملحٍّ لساسة أوربا، للبحث عن عناصر جديدة للقوة العسكرية خارج ساحة الإيمان الديني. وشكّل هذا نقطة بداية انبثاق الجديد بشكل خفي وغامض، كما تشكل في النصف الثاني من القرن الخامس عشر في وسط أوربا.

هذا البحث الخفي والغامض عن قوةٍ خارج ساحة الإيمان، شكّل بداية اصطفاف جديد في العالم المسيحي، من خلال إلحاح هذه الرغبة الغامضة والخفية على ساسة أوربا وقادتها العسكريين، ليجدوا عناصر قوة خارج الإيمان، تسمح بصمود أوربا في وجه مشروع العثمانيين.

دعنا نسترجع ما يقال حين يدور الحديث عن تحقيق الإنسانية لأهداف كبرى في الحياة: "دروب الله ملتفة وطويلة ومحيرة". هكذا كانت طبيعة الطرق التي سارت فيها أوربا في محاولتها إفشال مشروع العثمانيين حين صبت الكنيسة اهتمامها على الدين أولاً، تبحث فيه عن النجدة التي ترجوها للصمود في وجه العثمانيين. التشدد والتطرف في الكنيسة الكاثوليكية كان هو الدرب الأول، حيث سعت إلى تقوية قاعدة الصمود (الإيمان). ولهذا فعَّلت الكنيسة البابوية إيمان رعيتها في وسط أوربا وغربها، وكانت استجابة الشعوب المسيحية الأوروبية لهذا الاتجاه متسمة بالضعف الداخلي والتراخي العملي، ولم تكن على المستوى المطلوب. واتخذت الكنيسة روادع زاجرة ضد عناصر في المجتمع رأت أنهم سبب هذه العيوب. فقامت محاكم التفتيش مستفيدة من انتصار المسيحيين الكبير على المسلمين في اسبانيا بتأدية هذه المهمة، وامتد سلطان هذه المحاكم ليشمل كل أرجاء وسط أوربا وشمالها الغربي. وكانت هذه المحاكم أداة لفرض معايير صارمة في صياغة عقائد الإيمان، وقواعد شديدة في مراقبة السلوك العملي. وكانت ريحاً عاصفة أخذت نتائجها تهز بناء البابوية التقليدي الموروث من السلف.

رغم صحة هذا الاندفاع في تقوية الإيمان في النموذج الإسباني ظاهرياً، إلا أن تعزيز الإيمان لم يكن هو الأداة المطلوبة واقعياً لنجدة أوروبا المسيحية، بسبب طبيعة الحدث الذي تشكل من اجتياح العثمانيين لشرقها ووسطها. ولذلك فإن العاصفة التي أطلقتها الكنيسة لم تتفاعل ايجابياً في بنية المجتمع في العالم المسيحي. إن تشدد وتطرف الكنيسة في تطبيقها الصارم لقواعد الإيمان الكاثوليكي بمظاهره المختلفة، واستخدامها لمحاكم التفتيش أداة لقمع المخالفين وفرض ما تريد، جهّز الجو الفكري لعملية مناقشة مختلفة المستويات لما تريده الكنيسة. وقد تجسَّد هذا واضحاً

في خطوة الراهب "مارتن لوثر"* في العقد الثالث من القرن السادس عشر، حين أعلن احتجاجه على مشروع الكنيسة البابوية، ودعا إلى إعادة صياغةٍ جديدة للإيمان المسيحي، لكي يكون إيمانا فاعلا يمنح معتنقيه قوة داخلية تناسب مهام الصمود لإفشال مشروع العثمانيين.

لقد كان الاحتجاج البروتستانتي محاولة لبناء إيمان مسيحي نقي يصلح أن يكون مصدر القوة الروحية المنشودة من الجميع. وقد ثبت واقعياً أن الإيمان لم يكن هو الساحة التي يرتجى منها أن تمدّ أوروبا بما تريده من قوة الصمود. وهكذا عجز مشروع البابوية عن تنقية إيمان الرعية رغم كل وسائله الصارمة فكرياً، والخشنة عملياً، وأعطى انطباعا سلبياً للسلطة السياسية بعبثية العمل على هذه الساحة، ودفع الحكام للبحث عن مصدر آخر للقوة، حتى يتمكنوا من الوقوف في وجه مشروع العثمانيين.

اقرأ معي حادثة **صكوك الغفران** التي فجرت ظهور احتجاج الراهب "مارتن لوثر" بكل ملابساتها التاريخية الواقعية، والتي أطلقت الصراع حامياً بين الكاثوليكية والبروتستانتية، ستجد أنها كانت احتجاجاً من "لوثر" على جوهر السلبية في التوجه البابوي: «إشاعات خطرة عن قيام الأتراك ببناء أسطول ضخم في البوسفور، والإعداد لغزو كامل العالم المسيحي. لم تثر هذه الشائعات الحماس لمقاومة الغزو بقدر ما عمقت ميول الاستسلام»[51]. لقد كان جوهر خطوة البابا في بيعه لصكوك الغفران، إشارته إلى قرب نهاية العالم، ووجوب الاستعداد للانتقال إلى العالم الآخر. وهذا كان استسلاماً استراتيجياً أمام الخطر العثماني. استجاب احساس "لوثر" الغامض والخفي لهذا التيار بدقة، واندفع يرد عليه في الدعوة

*مارتن لوثر (1483 – 1546): مصلح ديني ألماني شهير، يعد الأب الروحي للاصلاح البروتستانتي، امتدت إسهاماته الفكرية إلى السياسة والثقافة والاقتصاد واللغة.

للحفاظ على الواقع، من خلال صيغة إيمان يؤكد على العمل، ويصمم من خلال الانكباب على العمل الرد على التحدي الإسلامي.

ثبت أن الصراع الكاثوليكي البروتستانتي لتصحيح الإيمان لم يكن الدرب الذي كان من الممكن أن ينجد أوروبا، ويمنحها عناصر القوة المطلوبة. بل شكَّل الطريق لتفجير مخزون الإيمان المسيحي بالله الحي، حتى يوسع دائرة عمله في دوائره الاجتماعية بشكل فعال. وهكذا فإن الحروب الدينية في القرنين السادس عشر والسابع عشر وذيولها في القرن الثامن عشر، أنهت موقف الاستسلام الاستراتيجي، الذي أشار إليه تصرف البابا ببيعه لصكوك الغفران. كانت آخر موجة عثمانية لفتح فيينا قد تحطمت أمام السد الذي شكلته أوروبا، التي تحسست جوهر الموقف المطلوب منها، بعد أن أجهض التيار الاستسلامي الذي مثَّله البابا. لقد عايشت هجمات العثمانيين الحروب الدينية في أوربا، وشاهدت العجز عن الحسم لأحد الإيمانين (الكاثوليكي أو البروتستانتي). ولم تستطع هذه الحروب التي ذهب ضحيتها ملايين الأشخاص صياغة عقائد الإيمان المسيحي اللازم، ليكون مشروع الصمود في وجه مشروع أسلمة أوربا المسيحية إيمانياً. واستقرت الكنيستان الكاثوليكية والبروتستانتية متجاورتين، وانطلق من تفاعلهما اتجاه جديد يخلق طريقة عيش جديدة، يتحقق فيها الصمود بارزاً بشكل خفي وغامض. لقد تحقق الحصول على مصدر القوة المطلوبة من ساحة جديدة أخرى غير ساحة الإيمان.

ضَغْطُ المسلمين العثمانيين على وسط أوربا دفع بعملية تحضير مشروع الصمود الأوربي جغرافياً إلى أقصى غرب أوربا. لقد شهدت اسبانيا وبريطانيا تفاعلات اجتماعية أنتجت مشروعين للصمود، أدى تفاعلهما الواقعي في ظروف الحروب الدينية إلى رسم ملامح الحداثة المطلوبة. اسبانيا في أقصى غرب أوروبا من جهة الجنوب، وبريطانيا في

أقصى غرب القارة من جهة الشمال، احتضنتا هدف الصمود وتفاعلتا حسبه، وأنتجت كل منهما قوة عسكرية شكلت مكونات في جبهة الصمود في وجه العثمانيين*. لقد شكل هذا الانزياح إلى أقصى غرب أوروبا الحامل الموضوعي لمشروع الحداثة الإنساني.

بهذه الرؤية لمكونات أحداث انطلاقة العصور الحديثة بخطوطها العريضة، تكون النظرية مستمرة في تطبيق منهجها في دراسة الحركة الإنسانية المنتجة لعملية التوحد الاجتماعي. وستكشف لنا كيف انبثق جوهر الحداثة؟ وما هي عناصره التي أنضجتها؟ وكيف شكَّل مرحلة جديدة في التوحد الاجتماعي، متسقة كامل الاتساق مع كل ما سبقها من متراكمات تاريخ الجنس الإنساني؟

مملكة اسبانيا الكاثوليكية حققت وجودها بهزيمتها للمسلمين في عام 1492. لقد شكل الانتصار وقدة قوة في جسم الكنيسة الكاثوليكية، دفعت بالبابوية للقيام بإنتاج مشروعها التاريخي، لتنقية طريقة العيش المسيحية من كل شوائبها (الهرطقات وآثار الإسلام واليهودية)، ومعالجة التهلهل الاجتماعي المسيحي عن طريق التمسك بقواعد الإيمان الكاثوليكي. وأن تدفع بمشروعها الذي حقق الانتصار على المسلمين في إسبانيا، ليكون جوهر موقف أوروبا للصمود أمام انتصارات العثمانيين في شرق أوروبا. إن إجراءات محاكم التفتيش في إسبانيا التي طُبقت على المسلمين واليهود،

---

* إن القراءة التفصيلية للمواقف السياسية لكل من المملكتين الإسبانية والإنكليزية في القرنين السادس عشر والسابع عشر تكشف لنا عن الخيوط الخفية التي نسج منها المشروعان. وترينا هذه القراءة جوهر موقف الإيمان الكاثوليكي الذي شكل استمراراً لطريقة عيش العصور الوسطى، وطبيعة ما أحدثه اعتماد إيمانٍ جديد في بريطانيا ليشكل (الإيمان) الجسر بين نمط العيش القديم، وآفاق نمط العيش الجديد. إن تحليل معطيات المواقف السياسية للإسبان والإنكليز يرينا كيف بقي الإيمان الكاثوليكي في إسبانيا يشكل ترديدا خفيّاً وشديد الغموض لطبيعة الإيمان التقليدي الموروث من العصور الوسطى، بينما بدأ الإيمان الجديد في إنكلترا يخرج من هذه الدائرة، ويدخل من خلال مفهوم "الوطن" ومحبته إلى ساحة جديدة لعمله، جعلته قاعدة الجديد متمثلاً بإطار الدولة الحديثة.

شكلت مقدمة محاكم التفتيش الكاثوليكية في كامل وسط وغرب أوربا. إن هذا ما يسمح لنا بتصنيف نجاح المشروع الإسباني على أنه محاولة غرسٍ لقيم العصور الوسطى كما أنتجتها البابوية، وتكريسٌ لقواعدِ عيشٍ منسجمة مع ماضي أوروبا الكاثوليكي، وهذا ما جعل الانتصار الإسباني مشروعاً واعداً بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية. لهذا لن نعجب إذا وجدنا أن الطاقة الاجتماعية الهائلة التي شكلها النموذج الاسباني، لم تحوله إلى نموذج تحتذي به أوروبا في قرون النصف الثاني من الألفية الثانية، بل زاد في صراعات الممالك الأوروبية كأي عنصر من عناصرها السابقة. لقد كانت عناصر انسجام المشروع الإسباني مع إيمان الكاثوليكية الموروث من العصور الوسطى، هي السد الذي انكسر عنده المشروع الإيماني الذي ناضلت البابوية من أجله. لقد أخلي مكان القيادة لنموذج أخر تشكل في شمال غرب أوربا، واستخدم عناصره الواقعية في اتجاه مختلف عن الاتجاه الإسباني.

ماذا فعلت جلالة الملك؟

"معقدة وطويلة هي دروب الرب". شاركنا أيها القارئ العزيز في استحضارها خلال هذه الرحلة الساعية إلى الكشف عن ماهية الحداثة التي قطعت مع قديم العيش كله في بريطانيا. لقد زعزعت القيود الصارمة للمشروع البابوي- في محاولته جعل الإيمان مصدر صمود المسيحية في وجه الاجتياح العثماني- من ولاء الملك هنري الثامن للبابوية وخضوعه لها. لقد تحسس بغموضٍ وإبهامٍ شديدين أن هدف الصمود لا يتم في سياق استعادة هيكلة الاجتماع المسيحي كما استقر في العصور الوسطى، حين كان البابا يتربع على رأس الهرم، وكان الملوك وغيرهم من قادة المجتمع ومسيّري سياسته رعية له، ينفذون أوامره الداعية للحفاظ على قواعد العيش المسيحية، من خلال الالتزام الدقيق بصيغ الإيمان الكاثوليكي. لقد كانت الدعوة البابوية منسجمة مع حالة استمرار القديم، ولكنها لا تصلح ركيزة لامتلاك القوة المطلوبة لمنع تحقيق مشروع العثمانيين في أسلمة أوروبا.

العلاقة بين البابا كممثل ليسوع المسيح صاحب ملكوت السماء، وبين ملوك أوربا كرعية ينفذون في عالم قيصر الحفاظ على قواعد العيش المقدسة بدون أي اعتراض أو تردد، كانت هي الأرضية التي تزعزعت بالمشروع البابوي للصمود. فالملك هنري الثامن لم يعد يرضى بموقع التابع كامل الانقياد لأوامر البابا، بل اخذ يحس أن نمط العيش المسيحي بقواعده التي استقرت في العصور الوسطى- والذي يقوم هو بتنفيذه الإجرائي في بريطانيا- لم يعد يناسبه في سياق تفاعلات المشروع البابوي للصمود ضد المسلمين. لم يكن هنري الثامن صاحب رأي لاهوتي يريد تعديل الإيمان الكاثوليكي حسبه، والدليل على ذلك التزامه بملاحقة أتباع

الكنيسة البروتستانتية في البداية واضطهادهم. إلا أن زلزالاً أصاب علاقته بالبابا، نشأ من طبيعة حاجاته الشخصية في طريقة العيش الموروثة، والتي كانت تريد أن تنطلق من قيود الضبط والتوجيه المفروضين في العصور الوسطى. هكذا طالب الملك هنري الثامن البابا بإجازته لطلاق زوجته، والسماح له بزواجٍ آخر*. حاول البابا تنفيذ رغبة الملك، ولكن نظم الحياة المسيحية المحددة لطريقة العيش القديمة، في ظروف أوروبا المتوترة حينذاك، لم تستجب لإرادتيهما. وهكذا تشكلت عام 1528 نقطة شقاق بين البابا كممثل لمملكة المسيح الإلهية، وبين الملك هنري الثامن أحد رعيته. مما أوجد أساساً للجديد الذي لم تكن رؤى تلك المرحلة تنظِّر له.

انطلقت شرارة تولد الحداثة عملياً من قضية الأسرة، كإطارٍ تنظيمي يضبط العيش المادي بين الرجل والمرأة، ولم تنطلق من حوار يناقش قضايا اللاهوت. وقد استخدم كل من البابا والملك هنري الثامن كل الوسائل الممكنة واقعياً في سبيل تحقيق النصر لأحدهما في هذا الخلاف. ملفات أرشيف التاريخ الانكليزي تدقق في جزئيات الحدث ومساره التطوري، وتكشف كيف حاول الطرفان في البداية الوصول إلى توافق، وكيف أخفقت بعد ذلك كل المحاولات. وبذلك وصل التفاوض إلى طريق مسدود، دفع بالملك هنري إلى اتخاذ إجراءات عملية لتنفيذ ما يريد.

كان جوهر هذه الإجراءات التي تحققت، تغيير موقع حضور رجال الدين (أتباع البابا) في هيكلية المجتمع الانكليزي، حيث أصبح الملك على

* خلاف الملك هنري الثامن مع البابا حول تطليقه لزوجته وزواجه من أخرى، يأتي تطبيقا دقيقا لكون نظام الاسرة هو قاعدة كل أطر التنظيم التي تولدت في مسار التطور الاجتماعي، بدءاً من تجربة النبي ابراهيم وانتهاءاً بالعصور الوسطى. حيث أن حركة التاريخ أرادت توليد الحداثة كمرحلة جديدة من التوحد الاجتماعي لإنتاج إطار تنظيمي جديد، فأطلقتها من حادثة صراع في محيط نظام الأسرة.

رأس الهرم بديلاً عن البابا. قفزة كبيرة وهائلة في تاريخ الإنسانية، تحققت من هذا الصراع بين البابا والملك حول طلاق الأخير من زوجته واقترانه بأخرى. فمن حدث صغير، يتعلق بحاجات إنسان فرد يريد أن يلبي دواعي حبه لامرأة معينة، انبثقت بذرة طريق سيغير كل أنماط العيش الإنساني، ويمنح قرون العصور الحديثة أنماط عيش جديدة لم يكن من الممكن تصور حدوثها واقعيا. هكذا عملت حركة التاريخ في صياغة محطاتها العملية، من خلال استخدام حاجات الإنسان الشخصية الصغيرة والمحدودة (مادة التوحيد الكوني)، لكي تولّد الجديد الذي يحقق تطور التوحد الاجتماعي واكتماله.

أصبح ملك بريطانيا هنري الثامن وورثته من بعده رأس هيكل التنظيم الاجتماعي في انكلترا. فبدلاً من أن يكون البابا (ممثل المسيح) في موقع الرأس، أصبح الملك الحامل لمسؤولية المهام الدنيوية في إدارة نمط العيش الإنساني في هذا الموقع. وهكذا حصلت الخطوة الضرورية لإطلاق مشروع الحداثة، وهي انتقال قيادة الاجتماع من حيّز التركيز على اتّباع أوامر الله، إلى حيّز التركيز على تدبير أمور الناس في ظروفهم المعيشية. لم يكن هنري الثامن عدواً للدين، يكشف ذلك إعلانه أن الملك أصبح حامي الكنيسة والدولة. لقد تم تغيير بنية توجيه مسار الاجتماع الإنساني فقط، وهو ما سينعكس على كامل نمط العيش مستقبلاً. إن هذا التوازن في الشعار المطروح في انكلترا بين الدين والدولة، والذي خلا من عداء بين الجديد والقديم، قد ضاع في العجاج المتولّد لاحقاً في مجرى تيار الحداثة، حين عادى رجال الثورة الفرنسية الدين، وقاموا بحصره بين جدران الكنائس، ورفضوا مساهمة رجالاته في بناء الحياة الاجتماعية الجديدة. وكذلك حين أوصل الثوار السوفييت الأمر إلى نهايته، حين حسموا القطيعة بين الدولة والدين، واعتبروا الدين عنصراً مدمراً في عملية بناء

الحداثة، وقاموا باستئصال وجود الكنيسة، ومنعها من ممارسة أي نشاط ديني على أي شكل من الأشكال.

الدراسة المعمقة لطبيعة العيش في مرحلة التوحد حسب المعرفة، تكشف أن الإنسان كان مركز الاهتمام، وأن الأرض كانت خارج مسار التطور البرّاني المشكَّل من الانفجار العظيم للنظام. وكان دورها مع الإنسان استمراراً لدورها مع باقي الأحياء النابع من مسار التطور الجوّاني، حيث يعيش عليها محافظاً على وجوده من خلال ما تمنحه من عناصر ضرورية لهذا الوجود. كان عمل التوحيد الكوني يدور على محور الحركة الحية كما كانت تصدر عن البشر، وعلى الاجتماع الإنساني الذي أنتج أطره التنظيمية الخارجية للإنسان فقط، ولم يكن للأرض (الطبيعة) مكان فيها. ولهذا لم تنتج تجربة الإنسان التوحيدية في مرحلة "التوحد حسب المعرفة" تغييراً ملحوظاً في علاقة الإنسان بالأرض زائداً على علاقة الأحياء بها، بل بقيت الأرض حاضناً مستقلاً عن تجربته.

البابا كان بحكم نيابته عن المسيح يهتم بالإنسان فقط كموضوع للدين المسيحي. وإذا استحضرنا أن جوهر المسيحية هو المحبة، تبيّنا من أدبياتها أنها مقصورة على حب الإنسان لله ولأخيه الإنسان. هذا ما أظهر حدود التجربة الدينية وأبرز اقتصارها على الإنسان. إن خروج هنري الثامن عن التبعية للبابا، واحتياجه إلى أرض تحتضن تجربته الجديدة حيث يكون فيها الملك رأس الهرم وليس البابا، أكسب الجزيرة البريطانية أهميتها كجزء من تجربته. أرض انكلترا في خطوة هنري الثامن لم تعد مماثلة لباقي الأراضي في غرب أوربا ووسطها. لقد تحولت لأرضٍ متميزةٍ، نشأ بينها وبين الشعب الذي يقيم عليها بداية علاقةٍ جديدة. لقد خرجت من مملكة نائب المسيح حيث كان الإنسان هو محور الاهتمام، وصار لها دور مختلف في تفاعلات المرحلة الجديدة. وهكذا أصبحت

عنصراً ضرورياً لنجاحها، وصار الحفاظ عليها أمراً في غاية الأهمية. وهذا ما وجَّه مسار التطور البرّاني- المتحقق كماله في الشعب الإنكليزي كجزء من العالم المسيحي- إلى ساحة وجودية جديدة (الأرض). وهو ما سيُبرز وجهاً جديداً لعلاقة الأرض بالإنسان لم يكن معروفاً من قبل*.

تشكل توجُّهٌ جديد من الإنسان (الشعب الانكليزي) نحو الأرض (وطنه). وبسبب ما أحاط بتجربة الملك هنري من ترقب وقلق ومخاوف، وارتباط نجاح هذه التجربة على بقاء الأرض الانكليزية قاعدة مادية لها، برزت ضرورة الأرض للإنسان. ولهذا لم يعد تطّلع عيون الإنسان نحو السماء هو شاغله الوحيد، بل اكتسب موطئ قدميه على الأرض أهمية جديدة، أنتجت علاقة محبة مؤثرة من الإنسان للأرض (حب الوطن). ستدور الحداثة في القرون الخمسة اللاحقة حول استحضار الأرض (الطبيعة) في كامل تجربة الإنسانية، وجعل علاقة الإنسان بها تشكل الشأن الأهم في مرحلة تجربته الجديدة.

في مرحلة (التوحد حسب المعرفة) المكتملة مع نهايات العصور الوسطى، تمت مظاهر التوحيد في الإنسان (المادة الحية). ولهذا فإن الأطر التنظيمية الاجتماعية، احتوت البشر فقط. التمعن في بنية هذه الأطر الخارجية، يكشف طبيعة هذه الأطر من حيث تشكلها على قدّ الإنسان، وظهورها آسرة ومقيدة بسبب هذا الانحصار. وأنها ابتدأت مقتصرةً على تنظيم المرأة والرجل والأولاد في علاقة ناجحة، مما سمح بعكس

* حسب منظور "الانفجار العظيم للنظام" ابتدا عمل التوحيد الكوني بعد تحقق موجة الانفجار الأولى في المادة الحية. فتشكل الجسم الإنساني كبنية مادية لإطلاق مظاهر التوحيد في حدود المادة الحية، وكانت الطبيعة خارج حدود الموجة الاولى من الانفجار. وحين اكتملت ظاهرة التوحيد في المادة الحية (الإنسان)، انتقلت إلى الطبيعة (الارض)، التي أصبحت وطناً في ظاهرة الدولة الحديثة، موسعةً دائرة التطور الحي خارجاً، من الإنسان إلى الطبيعة أيضاً. وهذا المنظور هو الذي سمح بقراءة تطور التكنولوجيا وتغيرات البيئة جزءاًمن مشروع كوني جديد انطلق بالانفجار العظيم للنظام.

خصائصها في تلك المرحلة، لكي تصبح إطاراً آسراً مقيداً لنشاط الإنسان في كل مجالاته المتاحة في أنظمة الحكم والعمل.

كل أشكال التنظيم التي تطورت من أسر وتقييد إطار الأسرة، خلال ما يقرب من أربعة آلاف سنة من زمن مرحلة التوحد حسب المعرفة، تعلقت بالإنسان حصراً. وكان هدفها تنظيم حركة الإنسان اتجاه الإنسان حسب قواعد تنظيمية أكبر من وجود الإنسان الفرد. لقد كان هذا مهمة محور التنظيم الإنساني في عملية إنتاج الاجتماع الإنساني، الذي عكس التوحيد الكوني.

خطوة هنري الثامن أدخلت لأول مرة الأرض (الوطن) عنصراً مركزياً في علاقة وحدة مع الشعب الانكليزي. فالإنسان- المكتمل نضجه من خلال التزامه بالمسيحية- سيسلط نتائج تجربته على الأرض وليس العكس. وهذا ما يمثل نقلة ناجحة في مسار التطور البراني المتشكل من موجة الانفجار العظيم للنظام. لقد بذلت جموع الشعب الانكليزي جهداً إنسانياً هائلاً للحفاظ على وطنها، كأساس لنجاح تجربتهم في الانفصال عن البابوية. هذا القلق والخوف على الأرض أوجد محلاً جديداً تتجه إليه المحبة الإنسانية، عبَّرت عنه أدبيات التجربة الحديثة بمصطلح (حب الوطن). لقد صار الإنسان الانكليزي (ولاحقاً كل فرد من الجنس الإنساني) يضحي بحياته في سبيل وطنه. وهكذا انتقل (الحب، الانجذاب) بين المتجسدات المادية كانعكاسٍ للتوحيد الكوني بين موقعي النظام الحي، من انحصاره في ساحة الإنسان والله إلى الطبيعة*. وهكذا شقت حركة

* هذا الانتقال غيَّر مركزية علاقة الحب الذي شكل مضمون عملية التوحد الاجتماعي. لقد كان الحب بين الناس مع بعضهم وبينهم وبين الله الحي هو مضمون مسار التطور البراني في التجربة الإنسانية. وقد استخلص الرسول يوحنا الإنجيلي ببصيرته النافذة قانون أن "الله محبة"، إشارة إلى أن جوهر مسار التطور البراني هو الانجذاب والتوحد. لقد نجح الدين التوحيدي لأن يتوصل إلى صياغة هذا، وسعى في تجاربه التاريخية الواقعية إلى تطبيقها. إن النظرية تستخلص أن

التوحد الاجتماعي مجرى جديداً جمعت فيه بين الإنسان والأرض، وأنتجت بداية علاقة جديدة للتوحيد الكوني تحت شعار(حب الوطن).

الحداثة من رؤية نظرية "الانفجار العظيم للنظام" هي طور جديد من موجات التوحيد الكوني بين المتجسدات المادية، يتم بين المادة الحية (الإنسان) وبين المادة الجامدة (الأرض)، لنقل آثار التوحيد من حدوده الإنسانية إلى الطبيعة الفيزيائية.

إن هذه القراءة للحدث الذي جرى في القرن السادس عشر في التجربة الانكليزية، توضح لنا أن المهام الوجودية لمرحلة "التوحد حسب المعرفة" قد اكتملت واقعياً، وامتلكت القدرة على توسيع دائرة عمل الحركة الحية الموحَّدة خارج ساحة المادة الحية، لتبدأ آثار التطور البراني في إحداث تغييراتها في الكون الفيزيائي. هذا هو الأساس الذي ستقوم عليه مظاهر توحد مادي جديد، يربط بين المادة الحية (الإنسان) وبين الطبيعة (الأرض)، في ظاهرة تنظيمية سيطلق عليها اسم (الدولة الحديثة). لقد تولدّ محور جديد للتوحيد الكوني، شكلت العلاقة بين الإنسان والأرض مظهره المادي الجديد. وصار لابد من تجميع قاعدة هذه الظاهرة.

لم يعد من الممكن ضمن هذه الرؤية تقبل خطاب العلمانية والتنوير، في كلٍّ من القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين، في أن الحداثة نمط عيش جديد، مناقض لنمط العيش القديم الذي ساد في القرون الوسطى وما قبلها، يستتبع قطيعة وصراعاً بينهما. وأن عناصر العيش القديم التي يأتي

النجاح في محيط الاجتماع الإنساني كان تاماً، ودليل ذلك هو أن هذه المحبة التي ربطت بين أفراد الجنس البشري بعضهم مع بعض، وبينهم وبين الله، قد تم انتقالها إلى الوطن (الطبيعة)، وقد أنتجت لاحقاً بعد قرنين، تشكيل وجودات مادية فيزيائية تحمل خصائص الحركة الحية. إن هذا مسار تطور كوني براني ترصد النظرية فيه تحقق هذا الناتج وتطوره، وتشكل التجارب الجزئية في مسيرة الأفراد والشعوب حالاته التطبيقية في الجنس الإنساني (المادة الحية).

الدين على رأسها، لم يعد لها دور في نمط الحداثة التي تقوم الدولة في صياغة اجتماعها.

إن هذه القطيعة هي استنتاج واهم لا أساس له. إن ما جرى واقعيا كان نجاحا تاما لمهام الدين المنظم لعلاقات الإنسان، كمظهر موضوعي لواقعة التوحيد الكوني. لقد انبنت مهام الدولة الحديثة في إنكلترا على هذا النجاح، وستستخدم نجاحات إنسان العصور الوسطى في إيمانه وكمال خضوعه لأوامر الرب الإله، لتصوغ بها مستوى توحيد جديد، يعمل فيه كل ما اختزنه انسان العصور الوسطى وما قبلها من نتائج التوحد، لينقله إلى الطبيعة محباً لها أولاً، ثم مخترعاً التكنولوجيا، ثم مطلقاً بداية تغيير في النظام البيئي للأرض.

مرحلة "التوحد حسب المعرفة" في ألفيات سنينها أنتجت في مسارها فرعين اثنين، **أولهما**: دار حول علاقة قلب الإنسان بالإله الرب. وهو ما شكل الدينُ التوحيدي بحلقاته الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام) ذروتَه، حين رفع شعار (الله الحي)، وتحكّم من خلاله في داخل الإنسان بالإيمان وأحكام الشريعة. **وثانيهما**: فرع دار حول وعي الإنسان المعتمد على حواسه كنوافذ على مفردات الخارج، والمنصب على مظاهر الطبيعة والاجتماع كحالات يتعامل معها بوساطة الحواس. وشكلت الفلسفة اليونانية في قسميها (العلم، والميتافيزيق) ناتجه الأشهر. صهرت مرحلة التوحد حسب المعرفة هذين الناتجين في نشاط العالَم المسيحي والعالَم الإسلامي، وجعلت ناتج هذا الصهر إرثها، الذي انتقل إلى المرحلة الجديدة (التوحد حسب العمل) في إنتاجها للحداثة.

يقرر الباحثون في مجال الحضارات أن الحضارة الحديثة في غرب أوروبا قد قامت على أساسين اثنين هما؛ الفلسفة اليونانية، والكتاب

المقدس. وأن القرون الخمسة الماضية قد طوّرت العلاقة مع هذين المصدرين من خلال نضج الإنسان المعاصر، الذي انكبّ على مادية الفلسفة وجعلها أساس بحثه في الطبيعة بالمنهج العلمي، وترك التسليم القديم للنص المقدس، حيث أخذ يتعامل معه بمناهج بحث ونقد تحاول أن تكشف مضامينه وأن تنفذ إلى أسرار نصه. وقد اصطبغت الحداثة بألوانها الواقعية التي أفرزها نشاط الإنسانية خلال القرون الخمسة الماضية، حاملة نسغها الذي ورثته من مرحلة "التوحد حسب المعرفة")، حين نضجت عملية التوحيد الكوني في ظاهرة الاجتماع الإنساني، مبنية على فرعي الدين والفلسفة. ولم يكن هذا الاتجاه الجديد في طريقة العيش انحرافاً من الإنسانية، بل كان استجابة وجودية لاستحقاق التوسع الجديد لدائرة التوحيد، ولّد من خلاله النشاط الإنساني استحقاقات وجوده الإيجابي الجديدة، كمرحلة من مراحل التطور البراني.

الدولة الحديثة: إنسان وأرض ثم تكنولوجيا

التوحد الإنساني هو الموجة الأولى للتوحيد الكوني الذي افتتحه الانفجار العظيم للنظام. وهو قد شكل محاور جديدة لنشاط الإنسان، زائدة على حركة الأحياء المقصورة على الحفاظ على وجود الجسد على محاور الأمن والغذاء والتكاثر. وقد رصدت النظرية محاور ثلاثة حكمت التجربة الإنسانية في مرحلة (التوحد حسب المعرفة)، وما زالت تعمل في مرحلة "التوحد حسب العمل". إنها محاور (الكشف والتنظيم والتغذية). والسؤال الذي يطرح نفسه هو: **ما هي الخطوط التي سارت فيها الحركة الحية الموحدة منطلقةً من الإنسان لرسم لوحة الحاضر، منذ أن أطلقت خطوة هنري الثامن رابطة المحبة الجديدة بين الإنسان والأرض؟**

لم يعد محور الكشف مقصوراً على الإنسان (المعرفة، العلم الذاتي)، فقد كمل هذا المحور في أدبيات العصور الوسطى. أوجد حضور الأرض في علاقة التوحيد الكوني مجالاً جديداً لمحور الكشف خارج الإنسان. أدى اهتمام المعرفة الإنسانية بالأرض إلى بدء ظهور ملامح جديدة لها، أدت إلى إنهاء حالة كمون قوانينها مخفية داخلها، بعد أن كانت بنية مادية سلبية بخضوعها لمسار التطور الجواني. لقد ظهرت هذه القوانين- من خلال تطور العلم من حالته الذاتية حين كان يركز على الإنسان، إلى حالته الموضوعية- كقوانين للطبيعة مستقلة عن الذاتية. اكتشافات كوبرنيكوس في القرن السادس عشر ومن سار على نهجه كغاليله وكبلر، أنهت مضموناً قديماً للمعرفة، ارتكز على الاهتمام بالإنسان في عملية التوحيد. لقد كان ذلك منعكِساً على صورة الوجود الفلكي في العصور قبلهم، وهو ما كان يتفق مع مركزية الإنسان حينها كمحور وحيد لواقعة التوحيد الكوني (اعتبار الأرض مركز الكون). لقد دفع اكتمال الدور الاجتماعي الإنسانَ إلى تشكيل مضمون جديد للعلم عكس صورةً لوجود الطبيعة كما هي. فأخذت ذاتية الإنسان تنحسر عن مكانها في تشكيل رؤية الوجود

المادي. وأخذت تتشكل صورة واقعية لذلك الوجود وقوانينه الموضوعية، من خلال رصد يعتمد الحواس مفصول عن تأثيرات مركزية الإنسان في التطور البراني.

غلبة محور الدين على الفلسفة في وسط وغرب أوربا في العصور الوسطى، شكّلت الأساس الذي بنيت عليه غلبة مظاهر ذاتية المعرفة الإنسانية. وجاء انتقال اهتمام الإنسان إلى الطبيعة نتيجة نضج تجربة التوحد الإنساني، دافعاً الطبيعة كوجود مرصود بالحواس إلى ساحة الاهتمام المعرفي، مما أخذ يمنح المعرفة الإنسانية التوازن المطلوب بين وجود الراصد وبين موضوعية المادة المرصودة تدريجياً. لقد تفاعلت ذاتية الدين مع حسية الفلسفة، وشكلتا اندفاعة نحو المجال الجديد (الموضوعية). وهذا ما حوّل وجود الواقع المستقل عن الإنسان إلى مصدرٍ لكل الملاحظات، مما أحدث التغيير في مصدر المعرفة الشائعة. لقد صارت وجودات الواقع الخارجي وعلاقاته المرصودة بالحواس- معزولة عن قناعات الراصد الداخلية- هي الحكم على صحة ما تتوصل إليه الأبحاث، إن هذا ما أنهى دور القناعة الذاتية التي يحملها الباحث، وأرسى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ترسيخ قاعدة الموضوعية في إنتاج المعرفة بديلاً عن الذاتية.

لم يعد مصطلح (المعرفة) بتمحوره على ذاتية الإنسان قادراً على استيعاب خصائص صورة الوجود الخارجي. وهذا ما أدى إلى تنامي حضور مصطلح "العلم" في خطاب هذه المرحلة بسبب خصائصه، كارتباطٍ للمعرفة بالواقع المادي المحسوس، استجابة لكل خصائص التوسع في دائرة التوحيد الكوني. إن هذه النقلة في استخدام المصطلح، سمحت بوصف العلم بصفة الموضوعية وتاليها بصفة التجريب، وهو ما سمح بتحميل دلالته إشارة إلى استقلاله عن الإنسان وعن إيمانه وتصديقه.

مما حمّل دلالة اللفظ قدرة الإشارة إلى معاني الكشف والإضاءة للوجود كما هو، متخليّاً عن خصائصه في مرحلة "التوحد حسب المعرفة". لقد أنتج القرن السابع عشر على يد علماء الفيزياء أساساً لصورةٍ موضوعية عن الوجود استقلت عن الإنسان، وصارت بنية مادتها وعلاقات قوانينها هي الدليل على صحة ما يتوصل إليه العلماء. وسوف ينطلق نمو العلم خارج حدود ذاتية الإنسان، ليتجمع في أرشيفه معلومات ذاتُ كمّ هائل، لم يكن من الممكن تحققها لولا حدوث هذا الانتقال من الذاتية إلى الموضوعية.

لقد كانت المعرفة "بانية الإيمان" ذات حاجة ثانوية جداً إلى الحواس، إلا أن العلم ككاشفٍ لصورة الوجود المادي الخارجي يستخدم الحواس أداةً رئيسيةً له، لا يسمح أن يتخلل نقاء هذا الاستخدام أي شائبة. وهكذا انطلقت طرائق البحث الجديدة معتمدة على الحواس نافذة الوعي على الخارج، وصارت براهين الدراسات تعتمد على تطابق نتائجها مع الحالات المرصودة بالحواس. إن مبرر انتهاء مرحلة دور الذاتية (القلب)، كان اكتمال نتائجها الإيجابية في تشكيل الكشف المعرفي. وبذلك غادر الرصد والبحث والدراسة منهج المعرفة في خصائص برهانها الذاتي، وتبنى العلم الموضوعية لبحثه في وجود الواقع، واستخدم التجريب أداة للتأكد من دقة ما تتوصل إليه الملاحظة. وبذلك حدث التطور التكاملي بين أفق المعرفة المحصورة سابقاً بذات الإنسان، وبين أفق العلم الملتصق بالوجود الموضوعي على سعته. وتم بذلك توسع دائرة عمل التوحيد الكوني من ساحتها الحية إلى ساحتها الجامدة.

أنتج المنهج العلمي التجريبي- المتولد عن تجربة الحب الجديد الذي ربط بين الإنسان (الشعب) والأرض (الوطن)- وليده المتوقع، فاستطاع

العالم الإنكليزي "جيمس واط" أن يخترع "المحرك البخاري"* في القرن الثامن عشر (1769)، محققاً لأول مرة في الكون تحميل المادة الجامدة خاصية الحركة الحية في تولدها نتيجة دورة داخلية للطاقة، تولد قوة التحريك داخل المتجسد المادي، كما يحصل في المادة الحية. وهكذا أطلقت عملية التوحيد الكوني خطوتها الثانية في المادة الجامدة، بعد إكمال خطوتها الأولى في الإنسان (المادة الحية)، فنقلت خصائص الحركة الحية الموحَّدة من الإنسان إلى المادة الجامدة، مفتتحة أفقاً هائلاً للتوحيد الكوني يمتد على سعة الكون كله. وهكذا غادر محور الكشف ساحة الإنسان، وانتقل ليشكل خريطة كشفية للكون كله، ستكون "التكنولوجيا" هي أداة السير على دروبها. **ولا تظنن قارئي العزيز أن هذا حدث ثانوي، إنه بالنسبة لنظرية "الانفجار العظيم للنظام" الدليل التجريبي على صحتها.**†

سيغتني محور التنظيم في مرحلة التوحد حسب العمل بشكل لافت للنظر، لأن ساحة التنظيم قد وسعت دائرتها كذلك، ليعمل النظام الحي في الطبيعة أيضاً، من خلال احتواء الأرض في عملية التوحيد الكوني.

---

* شاركني قارئي العزيز الابتسام من صياغة هذه الفقرة. حب جديد اطلقه الإنسان (الشعب الإنكليزي) نحو الأرض الفيزيائية (وطنه إنكلترا)، قد أثمر وليداً شرعياً في عام 1769، حين اخترع المحرك البخاري. وسيتضح معك التسلسل الواقعي للحدث من خلال نشوء الدولة الحديثة في إنكلترا في القرن السادس عشر، ثم ظهور قواعد الموضوعية والتجريب عند الفيلسوفين الإنجليزيين لوك وهيوم، ثم اختراع المحرك البخاري في القرن الثامن عشر على يد جيمس واط الإنكليزي.

† التكنولوجيا من وجهة نظر نظرية "الانفجار العظيم للنظام" هي كيان وجودي جديد مكون من المادة الجامدة بعد أن انتقل لها نظام المادة الحية. وهذا الانتقال للنظام الحي لا يمكن أن يتم دون خروجه (عمله برانيا من خارج المادة)، وهو ما يمثل البرهان التجريبي على النظرية الدائرة حول خروج النظام الحي وعمله من خارج المادة (حيةً أو جامدةً). وهذا البرهان التجريبي هو اللذي سيلغي كامل شكوك الخطاب الإنساني القديم اللذي كان عاجزاً عن تبيين عمل النظام خارجاً حين كان عمله مقتصراً على المادة الحية (الإنسان) بسبب عدم وضوحه، مقابل الوضوح في عمل النظام الحي خارجاً في التكنولوجيا.

الدولة الحديثة التي ستشكل قاعدة الأطر التنظيمية في العصور الحديثة- من خلال ربطها بين الإنسان وبين الطبيعة الجامدة- كانت الحاضن لكل نشاطات العيش الجديدة خلال القرون الخمسة الماضية. إن جمع الإنسان والأرض في رابطة حب موجّه من الإنسان إلى الأرض، شكّل المرة الأولى التي يتوجّه فيها الحب الحي إلى المادة الجامدة. إن حب الوطن ليس انجذاباً غائماً ومبهماً من الإنسان إلى الأرض، بل هو توجيه لمسار التطور الكوني البرّاني- المكتملة عناصره في الإيجاد والتنظيم في تجربة الإنسانية- إلى الأرض (الطبيعة)، من خلال كمال نضج العلاقة بين موقعي النظام الحي (ما ترسخ من علاقة انسان العصور الوسطى بالله الحي). وهكذا توسعت قاعدة العملية التنظيمية المحصورة بالإنسان فقط (الأسرة)، وتولدت قاعدة جديدة ستقوم بتنظيم الإنسان والطبيعة معاً، في إطار تنظيمي حي (الدولة الحديثة) متولدٍ من مسار التطور الكوني البرّاني.

لقد ضبط الإيمان والشريعة بنية الإنسان في منظومة الدين التوحيدي، وصارت حركة الإنسان سلوكاً مضبوطاً وموجهاً خارجياً حسب مهام تلك المرحلة. لقد كمل سلوك الفرد اتجاه الآخر من خلال الأطر التنظيمية القائمة على الأسر والتقييد، والتي لم تضم في داخلها حينذاك إلا الإنسان. ارتباط الأرض(الوطن) مع الإنسان (الشعب) في إطار تنظيمي واحد بعلاقة حب نابعة من بنية الإنسان التوحيدية، جعل عملية التوحيد الكوني تنقل آثارها إلى الطبيعة. إن هذا ما شكلّ تحدياً من نوع جديد أمام الإنسان المعاصر، وفرض تغييراً في طبيعة سلوكه. كما فرض هذا الواقع على محور التنظيم الجديد (الدولة الحديثة) أن يتجاوز ضبط الإنسان المكتمل انضباطه في المرحلة السابقة، ليقوم بتنظيم الطبيعة في ظاهرة حدود الدول وعلاقاتها.

وهكذا تظهر الدولة الحديثة في هذا المنظور متشكلاً تنظيماً حياً جديداً، ينبع من ذات المصدر الذي نبع منه إطار الأسرة سابقاً، ويتوسع ليستوعب- بطبيعة مرجعيته- نتائج تنظيمية في العلاقات الاجتماعية تطورت بما يناسب حضور المادة الجامدة (الأرض)، كطرف مادي جديد مختلف في بنيته عن الإنسان كمادة حية. لنمعن النظر في القوانين الفيزيائية التي تحكم الطبيعة جوانياً، ولنراقب خصائص الحركة الحية التي تطلقها التكنولوجيا كحركة موحدة، عند ذلك نستطيع أن نتلمس طريق التوسّع المطلوب للإطار التنظيمي ومرتكزاته وأهدافه. إن تلمس آفاق الإطار الجديد، يوضح لنا بشكل دقيق جداً، أن الذين يدعون إلى بقاء ظاهرة الاجتماع الإنساني محكومة بالنظم المبنية على إطار الأسرة تحت أي شعار كان، إنما يعطلون مسيرة التقدم الإنساني، من خلال الجمود على حدود إطار تنظيمي حي لا يمتلك قدرة استيعاب أنماط الحركة الحية الجديدة بعد اختراع التكنولوجيا. إن هذا الطلب يرجع إلى استسلامهم لوهم الألفة والتقليد، مما يجعلهم يشكلون واقعياً حجر عثرة في طريق مدّ آفاق الهدف، الذي حققه الإنسان تحت راية الدين التوحيدي سابقاً.

في إطار الدولة الحديثة الجامع بين الشعب وأرض الوطن، وما يتولد عن هذا الإطار المركزي من أطر جديدة تتسع لتشمل الإنسانية كلها مع كامل الأرض، سيتضح أن إطلاق تأثير الحركة الموحَّدة الإنسانية للحصول على نتائجها الإيجابية، لم يتم إلا بعد نضج التوحد الاجتماعي المرتكز على الفرد، وتجاوزه حدود الفرد واستقلاليته، وانتقاله إلى طبيعة المؤسسة (فريق العمل) وخصائص النشاط فيها. سيحدد نظام الدولة هوية الإنسان الفرد بمصطلح (المواطن)، حيث يتجاوز كل التصنيفات التي استخدمت في مرحلتي التوحد السابقتين (حسب الجسد، حسب المعرفة)؛ من تفريق الجندر، ولون البشرة، وخصائص العرق، وتفاضل الثقافات، ويحدد صفة تساوٍ لكل المواطنين بمعيار عملهم، بسبب تساوي ارتباطهم

بأرض الوطن. لم يعد نظام الدولة اعتماداً على خصائص الوطن يقبل أي تفريق على أساس الجندر أو اللون أو العرق، أو التعصب على أساس الدين والثقافة. بل إنه قد أكّد بشكلٍ جازم أن أفراد الوطن جميعاً متساوون بالحقوق والواجبات. وأن معيار التراتب في المجتمع هو الالتزام بالقانون من ناحية، والجد في العمل حسب تنظيمه المصاغ بنظم العمل والإدارة في المؤسسات من ناحية أخرى. وبذلك تكون قيم (العمل) الموضوعية النابعة من حضور الطبيعة والتكنولوجيا، والنقية من آثار الفردية، هي قاعدة مساواة الموطنين حقوقاً وواجبات. وبذلك تكون عملية التوحد الاجتماعي قد انتقلت من استخدام أدواتها في المرحلتين السابقتين (الجسد والمعرفة)، إلى استخدام قيم العمل كأداةٍ لتحقيق التوحد الاجتماعي بسبب حضور الطبيعة والتكنولوجيا.

حين أنشئت الدولة الحديثة في انكلترا في القرن السادس عشر، كان جمهور الشعب الانكليزي يتسم بانسجام في البنية الاجتماعية عالي النسبة، من ناحية الدين ومن ناحية العرق واللون. ولذلك تشكل مفهوم "المواطنية" بسلاسة نسبية، كشعار يصنف الإنسان محددا لهويته الجديدة، النابعة من وجوده على أرض وطنه في إطار الدولة الحديثة. واستطاع هذا الشعار تجاوز كل التصنيفات (الهويات) السابقة عليها.

وحين انتشر النموذج البريطاني التنظيمي في أوروبا عن طريق الثورة الفرنسية، لم تكن عملية الانسجام بين أفراد الشعوب الأوروبية عائقاً صعب التجاوز، وذلك بسبب تقارب مستوى الانسجام في قضايا اللون والعرق والدين في معظمهم، مع مستواه في بريطانيا. وحين أخذت بريطانيا وفرنسا وبعض الدول الأوروبية تعممان نموذج الدولة الحديثة في العالم من خلال "الاستعمار"، وضح أن الانسجام المستقر للعلاقات الاجتماعية كبنية تحتية لهوية المواطنة في غرب أوروبا ووسطها، مفقود

في مناطق عديدة من الأرض. وأن عملية نشره لن تمتلك السهولة والسلاسة النسبيّتين التي امتلكتها عملية الانتشار في الساحة الأوروبية، بل يحتاج نشر النموذج إلى جهد كبير ومعاناة. هذا هو المنظور الذي يتم فيه تقييم الاستعمار كنقلة ضرورية لنشر الحداثة على سطح الأرض. نستطيع معاً أن نطل قارئي العزيز على أدبيات تشكيل المجتمع الدولي في القرنين التاسع عشر والعشرين، ساحة تطبيق القانون الدولي، كحلقةٍ أوسع من الدولة الوطنية. ثم نستطيع أن نوسع أفق نظرنا في القرن الحادي والعشرين، لنراقب ما يجري الآن في ساحة العالم كله من صراعات يحتويها مصطلح "صراع الحضارات"، سنجد أن الخط الذي يَنْظُم نشر نموذج الدولة- وما يتولد عنه من أطر تنظيمية أكبر- وترسيخ قواعدها كإطار تنظيمي مختلف عن الأسرة، يدور على إزالة عمل تصنيفات الهوية السابقة لصالح هوية المواطنة في حدود الدولة الحديثة، ثم في أفق العالم كله.

عملية التوحد الإنساني في المجتمع شكلت تاريخياً التجسد المادي لعملية التوحيد الكوني في دائرته الأولى، التي انطلقت على الأرض كواقعة كونية بالانفجار العظيم للنظام. يمكن النظر إلى كل منشآت عملية التوحد الإنساني على أنها طبقات جيولوجية في عملية البناء التوحيدي لمسار التطور الجديد البرّاني، ناتجة عن عمل النظام الحي من موقعه خارجاً، ومشكلةً مسار تطور كوني جديد يختلف عن مسار التطور الكوني الجواني. إن هذه الطبقات كانت تتراكم فوق بعضها حسب طبيعة جدّة مكوّنات الحركة الموحّدة التي كانت تحكمها. إن الصعوبات التي شهدها العالم في القرنين السابقين حين شكّل المجتمع الدولي، والتي يشهدها الآن حين شرع يشكل المجتمع العالمي بالعولمة، إنما ترجع إلى تأثير تصنيفات الهوية السابقة على المواطنة، حين قامت بضبط التوحد في دائرة الإنسان فقط حسب قيمها. لقد تولد الجديد دائماً، وقام بطمر القديم (النفي

والإقصاء) خلال مسيرة التوحد الإنساني النقي. وحين انتقل عمل التوحيد إلى المادة الجامدة، فرضت هذه الخطوة تكاتف كامل مغذيات التطور الاجتماعي القديمة- بكل عناصرها الناتجة عن تصنيفات المرحلتين السابقتين(الجسد والمعرفة)- لتشكيل المستوى الجديد منبثقاً من الطبقات السابقة. وهذا ما اقتضى العودة لإلغاء آثار التصنيفات السابقة المعيقة، وإطلاق حضور كامل متراكمات طبقات التوحد في مرحلتي المعرفة والجسد. إن هذا قد ألزم إنهاء عمل أداة النفي والإقصاء السابقة، وإطلاق عملية المساواة في الحضور، حتى تتمكن جميع أشكال الاجتماع الإنساني المكونة عبر زمن التجربة الإنسانية من المشاركة في المرحلة الجديدة، مرحلة توحد الإنسان مع الطبيعة.

استحقاقات التوحيد الكوني النابعة من طبيعة الانفجار العظيم للنظام، لتوسيع دائرة التوحيد من المادة الحية (الاجتماع الإنساني) إلى المادة الجامدة (التكنولوجيا) في مرحلة التوحد حسب العمل، فرضت استخدام كل الينابيع التي تشكلت في مرحلة التوحد الإنساني الاجتماعي لتغذي مرحلة التوحيد الجديدة مع الطبيعة. وهو ما أوجب إنهاء عمل أداة المراكمة القديمة القائمة على النفي والإقصاء، وترتيب متشكلات التوحد في المرحلتين السابقتين، ترتيباً جديداً على أساس التساوي، ينبثق من معيار تصنيف المواطنة في الدولة الحديثة، الذي توسع في هيئة الأمم المتحدة إلى تساوي الحضور والحقوق للدول والأمم. وهو ما يستدعي العودة إلى ترسيخ التساوي في حقوق الأفراد، بغض النظر عن الجندر واللون والعرق والثقافة. وهذا ما أخذ يتحقق من خلال إحلال حضور الآخر في النشاط الاجتماعي، واكتسابه لحق "الوجود والتعبير والحوار" منذ نهاية القرن العشرين.

الصورة أمام الناظر إلى الساحة العالمية في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين تُظْهِرُ كأن عصاً خفيّة تعبث ببنية الاجتماع الإنساني، فتنقض استقرار البناء الاجتماعي الإنساني، وتدفع به إلى تصادمات تبدو تخريبية ولا نهائية. إن محرك هذا كله يعتمد- كما تم شرحه- على إنهاء العمل السابق لأداة ترتيب جيولوجيا الاجتماع الإنساني، العاملة حين كان الإنسان هو الساحة الوحيدة التي يعمل فيها التوحيد الكوني. سيتم ابتداءاً من هذا القرن الانتقال إلى تشكيل طبوغرافيا جديدة لهذا الاجتماع، تجتمع فيه كافة مكونات التوحد الإنساني على نمطٍ، يسمح لها بأن تغذّي المستوى الجديد من التوحيد الكوني "التكنولوجيا" وكل ما يتولد عن حركتها. إن حضور هذه المشكّلات في منظور طوبوغرافي جديد، هو ما تقوم به هذه العصا الخفية حين تُحِلُّ المساواة بين المرأة والرجل، فتمنح المرأة دورها المركزي الجديد المساوي لدور بنيتها في عملية التغذية الجديدة. وكذلك حين تساوي بين الألوان والأعراق والثقافات، مانحة كل مشكّلٍ فيها دوره المناسب في تغذية هذا المسار التوحيدي الجديد. إذا أطلّيت - قارئي العزيز- على المجتمع الأمريكي، فإنك ستجد فيه صورة ذات شمول تقريبي لذلك، حيث قارب حضور المشكّلات الاجتماعية أن يصبح على صعيد التساوي، وستجد كيف يقوم كل مشكّل بتغذية مسار المستوى الجديد للتوحيد الكوني.

ثم وصلنا إلى هنا

إذا تذكرت معي قارئي العزيز ما حدثتك عنه في بداية كتابنا، عن وجوه الاختلاف بين الإنسان وبين الطبيعة الحاضنة له، فإنك ستجد جديداً يتشكل أمامك الآن في سنوات العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. فالعلاقة بين المادة الجامدة وبين الإنسان لم تبق كما كانت، إن جوهر التغيير في طبيعة هذه العلاقة، ناشئ من امتداد عمل التوحيد الكوني ليشمل المادة الجامدة، لتبدأ عملية إعمار جديد لمادة الكون الفيزيائي، تنطلق من النظام الحي العامل خارجاً، المنقول من الإنسان كمادة حية. إن هذا التوسع في دائرة عمل الحركة الحية الموحَّدة سينهي مسار التطور الجواني في المادة الجامدة، القائم على عمل النظام داخلاً، ويطلق فيها مسار تطور براني، يطورها بتقنيات إعمار جديدة، على الشكل الذي حدث في المادة الحية حين أنهى انبثاق النظام سلسلة التطور الجوّاني فيها، وخُلّق الإنسان إثر ذلك.

الاجتماع الإنساني كناتج لعملية التوحيد الكوني في ساحة المادة الحية. تشكَّل كما تم تثبيت وقائعه بدقة في كامل أدبيات أرشيف التجربة الإنسانية. وقد ظهر الانتقال إلى ساحة المادة الجامدة بشكل واضح في القرن الثامن عشر حين اخترع جيمس واط المحرك البخاري، وانطلقت بعدها الثورة الصناعية ثم الثورة التكنولوجيَّة. وهذا ما فتح ساحةً جديدة لعمل التوحيد الكوني في المادة الجامدة. إن هذه الصورة هي التي سمحت للنظرية أن تقول، إن الإنسان قد وصل في نهاية العصور الوسطى إلى إكمال القواعد العامة لعملية التوحد الاجتماعي بكل مساراته ودروبه. وهكذا دخلت حركة التطور الكوني إلى محطة تشكيل عالمٍ آخر ابتداءً من سطح الأرض، وإلى إطلاق حياة أخرى للجنس الإنساني. وذلك من خلال انتهاء العلاقة القديمة بين المادة الجامدة وبين المادة الحية (الإنسان)، والانتقال إلى علاقة جديدة، أصبح فيها التطور الاجتماعي- ناتج حضور النظام في موقعه

الخارجي- هو المؤثر والفاعل في الطبيعة. وهذا ما تجلى في بداية تحول العالم بفضل التكنولوجيا إلى قرية كونية.

ناظم هذا التغيير كله هو التقدم التكنولوجي الحاصل الآن، والمؤشر إلى رفع سرعة التوحيد لدرجةٍ أكبر بكثير من سرعته السابقة في الإنسان. ويمكن من خلال التتبع والتدقيق ملاحظة مرجعية هذا التقدم في كل أشكال التغيُّر الحاصلة؛ في الاجتماع الإنساني أولاً، ثم في الطبيعة التي تحضن وجود الجنس الإنساني ثانياً. وهو تغيير واضح وجلي، يسمح بعزو أسبابه بدقة إلى واقعة التوحيد الكوني القائمة على حضور النظام الحي خارجاً، وتحقق مسار التطور البرّاني الذاهب للعمل في كامل الكون.

علاقة الإنسان بالإنسان (الاجتماع الإنساني) الآن، بقيت تتم مباشرة كما هي في ذروتها في المرحلة السابقة. وعلى الرغم من استخدام أدبيات الدين التوحيدي لمصطلح "إعمار الكون" لكشف دور الإنسان، إلا أن مدلول هذا المصطلح كان يُفهم محصوراً في حيّز عملية الاجتماع فقط. إلا أن القرن الحادي والعشرين يشهد مستوى تطبيق جلي وواضح لإعمار الإنسان للكون الفيزيائي، من خلال التقدم التكنولوجي الهائل. هذه العلاقات الجديدة هي ما أوجد الحاجة إلى مساهمة كلّ متشكلات الاجتماع الإنساني- التي انبنت سابقاً- في محور التغذية. إنها عملية رصف نتائج الاجتماع الإنساني المكتمل سابقاً في ظاهر طبوغرافي جديد، يوجب إنشاء فعل سياسي عالمي جديد، استُخدم مصطلح "العولمة" للدلالة عليه. يشير المصطلح بوضوح إلى عملية صياغة عالم جديد يصنعه عمل الإنسان، من خلال ما توفر من نجاحات في المستوى الدولي في القرنين السابقين. إن توحيد الدول (حسب حدودها وسهولة حركة التجارة الدولية بينها) قد تم نجاحه في القرن العشرين، وأطلق سلاماً واقعياً يرتكز إلى أن كل خلاف يحدث بين الدول، يتم حلّه بالتحكيم المعتمد على القانون الدولي. وقد طبّق

ذلك في ظروف "الحرب الباردة"، وحقق النجاح الواقعي المطلوب. مما سمح لعملية التوحيد الكوني في هذه المرحلة، أن تنتقل إلى مستوى أعمق، في ترسيخ السلام في علاقات الحضارات والثقافات، استكمالاً لما استقر من سلام في علاقات حدود الدول.

انطلق تيار رصف منتجات الاجتماع الإنساني- المرتبة حسب آليات البناء القديمة (التوحد حسب الجسد ثم حسب المعرفة)- إلى ساحة السياسة، من خلال هذا الاحتكاك بين ذروة تشكيل الحداثة في نموذج الدولة الأمريكية، وبين قوى حضارية وثقافية ترفض هذا النموذج، وتدعو إلى بقاء الاجتماع الإنساني في تراتبه الجيولوجي القديم الموروث من العصور الوسطى.

إن الدعوة إلى إبقاء البناء الجيولوجي كما هو مرتّب في إرث الإنسانية، هو إيقاف لاستمرار تقدم التوحيد الكوني، وإعاقة لتولد العالم الجديد والحياة الجديدة. إن ما يحدث في ساحة السياسة العالمية، يدور حول العلاقة بين المستجيبين للحداثة والرافضين لها، الذين لم يتوصلوا إلى تحسس جوهر استحقاقات هذه المرحلة، المتمحورة حول إنجاح هدف تطوير التكنولوجيا، لتحقيق دورها المستقبلي. إن هذا الهدف يستوجب تغييراً في طبوغرافيا تموضع القوى الإنسانية (حضارات وثقافات)، يؤدي إلى مساهمة كافة الثقافات والحضارات في العمل المتساوي لتحقيقه، حيث يمكن للتفاعل مع الآخر تحت شعار المساواة، أن يؤدي إلى استخراج أقصى طاقة بشرية لازمة لتطوير التكنولوجيا.

يعرض الخطاب الذي تطلقه الأطراف المتنازعة في ساحة "صراع الحضارات" أوهام أصحابه حول طبيعة ما يجري، حين يمحورون هذا الصدام حول ثأر تاريخي تحمله فئات ضد فئات أخرى. إن الرؤية التي

يفرزها هذا الكتاب تكشف أن العملية هي إعادة اصطفاف القوى الحضارية والثقافية بتراتب طبوغرافي جديد، لتحقيق هدف المرحلة (تطور التكنولوجيا). ما يجري في واقع السياسة "صراع الحضارات" يدُل بوضوح، أن هناك استحقاقاً لإنهاء ادعاء كل ثقافة مفردة- كائنة ما كانت- أنها تمتلك الحقيقة، أو أن عرقاً من الأعراق يستحق أصحابه فقط أن يكونوا سادة العالم، أو أن لوناً معيناً هو الأحق في توجيه حركة التطور العالمي، أو أي دعوة- تحت أي مبرر كان- لمنع الطرف الآخر في تصنيف الجندر من ممارسة ما توجبه المرحلة عليه.

نجاح حركة التوحد الاجتماعي في القرنين الماضيين في تحقيق السلام والمساواة بين الدول من خلال صيغة المجتمع الدولي، يكشف أن ما يذهب إليه النظام العالمي الآن يتوجه إلى نقل هذا المستوى من السلام والمساواة، إلى ساحة الحضارة والثقافة لإنتاج الاصطفاف المطلوب. إن هذا السلام المأمول يستدعي مساهمة كل قوى الاجتماع الإنساني على كامل الأرض.

خارج ساحات السياسة، يقوّض بناء الاجتماع الإنساني المُؤسس على إطار الأسر والتقييد، ويتم إحلال الحرية والديمقراطية أساساً لجديده. تحقق الإنسانية ذلك بسبب حضور التكنولوجيا كمظهر للتوحيد في المادة الجامدة. وقد أدى هذا إلى تحميل الاجتماع الإنساني مهام تنظيمية جديدة لا يملك نظام الأسرة ببنيته الواقعية قدرة احتوائها. شكّل نظام الأسرة إطاراً تنظيمياً لجذر الاجتماع الإنساني، حيث وحّد المرأة والرجل في علاقة تسمح بإنجاب الأولاد بسلاسة ويسر، بالمعايير التي تناسب مستوى الكشف الذي تحقق في مرحلة "التوحد حسب المعرفة". ونشأ عن هذا الإطار مستويات من الأطر التنظيمية لمختلف أوجه النشاط (العمل والحكم) التي ولّدها الاجتماع الإنساني في تلك المرحلة، وهو ما أغنى الحياة حينها بأوجه نشاط جديدة. لقد شكّل ذلك المستوى من التطور

الأساس اللازم لتشكل الإطار الجديد (الدولة الحديثة) في العصور الحديثة، وهو ما سمح له أن يولّد كل الأطر الأوسع من الدولة لاستيعاب أهداف التوحيد الكوني.

التكنولوجيا هي مادة جامدة يعمل فيها التوحيد الكوني ذاتُهُ، الذي أنتج جسم الإنسان وعمل من خلاله. ولهذا شكّل حضورها حاجات تنظيمية استطاع إطار الدولة الحديثة تأمينها. إن مهام التنظيم الجديدة الناشئة من استحقاق حضور التكنولوجيا، لا تترك نشاط الإنسان الفرد كما كان في العصور السالفة. إن وضع الجنس الإنساني بنسائه ورجاله، وبكل تصنيفاته اللونية والعرقية والثقافية إلى جانب التكنولوجيا، قد أدّى إلى مطالبته بدور جديد لم يمارسه في مرحلته السابقة. وترتكز دواعي مهام هذا الدور إلى الفوارق في الحركة الموحَّدة بين الإنسان والتكنولوجيا المتقدمة بما لا يقاس على حركة الإنسان. وهذا ما استدعى من الإنسان إطلاق حركته الحية بوتائر أعلى بكثير من الوتائر التي سادت في المرحلة السابقة. إن هذا التغيير المفروض على نشاط الإنسان، استدعى تغييراً في تموضع متشكلات النظام الاجتماعي المادية*، مما أخذ يحمّل الجسم الإنساني خلال إنتاج حركته ضغوطاً خارجية جديدة، دفعت بمستوى أعمق من مضامين العقل الحي الفردي للخروج كحلول لإشكاليات الواقع الجديد.

* العناصر المادية للنظام الاجتماعي، كانت تتألف في نظام الأسرة من المرأة والرجل والأولاد، وكانت قواعد الضبط والتنظيم تنصب عليهم، وتستدعي منهم حركة تناسب اجتماعهم. بعد إدخال الطبيعة في إطار الدولة الحديثة، وتولد التكنولوجيا نتيجة العلاقة بين الإنسان والطبيعة، ازدادت هذه المتشكلات، مما دفع إلى إقامة الانسجام بينها داخل الإطار التنظيمي. وهذا ما عرّض الإنسان المعاصر للضغط لإنتاج حركته بمواصفات تناسب حركة التكنولوجيا بسعتها وسرعتها ودقتها. وهكذا ستغير التكنولوجيا بخصائص الحركة الحية المنطلقة منها علاقات الاجتماع الإنساني في مسار واضح يذهب إلى نهاياته من خلال تخليص الاجتماع الإنساني من كل آثار الفردية التي حملها السلوك الإنساني خلال تشكيله للتوحيد الاجتماعي.

تحتاج التكنولوجيا المعاصرة- بعد أن حازت موقعها كحاملةٍ ثانيةٍ للتوحيد الكوني بعد الإنسان- إلى استكمال حملها لخصائص حركة المادة الحية، الناتجة عن العقل الحي الفردي في جسم المرأة وجسم الرجل.

أطلق الرجل في مرحلة "التوحد حسب المعرفة" قواعد التنظيم التي ظهرت في مضامين اللغة، وشكلت كل نواتجها في الأطر التنظيمية للاجتماع الإنساني. كان هذا هو الدور الوظيفي للرجل الذي حجبت المرأة عنه، فلم تسمح تلك المرحلة لقواعد التخليق الموجودة في جسم المرأة بالخروج، بسبب التدمير الذي يمكن أن يصيب عملية التوحد الاجتماعي حينها، وبعدها التجربة الإنسانية الكونية ككل. إن هذا كله هو الذي حدد طبيعة الموقع الذي احتلته المرأة في إطار الأسرة، حين فَرض عليها دوراً وظيفياً مقصور على عملية الإنجاب. إن تطوير التكنولوجيا في الدولة الحديثة قد احتاج إلى قواعد التخليق العاملة في جسم المرأة، وهذا ما أخذ يخلخل تموضع المرأة في إطار الأسرة، ويفرض تعريض جسمها في هذه الألفية لضغوط هائلة، لكي تطلق قواعد التخليق منه، لتحقيق نمو التكنولوجيا.

الجزء الرابع: آفاق الألفية الثالثة السعيدة

الفصل الحادي عشر: إلى عالم آخر موحد

لوحة واسعة للوجود الإنساني في حاضنه الكون الفيزيائي، جدَّ هذا الكتاب في رسمها لك بالكلمات. وبهذا الغنى لمفردات اللوحة وألوانها، تتضح الصعوبات التي اعترضت تنفيذ هذه الغاية، ومدى المعاناة التي كان يجب على خطاب الكتاب تحملها، وهو يحاول أن يحقق هدفه، من خلال عرض رؤيته لحركة الوجود الإنساني في إطار حركة الكون الفيزيائي، مجسِّداً في معاناته هذه قول النفرّي "كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة". ولا شك أن القارئ قد اكتشف ما اختزنته المفردات والصيغ من تدرجات الألوان، التي كانت ضرورية لكي تقدم لوحة منسجمة وجميلة (كما تصف الفيزياء الحديثة نظرياتها)، تمتلك قدرة أن تحمل معها دليل صحتها، من خلال دقة تطابق دلالاتها مع عمق بناء الواقع المادي الإنساني، كما دشّنه الإنسان في تجربته الإنسانية عبر تاريخه.

عناصر ثلاثة انطلقت منها حركة التوحيد الكوني في القرن الحادي والعشرين مفتتح الألفية الثالثة، **أولها**: تشكّل من نجاح عملية التوحد الاجتماعي حسب المعرفة في إنتاجها نموذج الإنسان الفرد الكامل في ظاهرة الدين التوحيدي. وجاء **ثانيها** من اكتمال العناصر المادية في الاجتماع الإنساني، التي أدت إلى الربط بين هذا الإنسان- كامل الخضوع للموقع الخارجي للنظام الحي- وبين الطبيعة التي تقوم على عمل النظام الكوني جوّانياً، حين جمعت الدولة الحديثة الإنسان والأرض في إطار تنظيمي حي خارجي يحتويهما معاً. تشكّل خلال القرون الماضية **ثالث** العناصر العاملة في الألفية الثالثة السعيدة، ألا وهو التكنولوجيا المخترعة في بريطانيا (المحرك البخاري). لقد كان إنتاج التكنولوجيا برهان نجاح عملية التوحيد الكوني بكل عناصره التي أطلقها الانفجار العظيم للنظام في موجته الحية. وكان تطور الآلة في القرنين التاليين (زمن الثورة الصناعية ثم الثورة التكنولوجية) هو بدء توحد جديد، لم يعد الإنسان بخصائص

اجتماعه التقليدية هو الركن الوحيد فيه. لقد انضم إلى ساحة التوحيد الكوني كل من التكنولوجيا والطبيعة، مظهرين بهذا الانضمام تنامي موجات انفجار النظام، وكاشفين بخضوعهما لعملية التوحيد الكوني، ملامح أولية لصورة الوجود الجديد خلال الألفية الثالثة.

"العولمة" هي الشعار الذي يتم من خلاله صياغة توحيد هذه العناصر الثلاثة (الجنس الإنساني والتكنولوجيا والطبيعة)، من حيث خضوعها مجتمعة لموجات الانفجار العظيم للنظام، وتشكيلها واقعاً مادياً توحيدياً جديداً لم تعشه الإنسانية سابقاً، ولم يشهده التطور الكوني من قبل. وسيكون دور كلٍ من هذه العناصر نابعاً من بنيته؛ حيث يبقى الإنسان مادة حية لا تتغير، ولا يستطيع أن يخرج من خصائص نظامه الحي المحدود المقيم لأجسام الأفراد، والمطلق لحركتهم. بينما ستمتلك التكنولوجيا قدرة تشكيل محرّض التطور في مرحلته الجديدة، من خلال كمالها المتدرج الناشئ من الضغط المُجْهِد على الإنسان لإكمال عملية تطويرها، بينما ستتلقى الطبيعة من التكنولوجيا تأثيرات تطورية برانية في مادتها الفيزيائية، لكي تستجيب لعملية التوحيد. وهكذا تتحضّر الأرض كجزء من المجموعة الشمسية في قرون الألفية الثالثة السعيدة،، لكي تصبح عنصر إدخال المجموعة الشمسية إلى ساحة التوحيد الكوني، من خلال تحولها إلى وجود فيزيائي جديد. وبذلك يتحدد مسار التطور البراني في عملية إعمارٍ لمادة الكون الفيزيائي، بتموضع جديد للنظام الكوني، حيث يعمل في المادة الكونية من خارجها راسماً لمسار تطورها البرّاني.

المرأة

إكمال الدور الإنساني لإتمام تطوير التكنولوجيا في الألفية الثالثة، سوف يُظهر دور جسم الإنسان كمتلق لضغوط علاقة التوحيد في آفاقها الجديدة، وسينتج من خلال هذه العلاقة الجديدة مع التكنولوجيا والطبيعة،

إطلاق إكمالات مضامين النظام الحي في موقعه الداخلي (الجسم الإنساني). نستطيع معاً عزيزي القارئ أن نقوم بإطلالة سريعة على مسيرة تطور الإعمار خارجاً، التي أشادها الإنسان الفرد خلال آلاف سنواته الماضية، وسنجد سهولة في قراءة هذه المسيرة، بفضل هذه التصورات المنبثقة من نظرية "الانفجار العظيم للنظام". ستخبرنا أدبيات الأرشيف الإنساني، أن الدور الوظيفي للرجل في مرحلة التوحد حسب المعرفة، عرّض جسمه لضغوط الموقع الخارجي للنظام الحي من خلال مهامه الحياتية في المجتمع. وهذا ما حدّد طبيعة الناتج الذي شكله دوره الوظيفي، متمحوراً حول إطلاق قواعد التنظيم من جسمه. لقد كان الرجل هو الطرف المركزي في الجنس الإنساني، الذي بنى في عملية التوحيد تطور الاجتماع الإنساني على مر آلاف السنين الماضية.

لقد أتم الرجل جلّ دوره الوظيفي مع انتهاء مرحلة التوحد حسب المعرفة، بإطلاقه لمضامين عقله الحي التنظيمية. إن قرون الألفية الثالثة سوف تشهد حركة للرجل ثابتة العطاء في إكمال الدور الكوني للإنسان، حيث تبقى تنطلق حسب مرتكزاتها المستقرة في مرحلة "التوحد حسب المعرفة". وهو ما سيعني أننا لن نفاجأ بتغييرات في مسار حركته، لأن مضامين العقل الحي في جسمه، قد أطلقت كمية مخزونها التنظيمي الكبرى خلال التطور، الذي انتهى بنجاح الدين التوحيدي في تشكيل نموذج الإنسان الفرد الكامل في خط تطور الرجل.

جسم المرأة خلال تطور تلك المرحلة قام بتأدية دور وظيفي، اقتصر على عملية الإنجاب للحفاظ على النسل. وقد اقتضت طبيعة هذا الدور المحدد للمرأة، إبعاداً لجسمها عن تلقي ضغوط عملية التوحيد الكوني، وأبقاه يعمل بخصائص التطور الجواني. وذلك حفاظاً على طبيعة عملية الإنجاب بالمواصفات اللازمة، التي رافقت تطور مستويات التوحيد

الكوني. فقد قامت علاقة تطورية بين قواعد عمل البيولوجيا كما هي في جسم المرأة، وبين العملية التفكيرية ومهام الثقافة (التطوير خارجاً) كما ولّدها الرجل خلال تأديته لدوره الوظيفي. وهكذا يخبرنا أرشيف الإنسانية بصيغ أدبياته المتنوعة، كيف تموضعت المرأة تاريخياً في إنتاج عملية التوحد بما يناسب دورها الوظيفي، وكيف تابعت انطلاقة الرجل المتحمّل لمعاناة ضغوط التوحد وأعبائه الواقعية. وكيف كان دور المرأة- المتمحور على الإنجاب المستمر- مبقياً لها على هامش عملية بناء نسيج التوحد الاجتماعي، إلى أن أكمل جسم الرجل عطاءه لمسار التطور البراني.

اكتمال دور الرجل في انتاج مضامين التنظيم من عقله الحي الفردي، أدخل جسم المرأة تدريجياً في عملية التوحد الاجتماعي، وجعَلَهُ جاهزاً لإنشاء علاقة مباشرة مع النظام الحي في موقعه الخارجي، لتعلن قواعد التخليق بدء مساهمتها في مسار التطور البرّاني. لقد اكتمل ذلك واقعياً بشخصية السيدة "مريم العذراء"، التي صور النص الإنجيلي أنها المرأة التي نضجت شخصيتها، لتسلم كامل قواعد التخليق داخل جسمها للرب الإله، مقدمة لاشتراك هذه المضامين لاحقاً في عملية التوحد الاجتماعي.

تعتبر قرون الألفية الميلادية الأولى طريقاً لانتشار المسيحية في العالم. ثم تولدّ الإسلام في سياق ظروف هذا الانتشار العملية في القرنين السادس والسابع الميلادي. حملت هذه المرحلة التأكيد على مهمة نشر نموذج الإنسان الفرد الكامل الممثل بيسوع، كوليد إنساني لعملية تسليم السيدة مريم أمرها للرب الإله (خضوع قواعد التخليق في جسم المرأة للنظام الحي في موقعه الخارجي)، كمدخل لمساهمة قواعد التخليق في عملية التوحيد الكوني الراسمة لمسار التطور البراني. لقد استمرت عملية توسيع حدود المنضوين تحت راية الدين التوحيدي لتسويد شعار "الله الحي" على أكبر نسبة من أفراد الجنس الإنساني، ونشر قواعد السلوك الإنساني التي

أنتجتها حلقات الدين التوحيدي الثلاث. لقد تغيرّ نتيجة هذه التفاعلات شكل حضور المرأة في لوحة الإنسانية، عن شكل حضورها خلال آلاف السنين الماضية، حين كانت تستجيب بالكامل لخصائص التطور الجواني. تم بدايةً إنهاء دور المرأة كقاعدة للأديان الجنسية السابقة على الدين التوحيدي، ثم أزيلت لاحقاً كل ظلال النظرة الدونية التي نتجت عن تهديم مكانتها في تلك الأديان، بعد قبولها الدخول في إطار الأسرة، وتحملها للمسؤولية الاجتماعية عن عمل جسمها، كما تمثَّل في كلٍ من ساره (زوج النبي إبراهيم)، ورفقة (زوج النبي اسحق)، وراحيل (زوج النبي يعقوب الذي أصبح اسمه لاحقا إسرائيل). لقد نضج في نهايات مرحلة "التوحد حسب المعرفة"- من خلال نموذج السيدة مريم- دور المرأة الخفيّ في عملية التوحد الاجتماعي وأصبح مساوياً للرجل، بديلاً عن دورها القديم في عملية التوحد خلال مرحلة "التوحد حسب الجسد"[*]، حيث كان جسم المرأة الطرف المركزي في قطب الموقع الداخلي للنظام، مقابل الدور الثانوي للرجل في تلك المرحلة، لأن النظام الحي الفردي لجسمها يحوي قواعد التخليق، بالإضافة لقواعد التنظيم ذاتها المغروزة في جسم الرجل.

قرون العصور الوسطى التي تشكل فيها العالم المسيحي والعالم الإسلامي كمظهر لنجاح شعار "الله الحي"، ونجاح انتشار الإيمان به وسيادة شريعته[†]، دفعت بالمرأة- كجسم ممتلك بشكلٍ مساوٍ لذات قواعد

---

[*] تختصر هذه الفقرة بتركيز شديد علاقة طويلة بين البيولوجيا والثقافة، من خلال حديثها عن الموقع الاجتماعي الذي احتلته المرأة خلال ما يقارب عشرة آلاف سنة. وبذلك تنهي ادبيات النظرية النظرة غير الواقعية التي تُدرس بها علاقة المرأة والرجل تاريخياً. وهكذا تقوم أدبيات النظرية بالتأسيس لحركة تحرير المرأة على قواعد موضوعية يكتشفها العلم، تشكلت في سياق الدور الكوني للإنسانية.

[†] شريعة الله: هي صياغة الإيمان وقواعد السلوك في علاقة لا تنفصم, وهي بهذا الجمع بين الإيمان وقواعد السلوك نحو الآخر تمايزت عما سبقها من مدونات الشرائع الإنسانية بنَسْبها هذه التشريعات إلى "الله الحي". ولهذا فإن جوهر الدين التوحيدي بحلقاته الثلاث يقوم على رد حركة الإنسان الموحدة المنتجة من الجسم الإنساني إلى الله الحي (الموقع الخارجي للنظام الحي).

التنظيم عند الرجل- إلى ساحة العمل الاجتماعي بعد انتهاء ظلال موقعها في الأديان الجنسية السابقة للدين التوحيدي، وذلك بتحميلها المسؤولية اتجاه سلوكها حول عملية الإنجاب التي كانت تتم حسب قواعد التطور الجواني. فبذلك أنهت التجربة المسيحية والإسلامية عزلة المرأة في النظام الاجتماعي، وتحدد موضعها إلى جانب الرجل بمساواة تنظيمية تامة جاءت على قدر دورها الوظيفي الجديد. إن هذا التقدم الاجتماعي الذي جذرته الحلقة الأولى من الدين التوحيدي في شريعتها التوراتية في نماذج سارة ورفقة وراحيل، هو الذي سمح بتشكل نموذج السيدة مريم العذراء في ثنايا تلك المرحلة.

أنا أعلم أنك إذا رجعت إلى الحس المشترك السائد حتى الآن، ستجد هذا الحكم يبدو كأنه يحمل شحنة من المغالاة. ولكنك عند ذلك ستكون قد استجبت لظواهر الوقائع التي تتلقاها من الحياة بدون رؤية مركزية لما يجري عميقاً في مجرى تيار حركة التاريخ. إن إنهاء تهميش المرأة بتحميلها المسؤولية الاجتماعية عن سلوكها في عملية الإنجاب، قد اعتمد على تجربة الزوجات ساره ورفقة وراحيل. أعلنت السيدة ساره قبولها بالدخول في إطار الأسرة، وقامت رفقة وراحيل بتدعيم هذا القرار وتطويره. لقد انتهى بهذا الموقف بقاء تحكم الدافع الجنسي بسلوك المرأة*، وتحولن مع الرجل (إبراهيم وإسحاق ويعقوب) لكي يُخضِعْن سلوكهن لاستحقاقات الإطار التنظيمي الجديد، كما فرضه الرب الإله في إطاره الآسر والمقيّد. وتم الإعلان للمرة الأولى عن دور المرأة الهام في عملية نسج البناء الاجتماعي من خلال تحملها المسؤولية عن سلوكها المرتبط

* عندما يؤكد الكاهن الذي يكلل العروسين في الكنيسة على وجوب اقتداء العروس بالسيدات سارة وراحيل ورفقه، يحقق الإشارة إلى مسؤولية العروس اتجاه عملية الإنجاب، وأنه لم يعد مقبولاً أن تتصرف المرأة كما كانت تفعل في باحات معابد الآلهة الجنسية حين كانت تمارس العلاقة الحميمية بشكل مأجور.

بالحمل والولادة. لقد بدأت عملية إنتاج تطور جديد في عملية التوحد الاجتماعي، تنفصل فيها حركة قواعد التخليق (الحمل والولادة) عن ضبط وتوجيه العقل الحي الفردي (الغريزة)، وتصبح خاضعة بشكل أولي ومتدرج لقواعد التنظيم الخارجية، لتنتهي بعد ذلك بنموذج السيدة مريم العذراء.

خرجت قواعد التنظيم الحي كمضامين للنظام الحي في موقعه الداخلي نتيجة دور الرجل الوظيفي. إنها قواعد مشتركة وواحدة في جسمي المرأة والرجل، وهو ما مكنّ خضوعهما لها معاً، وأعطى الرجل بسبب دوره في توليدها مكانته في عملية التطور الاجتماعي. انتقل الإنسان بانتهاء العصور الوسطى- التي اكتملت فيها استحقاقات نشر الدين التوحيدي بحلقاته الثلاث، المتمحورة حول ظهور نموذج الإنسان الفرد الكامل- ليصبح كآخرٍ اتجاه الطبيعة في إطار الدولة الحديثة. لقد نتج عن هذه العلاقة الجديدة بينهما توسيع دائرة عمل الحركة الحية الموحدة، باختراع "المحرك البخاري"، وأدى إلى إطلاق الحركة الموحدة إلى مادة خارج البيولوجيا (تطور التكنولوجيا)، مما أبرز حاجة ملحة إلى قواعد التخليق، التي تشكلّ جزءاً من النظام الحي المنتج اساساً للحركة الحية في جسم الإنسان، لكي يضع تطوير التكنولوجيا على طريقه الصحيح في مسار التطور الكوني البرّاني. وبذلك تشكلّ واقعياً مع وجود التكنولوجيا حاجة إلى خروج قواعد التخليق لتعمل خارج البيولوجيا، مما أقام علاقة بين جسم المرأة مخلّق وحاضن المادة الحية، وبين التكنولوجيا كمادة جامدة تطلق الحركة الحية ذاتها التي يطلقها الجسم الإنساني (عن طريق ظروف دفع المرأة إلى سوق العمل). لقد دفعت هذه العلاقة بينهما إلى بدء انجذاب جديد للمرأة إلى ساحة العمل، المنكبّ على تطوير التكنولوجيا منذ بداية الثورة الصناعية. وهكذا بدأت مساهمة المرأة في الاجتماع الإنساني تغادر ساحتها التقليدية المحكومة بخصائص التطور الجواني، وتأخذ بالخضوع

التدريجي لقواعد مرحلة التوحد حسب العمل. وأخذت تتشكل قواعد جديدة لعلاقة الانجذاب بين المرأة في دورها الجديد وبين الرجل المنغمس أساساً في هذا الدور، أخذنا نتلمسها الآن، أخذ يتغير بسببها موقعهما في الاجتماع الإنساني.

تطلق عقود القرن الحادي والعشرين، وتالياً قرون الألفية الثالثة السعيدة، منحى تطورياً جديداً يتلقى فيه جسم المرأة ضغط الخارج الشديد، المتشكل من الحاجة الملحة إلى تطوير التكنولوجيا وتقدمها. وهكذا فإن السلام الدولي الذي يعمق حضوره من خلال "صراع الحضارات"* ليصبح سلاماً عالمياً، سيسير على درب محدد لإكمال عملية بناء الاجتماع الإنساني. وذلك من خلال دور المرأة الجديد، الناشئ من علاقة جسمها بتطوير التكنولوجيا وتقدمها. لقد أطلقت المرأة خطوتها التحضيرية في القرن العشرين، في تشكيل حضورها الجديد الذي أنهى حضورها القديم. وستستمر في تشكيل علاقاتها الاجتماعية الجديدة مع الرجل، الناتجة عن تعرض جسمها لمعاناة وضغوط الخارج الذي تتحرك فيه التكنولوجيا.

قرون الألفية الثالثة بدءاً من القرن الحادي والعشرين ستطرح علاقة اجتماع جديدة، ترتكز على الموقع الجديد للمرأة مع الرجل في عملية إنتاج

---

* لا تستغرب- قارئي العزيز- من اعتبار صراع الحضارات طريق إحلال السلام العالمي. فقد كان الصراع والسلام الظاهرين على وتائر مخصوصة خلال تطور الاجتماع الإنساني، انعكاساً لمحرك التاريخ (التوحد)، حيث أن ضغط الأطر التنظيمية الخارجية - المتولدة بداية من إطار الأسرة- على مكوناتها من أفراد الجنس الإنساني، دفعهم إلى حراك صراعي لا مفر منه يرتب عناصر الإطار المادية (الإفراد) في تراتبية معينة مناسبة لطبيعة هذا الإطار، محققاً انسجاماً ينهي دوافع الصراع وبالتالي يحقق السلام. ويكون المتحصل النهائي لهذا التفاعل توحد الأفراد ضمن الإطار. هذا ما كان يحدث على مر التاريخ كلما توسعت الأطر التنظيمية الخارجية ابتداءً من الأفراد ضمن حدود إطار الأسرة، وحتى استقرار الدول الحديثة. وعليه فإن صراع الحضارات الذي نشهده الآن، سيكون الطريق لترتيب كامل الحضارات الإنسانية ضمن إطار النظام العالمي، وهو ما سيحقق لاحقاً السلام العالمي كناتج ضروري له، تظهر صيغته في حضارة إنسانية واحدة، تصطف فيها الثقافات جميعاً تحت شعار حق الآخر في الوجود والتعبير والحوار.

"التوحد حسب العمل". وهذا ما سيظهر في تقنيات صياغة المرحلة الجديدة الممتدة على قرون هذه الألفية، من خلال تولد مظاهر اجتماعية جديدة غير مسبوقة*. ستستفز هذه المظاهر الحس المشترك الذي تشكّل خلال عملية بناء الاجتماع في مرحلة "التوحد حسب المعرفة"، وستعطي ردود فعل متنوعة عند جموع الناس. المرأة المعاصرة والرجل المعاصر كلاهما سيتيه حدسهما في خضم بحر هذا الواقع، الدافع إلى تشكل علاقتهما على الأنماط المناسبة لطبيعة انجذابهما الجديد لبعضهما. وبما أن دوافع إعمار الإنسان للكون بكل ما تتطلبه من جهد بشري هي المنتج للحالة الجديدة، فإن قطاعات واسعة من النساء والرجال ستنحاز تدريجياً إلى هذا الطريق الجديد، وهو ما سيجعل شعار "تحرير المرأة" الشعار المركزي في القرون القادمة. وسيمتد كشعار يشمل الحراك الاجتماعي الإنساني، بعد أن ترسّخ آليات عمل "التوحد حسب العمل" قواعدها واقعياً، المبنية على حق الآخر في الوجود والتعبير والحوار.

الحرية والديمقراطية

لن تكون قراءات الواقع حسب عقلية المؤامرة متطابقة مع ما يجري موضوعياً، وكذلك ستفقد قدرة إقناعها لنا- نحن الذين نعايش تولد الحدث في مطالع هذا القرن- وللأجيال بعدنا. وذلك لأن قراءات عقلية المؤامرة هي انعكاس ضروري لحجم الخفاء والسرية في حضور الشخصية (فردية واجتماعية) في الاجتماع كما استقرت في مرحلة "التوحد حسب المعرفة". إن شعاراً ثانياً يجري تجذيره الآن مع شعار نبذ عقلية المؤامرة وهو "الشفافية". حيث يقوم النظام الضابط لحركة الحدث بالعمل الظاهر

---

* هذا التغير الذي أخذ يتحقق لموقع المرأة في رابطة التوحد الإنساني هو الاساس الذي يرتكز عليه تغيير تصنيفات البيولوجيا في اللون والعرق، وهو ما شكّل في مطلع القرن الحادي والعشرين بداية غرس السلام في العلاقات الإثنية والثقافية، تحت شعار "صراع الحضارات"، وهو ما أدى إلى وصول الرئيس باراك أوباما إلى سدة الرئاسة ناتجاً لذلك.

والمكشوف كاملاً، وبقواعد ونصوص يتداولها وعي الإنسان والتكنولوجيا، تجعل دوافع الحركة الإنسانية المشكلة للواقع كاملة الظهور، ومكشوفة ومدركة. وهكذا يتحقق التكامل التام بين الشعارين السابقين (رفض عقلية المؤامرة، الشفافية)، مما يجعل عملية الإعمار الحاضرة والمستقبلية ظاهرة ومكشوفة بفضل خصائص الدور الجديد للمرأة. وهذا ما سيدعو إلى ظهور آليات جديدة في التطور الاجتماعي تنبثق من هذين الشعارين السابقين، وتغادر، إلى غير رجعة، دائرة الاستبداد المرتكز إلى الفردية، والمتبدي بكل مظاهر الخشونة، العاملة على استئصال الآخر أو نفيه وإقصائه.

شعار الشفافية العامل بانسجام وتوافق مع شعار نبذ عقلية المؤامرة، سيقوم بتسهيل نشر مستوى جديد من شعار "الحرية". يتمثل هذا المستوى الجديد بإزالة تدريجية للحواجز المانعة من إطلاق كامل مضامين قواعد التخليق من جسم المرأة، لتسهيل احتلالها موقعاً جديداً في علاقتها مع الرجل. لقد شكلت مراحل ظهور ثقافات الإنسان- قبل اختراع التكنولوجيا- عملية تحرير قواعد التنظيم من جسم الرجل، وكان ناتجها المركزي إطاراً تنظيمياً (الأسرة) انضوى تحته كل من المرأة والرجل، وما تولد عن حركتهما من مظاهر النشاط الإنساني (تنظيم المهن والحكم). وبسبب ضيق حدود إطار الأسرة، واقتصار الحرية في مرحلة التوحد حسب المعرفة على إطلاق المضامين التنظيمية من جسم الرجل إلى ساحة الثقافة، لم تظهر آفاق الحرية واضحة خلالها. إن الحرية المعاصرة المركّزة على إزالة كل الحواجز أمام إطلاق المضامين التخليقية من جسم المرأة إلى ساحة التكنولوجيا إكمالاً لتطورها، هي ما يرسم لنا الأفق الرحب الذي ستعمل فيه الحرية في قرننا الحالي وما يليه من قرون الألفية الثالثة.

أظن أنك لن تقف مسّلماً بعد الآن بفكرة أن شعار "الحرية" يختص بالأمور السياسية، كما جرى الحديث عنها في القرنين التاسع عشر والعشرين، حين سعت شعوب وأمم كثيرة لإنشاء دولها المستقلة، ودخولها الحداثة عن طريق توليد قيم حياتية جديدة من خلال ربط شعب ما بأرض وطنه. لقد كان الحديث عن الحرية السياسية مدخلاً للحديث عن الحرية الاجتماعية، وشكلت هاتان الدائرتان قاعدة الدور الذي ستظهر فيه عملية التطور الاجتماعي تحت شعار "الحرية" خلال قرون الألفية الثالثة، مطلقةً توجهات جديدة تغيِّرُ العلاقة بين المرأة والرجل جذر التطور الاجتماعي. ولن أدعي أمامك أن تفعيل هذا الشعار كما طرحه منظور هذا الكتاب سيكون أمراً سهلاً، وأنه سيُستقبل ببساطة من جماهير النساء والرجال الآن ومستقبلاً. بل إن حجم المقاومة لهذه الإنشاءات الجديدة سيكون كبيراً جداً، وسيبدو ظاهرياً أن تحقيقه سيكون شبه مستحيل. ولكن تحديد الأهداف الواقعية للدور الإنساني الكوني حسب نظرية "الانفجار العظيم للنظام"، يكشف الدور الإيجابي الذي سيمارسه حضور التكنولوجيا في عملية التطور الاجتماعي. إن هذا يستدعي أن أذكرك "بالاستنساخ" ودوره في تشكيل المادة الحية خارج جسم الأنثى، والآفاق الذاهب إليها واقعياً، من خلال هذا التطور السريع والهائل في التكنولوجيا. وكيف ستقوم قواعد التخليق المطوّرة للتكنولوجيا، بإنضاج قدرة التكنولوجيا في تخليق المادة الحية خارج الجسد الحي.

ولا شك أنك ستتلفت يمنة ويسرة وأنت تبحث عن معنى لشعار "الديمقراطية"، في هذا المنظور الذي ضُبطت به تصورات الوجود الإنساني والكوني حسب نظرية "الانفجار العظيم للنظام". وذلك حين تسمع هذا الضجيج الصاخب والمتعالي، من حواراتٍ بين الاتجاهات المختلفة حول ديمقراطية شاملة أو ديمقراطية مخصوصة، كما تجري في منتديات المؤتمرات السياسية والدولية. وكذلك حين تشاهد هذا القتام

الأسود المجلل لأفق المستقبل، بسبب المعارك الحربية الدائرة بين قوىً تدعو إلى ديمقراطية شاملة، وقوى تقف رافضة لذلك.

لن يرجع بك الكتاب إلى بحث الديمقراطية تاريخياً عند اليونان، فهذا ليس الجذر الذي يشكل مرجعيةً للبحث. إن التصورات التي يطرحها هذا الكتاب قد وضّحت أن الإنسان قبل اختراع التكنولوجيا، كان يقوم بضبط مصلحته وتحديد طريق تحققها، بناءً على برنامجه الداخلي الخفي والباطن حينها، حيث لم تكن الدوافع الداخلية ظاهرة للعلن عند غالبية الأفراد (الرعايا)، بسبب خصائص مرحلة التطور الاجتماعي تلك (مرحلة التوحد حسب المعرفة). هذا الخفاء في آلية تحديد المصالح كان أحد الأسس الموضوعية لظهور الاستبداد في نظم الحكم القديمة بكل أشكالها التاريخية، القائمة على وجود قدرة التوجيه عند نخب معينة، يمتنع على الجمهور امتلاكها. إلا أن التكنولوجيا ذات الحركة الحاملة لخصائص حركة الإنسان، والمكشوفة حاجاتها وآليات تأمينها، جعلت تحديد المصلحة الفردية للإنسان وآلية تحقيقها، أكثر انكشافاً نتيجةً لهذا الاشتراك في خصائص الحركة بينهما. وعليه فقد امتلك غالبية الأفراد، بعد اختراع التكنولوجيا وشيوع استخدامها، مستوى من النضج مكنهم من اكتشاف طبيعة وحدود مصالحهم الفردية، ومحور التوجه الذي يجب أن تتحقق فيه، وأي التيارات السياسية يمكن أن تكون مناسبة لهم. لقد شكل هذا الوضوح النسبي لجوهر مصالح الأفراد وكيفية تحقيقها، القاعدة الموضوعية للديمقراطية في عصرنا الحاضر.

من المستحيل مع تطور التكنولوجيا الذي فرض شيوع الشفافية على كافة محركات التطور الاجتماعي، أن تبقى حالة التسليم لتيارات فكرية، تدعي أن جمهور البشر (نساء ورجالاً) لا يملكون القدرة على تحديد مصالحهم، وأن نخباً معينة هي التي تحدد هذه المصالح، وتختار الطريق

لتحقيقها. إن مثل هذه الدعوى قد انتهى مبرر وجودها الذي كان لها في مرحلة التوحد حسب المعرفة. وهذا ما جعل ضوابط المصلحة العامة وبوصلة توجيهها مدركة من غالبية الجمهور. ولذلك فإن دعوى الوصاية على الإنسانية- باختلاف البراهين التي تعتمد عليها- قد انتهت إلى غير رجعة، وذلك من خلال دخول التكنولوجيا واقعياً في الاجتماع، وطبيعة التطور الجديد الذي أخذت تغذي به التقدم الإنساني منذ القرن التاسع عشر بالثورة الصناعية. إن هذا الجديد هو ما أدى إلى سحب البساط من تحت أقدام هذه الدعوى رغم ضرورتها في مسيرة التطور الاجتماعي في المرحلة السابقة، وأنهى معقوليتها في الوقت الحاضر. إن ما يحاوله المستمرون على هذه الدعوة يشبه منع سطوع الشمس صباح يوم صاح بإغلاق الأعين، ثم بوضع ملاءات سوداء على النوافذ المطلة على الأفق الرحب.

التكنولوجيا إلى أين؟

لم يعد من الممكن منذ القرن الحادي والعشرين أن يتخيل كاتب حياة إنسانية خالية من حضور التكنولوجيا، وذلك بسبب حالة التغلغل والانسراب للتكنولوجيا في حياة الإنسان وفي نشاطه الاجتماعي. وسبب هذا التغلغل هو امتلاك التكنولوجيا لحركة نابعةٍ أصلاً من الحركة الحية الموحَّدة للإنسان، وطبيعة التكامل بينهما. لقد أحدث هذا الأمر استطالة في حدود قدرة الإنسان، حتى بدت خيالات الحالمين التي كانت تشمل على استحالات واقعية أمراً ممكن التحقق، نتيجة لما أخذ يتشكل في ظاهرة العيش الإنساني المعاصر. إن تغيّراً في الاجتماع الإنساني نتيجة حضور التكنولوجيا قد أخذ يتحقق في ثلاث ساحات:

أولها: أن صورة الوجود- بما فيه الإنسان- قد أخذ يظهر في عرض جديد، بسبب خصائص رصد التكنولوجيا للوجود من حيث سعته ودقته.

ثانياً: وحدة المادة الجامدة المكوِّنة لمادة التكنولوجيا ومادة الطبيعة، سمحت للحركة الحية الموحَّدة- التي أخذت مداها بعد انتقالها من الإنسان إلى المادة الجامدة باختراع التكنولوجيا- أن تقيم علاقة جديدة (حلقة جديدة للتوحيد الكوني) مع النظام الطبيعي العامل جوانياً في مادتها الجامدة.

ثالثاً: خصائص الحركة في التكنولوجيا (سرعة، سعة، دقة) والتكامل بينها وبين حركة الإنسان، أخذ يفرض خصائص جديدة على نشاط الإنسان، دافعاً به إلى إطلاق حركة أنقى (خالية من خصائص الفردية)، متأثرة بخصائص التكنولوجيا السابقة. وهذا ما منح الإنسان الآن حضوراً تختلف مواصفاته عن مواصفات حضوره في مراحل التوحد السابقة. إن هذا قد أخذ يُدْخِلُ الاجتماع الإنساني في صياغة جديدة، تسمح بأن يقال بأن نمطاً جديداً من حياة الإنسانية قد أخذ يحل محل نمط حياتها القديم.

سيتنامى التكامل بين حركة الإنسان وبين حركة التكنولوجيا في هذا القرن وفي القرون التالية للألفية الثالثة، بسبب انتمائهما إلى أصل واحد، وهو الحركة الحية الموحَّدة الناتجة من واقعة التوحيد الكوني. إن حاجة التكنولوجيا الضرورية لمضامين قواعد التخليق، التي يمثل جسم المرأة محلَّ عملها، ستؤدي إلى الضغط على المرأة خلال قرون هذه الألفية لإطلاق هذه المضامين، لاستكمال قدرة التكنولوجيا على إطلاق الحركة الحية الموحدة إلى آماد الكون كله، انطلاقاً من كوكب الأرض. سيتحقق تأثير شديد للتكنولوجيا في الاجتماع الإنساني من خلال خروج كافة مضامين النظام الحي (قواعد التنظيم والتخليق). وهذا ما سيدفع الشفافية في حركة الإنسان لتصل إلى كمالها المطلق، مترافقةً مع أمن كامل يفرضه انتهاء هذا التجاذب الذي ساد مراحل التوحد في تاريخ الإنسانية، الناتج عن كل تأثيرات الفردية الخفية والمستورة. وبهذه الخطوط العريضة للرؤية ستؤدي التكنولوجيا دورها في تخليص الحياة الإنسانية من آثار

الفردية التي حملتها في كل مراحل الاجتماع الإنساني السابقة*. وهو ما سيمنح الحركة الإنسانية انسجاماً داخلياً وانسيابية، تتحقق بها آمالها التي حملتها منذ فجر انطلاقتها الواعية.

ستستمد التكنولوجيا تطورها من حركة الإنسان، بعد أن يحتل جسم المرأة موقعه كطرف مركزي، يمتلك إطلاق قواعد التخليق الحي. وسيكون هذا التطور هو ما يشكل هيكلية حضور الإنسان الجديد في قرون الألفية الثالثة. هذا الأصل يجعل من المتعذر تلوين علاقة الإنسان بالتكنولوجيا بظلال قاتمة مستقبلاً، ويساهم بشكل جاد بالكشف عن دورها الإيجابي في اجتماع الإنسان. إن القلق والخوف الذي يلوّن أبحاث علماء المستقبليات الآن عن هذه النهاية التعيسة للجنس الإنساني، حين ستنتقل السيادة على الأرض والحياة إلى التكنولوجيا، إنما يرجع إلى عدم وجود تصور واقعي لحركة الإنسان ودورها في إنشاء الواقع الموضوعي الجديد، وكيف تحقق اختراع الآلة وتطور التكنولوجيا. إن مخاوف كهذه تنبعث من بقاء الخفاء والغموض المجلل للظاهرة الإنسانية يحكم دراسات علماء المستقبليات. إنها ظلال سلبية تلوّن أبحاثهم بألوانها المتشائمة، وتمنعهم من رسم صور المستقبل مطابقة للوقائع، بسبب عدم وجود منظور كاشف للتطور الاجتماعي ودوره بتطور الكون الفيزيائي.

مهما قفز الإنسان على الأرض فهو غير قادر أن يحرك زلازلها، ومهما نفخ هواءً من فمه فهو لا يتمكن من أن يحدث أعاصير فيها، ومهما أوقد من نار فهو لا يستطيع أن يطلق براكينها. ولكن الإنسان بعد آلاف

---

* سيجد القارئ صعوبة في الخروج من إسار تصورات المستقبل الإنساني مع التكنولوجيا كما تعرضها أفلام الخيال العلمي، التي تحمّل التكنولوجيا ما رافق حركة الإنسان من وجود شر وخير وغيرها. إن تصورات هذا الكتاب تعلن أن حركة التكنولوجيا لا تستنسخ ما رافق حركات الإنسان، لأن المادة الجامدة لا تنتج حركتها الموحدة على الطريقة ذاتها التي ينتج بها الإنسان حركته.

سنواته التي راكم فيها انتاجات حركته الموحدة على سطح الأرض، استطاع منذ القرن التاسع عشر أن يؤثر تدريجياً في نظام الطبيعة. وتنامى هذا التأثير المرتبط بالتقدم التكنولوجي، حتى إنه أخذ يعطي إشارات لبدء تغيير في مظاهر المناخ والبيئة.

رأت البشرية هذا كله ناتجاً من أنشطتها المختلفة في الطبيعة، وليس ناتجاً عن نظام الطبيعة الجواني ذاته، فاستخدمت مصطلح "النشاط البشري" إشارة إلى سبب هذا التغيّر في المناخ والبيئة. إن مصدر هذا التغيير هو دور التكنولوجيا. إن ما يجري على سطح الأرض في مطلع القرن الحادي والعشرين يكشف خطوط مسار التطور الكوني البرّاني، في مراحله الأولى، معلناً تشكل موجة من موجات الانفجار العظيم للنظام، يتحدد بها ساحة جديدة لعمل التوحيد الكوني.

مادة التكنولوجيا المُطلقة للحركة الحية الموحدة، هي ذاتها مادة الطبيعة الجامدة على سطح الأرض. وهذا ما أظهر التكنولوجيا حلقة وسطى في انتقال توسع أمواج عملية التوحيد الكوني، الذي ابتدأ عمله أولاً في حيّز المادة الحية بعد الانفجار العظيم للنظام، ثم قام بالانتقال إلى حيِّز المادة الجامدة المشكلة للكون الفيزيائي. وبهذا الترتيب نرسم خط ما تمثله التغيرات في المناخ والبيئة على سطح الأرض. إن جديداً يتولد في مراحل إعمار الكون الفيزيائي، ناتجاً من تأثير التكنولوجيا حسب رؤية الكتاب. إن هذه الآثار الأولية في المناخ والبيئة هي نواتج واقعة التوحيد في الطبيعة كما تساءل عنها العالم جواو ماغيجو، وهي تشكل خطوة في ظهور توحد عمل قوى الطبيعة الأربعة، كما ستحدث واقعياً في قرون الألفية الثالثة، حين تعمل هذه القوى موحدة تحت مظلة نظام حي خارجي واحد.

ما يحدث في مناخ الأرض وبيئتها حسب هذا التصور، لا يلتقي مع وصف القائلين عنه، بأنه عمل تخريبي يدمر به الإنسان- ككائن شرير- الطبيعة بتصرفاته الهوجاء. بل يتضح أنه موجة جديدة من انفجار النظام، الذي أنتج واقعة التوحيد الكوني وأطلق موجتها الأولى في المادة الحية (الإنسان)، ثم قام الإنسان من خلال نشاطه بنقل عمل التوحيد إلى الطبيعة بوساطة التكنولوجيا. فحسب منظور كتابنا، هذه التغيرات المناخية هي عبارة عن المراحل الأولى في عملية البناء الجديدة للطبيعة (إعمار الكون).

ها هي أدبيات الإنسان اللغوية في أرشيفه المعرفي الموروثة من مرحلة التوحد حسب المعرفة، قد وازنت بين وجوده وبين وجود الحيوان، وقررت جوهر تميزه بأنه (المخلوق على صورة الله)*، وأنه (ابن الرب الممنوح- من بين كل المخلوقات- صلاحية الآب في السماء)†، وأنه (خليفة الله في الأرض الحامل لأمانة أبت السماوات والأرض حملها)‡. وقد رفعت هذه النصوص قيمة وجوده، ودور عمله إلى مستوى مركزي في إعمار الكون. وإذا كانت الأدبيات المعرفية قد قيّمت الإنسان بهذه الأحكام الإيجابية، و بحسب المنظور الشامل لطبيعة النشاط الإنساني و دوره، بالإضافة للفهم الجديد للعلاقة بين الإرث المعرفي للإنسان (بما فية الدين التوحيدي) و بين العلم الذين عرضهما كتابنا هذا، فإن خطاب العلم الحاضر مطالب بأن يتخلى عن التناقض في أحكامه، حين يصف دور النشاط البشري في المناخ والبيئة بأنه عمل تخريبي، بينما هو نشاط إنساني إيجابي وبنّاء في تطويره للعلم والتكنولوجيا. إن تصحيح هذا التوصيف للنشاط البشري، يمنح تطور العلم حالة الاتساق والانسجام مع

* التوراة في سفر التكوين.
† الإنجيل في خلاصة أحكامه.
‡ القرآن في وصف دور الإنسان في الكون.

خطاب الإنسانية المعرفي، ويسمح له بأن يستمر في تطوره بدون شوائب وعوائق، ويساعده على التخلص من مظاهر الأنانية المتلبسة ببعض اندفاعات النشاط الإقتصادي.

سعى هذا الكتاب جاهداً ألا يدخل بقارئه ساحة تقنيات إثبات نظرية "الانفجار العظيم للنظام"، وكيفية توليد تصور الوجود منها. مكتفياً بالتعامل مع أحكامها المركبة، ومطبقاً نتائجها لكشف دور الإنسان في تطور الكون الفيزيائي بالخطوط العريضة. ولكنّ شرح عمل التكنولوجيا في النظام الطبيعي في هذا القرن، يقتضي أن يعرض الكتاب بالخطوط العريضة لطبيعة العلم الحديث ومساره حسب هذه النظرية.

العلم التجريبي في سياق منظور الانفجار العظيم للنظام، هو حلقة كشف للوجود أعلى من حلقة معرفة الإنسان الشخصية المتولدة على قدّه وبقدرة حواسه. وقد وضحت الآن ملامح هذا الاتساع متجاوزاً قدرة الإنسان على الفهم، ويظهر أول ملمح له بهذا التخصص الدقيق للعلماء في فروع العلم الكثيرة والمتعددة، مما أخذ يظهر بداية عجز عند الإنسان المستخدم لمعرفته الشخصية (الحس المشترك) في فهم ما ترصده التكنولوجيا في بنية المادة الجامدة والحية*، وهي كلها تدل على بدء ظهور قدرة كشف دقيقة جداً، وواسعة جداً، وسريعة جداً، تتلخص معالمها بمصطلحي "فمتوثانية" و"فمتو متر"†، وهي ما تعجز عن متابعته حتماً حواس الإنسان التي تضبط الوجود بالـ (سم، ثا) تقريباً. وهكذا تخطو التكنولوجيا المتشكلة من العلم التجريبي الآن، لتشكل مستوى كشف جديد للوجود يناسب دورها في التوحيد الكوني، موسعة انفصاله عن معرفة

* التقارير التي ترسلها محطات الفضاءعن الكون، وقدرة أدوات الرصد لبنية الذرة، وصور المرنان المغناطيسي لأجهزة الإنسان، وتحليل الـ DNA في الخلية.

† فمتو جزء من المليون من البليون (10^{-15}).

الإنسان. وهذه المرجعية للعلم المتفاعلة مع دور التكنولوجيا، تسمح بتعليل ما يجري الآن من أشكال الجديد الذي يتحقق في حياة الإنسان.

النظام الحي بحدود جسم الإنسان الفرد وقدرة حركته، هو ما يعمل في ساحة الكشف العلمي الآن. فمثلاً يجري تطبيب الجسم الإنساني حين يمرض الآن من خلال ما تراكم من معلومات منبثقة من نظامه الداخلي في ساحة العلم. والمعلومات عن الطبيعة الجامدة متعددة المواد، تشكل مرتسم تركيبها الداخلي، وهي التي سمحت للإنسان باختراع التكنولوجيا وتطويرها. هذا الظهور لمضامين النظام الحي والجامد إلى خارج المادة هو ما يطلق عليه مصطلح "العلم"، الذي راكم، ولا يزال يراكم، نتيجة هذا التدفق المتسارع للمعلومات، كماً هائلاً منها. حتى ليبدوَ وقت الانقطاع بين معرفة الإنسان الشخصية المصاغة على قد حواسه، وبين العلم بخصائصه ككشاف هائل للكون كله، قد أصبح قريباً جداً.

التكنولوجيا لا تخرّب الطبيعة، وشر الإنسان وطمعه لا يستنفذ خيراتها، كما يتم وصف ذلك على خلفية الكشاف المعرفيٍ الذاتي. ليس السيناريو الموضوعي الذي يعمل الآن يتطابق تماماً مع هذا الفهم. لنقم بمقاربة مع التكنولوجيا، وننظر إلى دورها المرتقب في المادة الفيزيائية، من زاوية قراءتنا للوعي في تشكل الإنسان المتميز عن الحيوان. لقد كان الوعي الإنساني زيادةً في البنية البيولوجية للمادة الحية، التي وجدت وتنوعت في سياق التطور الجواني. وقد تم بالوعي اكتمال بناء جسم الإنسان كمتجسد مادي يطلق الحركة الحية الموحَّدة، باعتباره قاعدة أول موجة من موجات ظاهرة التوحيد في الكون. وأنت تذكر قارئي العزيز ما حدثتك عنه، حين جرى الحديث عن تشكيل الوعي وقت تخلّق الجسم الإنساني، وما حدث من تغيير في بيولوجيته، وتحولّه من الانغلاق إلى الانفتاح، بناء على تأثير الموقع الخارجي للنظام الحي الذي تشكل

بالانفجار العظيم للنظام. إن ما حدث في البنية البيولوجية كمادة كونية، لتنتقل من كونها تحكم بالموقع الداخلي المغلَق للنظام الحي، إلى وجود مادي مفتوح يتواصل ضرورياً مع الموقع الخارجي للنظام الحي في إنتاج حركته الموحَّدة الجديدة، هو ذاته ما يتكرر حالياً في الطبيعة الجامدة على سطح الأرض، حين تقوم التكنولوجيا بتسريب الحركة الحية الموحّدة إلى عمق تشكيل النظام الطبيعي الضابط الأرض، لكي تتم عملية انفتاحٍ في بنية نظام المادة الجامدة، لنقل فاعلية الحركة الحية الموحدة إليها، بعد نضوجها واكتمالها في وجود الإنسان. وهذا ما يُحدث الآن تغيراتٍ تدريجية في الأرض قبل استقرار البناء الجديد لها، وهو ما نشهد الآن بداياته في تغيرات المناخ والبيئة في كوكبنا. إن ما تقوم به التكنولوجيا يحقق في النهاية بناء كرة أرضية جديدة، مطابقةً لجدة جسم الإنسان مقارنةً بجسد الحيوان، وذلك ليتحقق فيها عمل التوحيد الكوني، لاستكمال نمو مسار التطور البراني*.

كانت نصوص المعرفة الإنسانية المتحدثة عن العالم الآخر، تؤشر إلى مستقبلٍ أفضل للكون والإنسان، يخالف ما كان معروضاً في خريطة الوجود المعرفية حين ظهر النص الديني تاريخياً. إن نتائج التقدم المتراكمة، تؤكد الذهاب إلى وجود جديد على سطح الأرض في الألفية الثالثة السعيدة، لا يبقى الإنسان الفرد فيه هو المطلق الوحيد للحركة الموحَّدة. إن تشكل هذه الواقعة يرسم وجوداً جديداً، وهو يفرض قراءة واقعية للنص الديني على هذه الخلفية ترينا كامل مضامينه، وتسهل

* السلوك الإنساني يتكون من الفاعلين والمعارضين والمتفرجين، ومجموع هؤلاء وتناقض مواقعهم وصراعاتهم، هي التي تنشئ مسيرة حركة التاريخ. ولهذا فإن هذه الرؤية لا تساند الداعين إلى تجاوز قواعد النظام وعدم مراعاة تدرج المسيرة، ولا تنحاز إلى مخاوف الذين يريدون ان ينهوا خط عمل التكنولوجيا بعد أن نضج وبدأ يعمل مستقلاً، ولا تحمل تردد ولا مبالاة المتفرجين الذين ينسرب إليهم الذعر والخوف. إن هذه الرؤية هي صورة لما يجري، أما استراتيجية العمل وخططها وبرامجها فهذا مستوى من العمل البحثي لا يعرض له هذا الكتاب.

استخراج كل ما يمكن أن يحمله نص لغوي شكَّل ذروة مرحلة إنتاج الكشف المعرفي (الذاتي). إن التصورات التي أنشأها كتابنا هذا، ترينا أن الإشارة في كتب الدين التوحيدي صحيحة، من حيث هي نبوءة مستقبلية لما سيجري بالنسبة لإنسان ذلك العصر. إن الاستجابة السلوكية التي تدعو إليها بعض الاتجاهات في قراءة ذلك النص، التي تتوهم أن تخريب الطبيعة في خضم التنافس بين الشركات الكبرى، والصراع بين الدول العظمى، هو طريق تحقيق النبوءة، لاتشكل الاستجابة العملية الصحيحة لما يجري بالعلم واقعياً. إن الفهم المعرفي للجنس الإنساني والاستجابة السلوكية له، يجب أن ينبعا من تصور لما يمثله العلم الآن في واقعنا، **الذي يلزمنا أن يكون سلوكنا خاضعاً بشكل كامل لضوابطْ إطار النظام الدولي ثم العالمي.**

تشكَّلَ السلوك الإنساني ناتجاً للتوحيد الكوني بين موقعي النظام الحي، وهذا هو الأصل الكوني الذي ما زالت الإنسانية تنتج مسيرتها حسبه، في ظهورات الدول والمجتمعات. النظام الدولي هو إطار تنظيمي متولد من ذات النظام الحي للإنسان بعد أن توسع وأصبحت الأرض ونظامها الطبيعي منضويين ضمنه. ووجوب خضوع الدول له ينشأ من ذات الأصل الذي ألزم الإنسان الفرد بمختلف تصنيفاته بالخضوع لنظام الدولة الحديثة قبلاً، ومن قبلها الالتزام بالإيمان والشريعة الموحى بهما من "الله الحي"*.

* هذا الكتاب يؤشر إلى عنوان لوجود الإنسان مربوط بعملية التوحيد الكوني. وهو بذلك لا يرى أن الله الحي قد شكل قواعد الدين في علاقة الإنسان به فقط. بل يرى أن الله الحي هو دلالة لفظية على **القوة التنظيمية الحية للكون كله**، وقد صاغه الدين التوحيدي حين كانت فردية الإنسان وشخصانيته هي مجال عمل التوحيد الكوني. وحين نضج سلوك الإنسان بإيمانه بالرب والتزامه بشريعته، انتقل الضبط إلى ساحة الطبيعة عن طريق إطار الدولة الحديثة الجامعة بين الإنسان والطبيعة. ولهذا فإن واقعة التوحيد الكوني (مشروع الله الحي بمفردات الخطاب الديني) ليست مقصورة على حلقة الدين فقط، بل هي كذلك أساس تشكل حلقة الدولة وما سينتج عنها من أطر تنظيمية دولية وعالمية. إن الجوهر الذي تلاحظه هذه الحاشية هو أن الدين التوحيدي كان ذروة تطور مرحلة الإنسان الشخصاني. وحين انضمت الطبيعة كمادة جامدة عن طريق الإنسان إلى واقعة التوحيد الكوني، وتشكلت الدولة الحديثة مع كل متولداتها إطارا تنظيميا مناسباً لذلك، انتقل

ولهذا فإن خضوع جميع الدول للقانون الدولي هو متحقق عملية التوحد الإنساني، المجسّدة للتوحيد الكوني الذي تشكل بالانفجار العظيم للنظام. والنظام الدولي يفرض تغذية تطوير التكنولوجيا لتحقيق التطور الإنساني، ويضع قيوداً صارمة على الأفراد والمجتمعات سيتم الالتزام بها، حتى تتم عملية التطور بالتوازن المطلوب. وهذا ما أوضحه الكتاب حين بيّن أسسه الموضوعية وقدم برهانه التجريبي على صحة أحكامه، ليمكّن المشرعين من وضع النظم والقوانين المحافظة على التطور المتوازن للطبيعة في الأرض.

ستنطلق التكنولوجيا في عملية توليد نظام مفتوح (مكشوف بالعلم) لطبيعة الأرض، يستجيب لضبط وتوجيه الموقع الخارجي للنظام الحي، الذي سيشكل حضوراً مسيطراً على مساحة الكون. وسيعمل هذا المستوى من التوحيد الكوني في إكمال إعمار مادة الكون. إن انطلاقة التكنولوجيا ستضبطها الحلقات العليا من النظام الحي في مستوييه الدولي والعالمي، وسيكون الضبط والتوجيه في التوصل إلى وضع قواعد توجيه حركة التكنولوجيا الصادرة من نشاط المجتمعات والدول بما يناسب هذا الهدف، من حيث أن هذه الخطوة جزء من مسيرة التطور البراني للكون. ستكون الصورة في خطوطها العريضة على الشكل التالي: هذه القوى الإنسانية المستثمرة في التكنولوجيا، والساعية وراء الربح والقوة، هي أداة إنتاج التطور المطلوب. ولكن كميته واستخدامه وطرائق توجهه إنما تخضع لما يفرضه النظام الحي في أطره الدولية والعالمية، من حيث أنهما استكمال لكل ما أنتجه الإنسان من قواعد تنظيم عملية وناجحة خلال مسيرته التاريخية. إن تخليق التكنولوجيا ومدى آثارها في الطبيعة، يخضعان

المشروع لمرحلة الموضوعية (اللاشخصانية)، بسبب دخول عنصر غير إنساني إلى دائرة التوحيد. فمرجعية الدين والدولة والنظام الدولي والعالمي هي واحدة تعود إلى واقعة التوحيد الكوني.

للنظام الحي إيجاداً وتنظيماً، والذي يوشك أن يتم كمال إرساء قواعده برانياً.

الخاتمة

لا يمكن فهم ناتج ما حققه الإنسان فرداً أو مجتمعاً في تاريخه، وما يفعله الآن. ولا فهم شيء مما يحصل في الطبيعة حوله، دون صورة عامة للوجود (إنساناً وكوناً) تشكل خلفية للفهم، تصبح أصلاً تصدر عنه رؤية الإنسان للأمور السابقة. ويجد الإنسان المعاصر في القرن الحادي والعشرين أرشيفاً هائلاً للمعلومات عن الكون وعن ذاته، لم يتشكل كونياً مثله من قبل. وهذا ما يغريه ليقوم بجمع أجزائه كلها، ليشكل صورة شاملة للوجود، تكشف طبيعة دوره وتعلله. إلا أن مثل هذا الكم الهائل من قطع الـ(puzzle)، يحتاج إلى تصور مركزي تُرصف حسبه هذه القطع، حتى يتشكل من تجمعها صورة للوجود تطابق الواقع الذي يتحرك فيه الإنسان.

لقد أخذ هذا الكتاب على عاتقه تقديم ملامح هذا التصور مرتكزاً إلى الإنسان. وقد انتزعه من نظرية علمية عن الإنسان وجوداً وتاريخاً ومستقبلاً، تسعى الآن لأن تأخذ مكانها في ساحة العلم الحديث. إن سنوات هذا العقد من القرن الحادي والعشرين تفرض على كل فرد منا أن يملك تصوراً مثل هذا. إلا أن الطبيعة التفصيلية للمعلومات وكمها الهائل في العصر الحاضر، تجعل ترتيبها في سياق عملي، يشكل صورة متطابقة مع خريطة الواقع، أمراً غاية في الصعوبة. لذلك فإن الكتاب اختط مساراً يعرض فيه بالخطوط العريضة خريطة الوجود بشقيه (الإنساني والكوني)، واصلاً بينهما بانسجام يكشف جوهر دور الإنسانية، من خلال خصائص ما تحقق في تجربتها الواقعية. وبسبب جدّة النظرية وعدم مناقشتها في المحافل العلمية بعد، التزم الكتاب طريقاً ابتعد فيها قدر المستطاع، من أن يكون نقلاً للأبحاث النظرية التي قامت عليها نظرية "الانفجار العظيم للنظام". فتجنب قدر الممكن عرض تقنيات البحث لإثبات صحة النظرية، وابتعد عن كل ما تشكل صعوبته عائقاً أمام قدرة

قارئه* على تلقي هذا التصور الجديد، مستنفذاً في عمله ضمن المستطاع خصائص اللغة وقدرتها على التعبير بموضوعية عن بحث مثل هذا.

لقد كان هذا هو الدافع وراء تقديم الكتاب بشكله هذا إلى القراء. لهذا فإن هدف الكتاب هو أن يقدم لقارئه الذي لم يطلع على نظرية "الانفجار العظيم للنظام" تصوراً لوجود الإنسان بمعايير منهج العلم التجريبي، تبرز انسجام وجوده التاريخي مع الناتج الذي شكله نشاطه على سطح الأرض، وتمكن من قراءة إنجازاته على مختلف محاور النشاط الإنساني، كاشفة عن جوهر انسجامها مع مكوناته البيولوجية، المشتركة في عمومها مع الحيوان. وتعرض أسس تميزه التي شكلت قاعدة هذا كله، والتي استطاع الإنسان من خلالها مراكمة نتائج هذا التميز حتى الآن. وكذلك سعى الكتاب لأن يقدم آفاق الصورة لما هو متوقع من انتاجاتٍ في مستقبل الإنسانية، وحدود آثارها في الطبيعة، وهل ستستطيع لاحقاً أن تتلاءم مع هذه المتغيرات، رغم أنها أخذت تثير قلق الإنسانية وذعرها الآن.

نستطيع أن نتذكر نص جواو ماغيجو الذي يؤكد فيه على الحاجة إلى إنتاج نظرية علمية توحّد بين الثقالة والكموم، لنرى أن الحاجة إلى إنتاج نظرية علمية لكل الأشياء، توحّد بين الكون الفيزيائي وبين الإنسان وتكشف عن الصلات بينهما، أكثر إلحاحاً بكثير مما التقطه العالم الفيزيائي جواو. لأن عدم وجود نظرية علمية بهذه السعة تضم كل نشاطات الإنسانية، شكل ضغطاً هائلاً ومربكاً على جزئيات نشاط الإنسان المعاصر وإنتاجاته. وقد ظهر هذا الضغط بأشكال واقعية كثيرة، تمثلت بافتقاد عناصر التقدم الإنساني على كامل محاوره؛ لرؤية شاملة تساهم باستمرار التقدم والتطور، وتمنح الإنسان اطمئناناً لما ينتجه. لقد عرض

* استخدم الكتاب مصطلح "القارئ غير المتخصص" وقد قصد به مطلق قارئ له لم يطلع بعد على نظرية "الانفجار العظيم للنظام"، في شكلها العلمي.

هذا الكتاب الخطوط العريضة لرؤية شاملة للوجود تحقق هذا كله، مرتكزاً إلى نظريةٍ جمعت بين الإنسان وبين الكون الفيزيائي، سمح لها بأن توصف بـ "نظرية كل الأشياء".

لم يكن من الممكن أن يبدأ الكتاب من نقطة الصفر، وكأن الإنسانية لم تبذل جهداً في سبيل إنتاج عمل كهذا. لقد استفاد البحث عن النظرية بشكل واضح من هذا التوق الذي ألح على أينشتاين، في بحثه العلمي خلال ثلاثة عقود. وكذلك استفاد من اندفاع كبار علماء الفيزياء بعد آينشتاين، في جدّهم لإنتاج نظرية توحّد بين الثقالة والكموم، بكل ما أفرزه البحث في نفوسهم من انطباعات، تنوس بين بصيص أملٍ متفائل، يقضمه في الجانب الآخر يأس شديد من إمكانية تكميم الثقالة حسب تعبير ماغيجو. وكذلك استفاد البحث من محاولات علماء البيولوجيا والانثربولوجيا، في سعيهم لتقديم صورة للإنسان بمعايير العلم التجريبي- استجابة منهم بشكل مبهم وغامض لاستكمال تحديد الموجودات التي يجب أن تجمعها "نظرية كل الأشياء"- التي اصطدمت بصعوبات تطبيق المنهج العلمي التجريبي على الإنسان.

لم تكن هذه هي المحاولات الوحيدة التي استفاد منها الكتاب. فقد رصد الكتاب محاولات عديدة، تمت حين كانت المعرفة الإنسانية هي أداة البحث، وقد جمعها مصطلح "الفلسفة". فقرأها كاشفاً جذرها المنهجي الذي يجمعها جميعاً. لقد كشف الكتاب أن الفلسفة هي محور البحث المعرفي بالوعي الإنساني الذاتي، لتشكيل تصور شامل لكل الأشياء (الإنسان والطبيعة) يمكن أن يربط بينهما بشكل منسجم. وكان طريق الفلاسفة وعراً وصعباً، بسبب محدودية الحواس أداة الوعي الإنساني. وهذا ما جعل محاولات الفلسفة تظهر في أسئلةٍ تحتاج إلى أجوبة لم يكن من الممكن التحقق منها واقعياً.

ورصد الكتاب أيضاً محاولة معرفية أخرى (الدين)، تشكلت عميقاً في التاريخ الإنساني قبل الفلسفة، ثم رافقت ظهور الفلاسفة في الألف الأولى قبل الميلاد. لقد شكلّت هذه المحاولة المعرفية إلى جانب الفلسفة منهجاً معرفياً آخر، تناولت فيه إشكالية تقديم تصور شامل للإنسان ودوره بشكل مركزي، محضوناً بالوجود الطبيعي في حدود الأرض والسماء. لقد كانت محاولة ترجع نشأة دروبها إلى زمن مغرق في قدمه من تاريخ وجود هذا الإنسان، وكانت مظاهر هذه النشأة تغيب كثيراً في خضمّ تشكيل لغة الإنسان تاريخياً. لقد كان منهج بحث لا ينطلق- كما هي الفلسفة- من تساؤلات الوعي أمام وجودٍ مادي خارج الذات.

كان هذا المنهج المعرفي (منهج الدين) درباً ارتكز البحث فيها على جوابٍ مسبق قال ما لديه بثقة تامة، معتمداً على مصدر خفي لا يستطيع الوعي المستخدم في الفلسفة أن يتعامل معه. لقد استند بثقة مطلقة إلى مصدره، اعتماداً على هذا الانسجام التام بين البنية الخفية لداخل الإنسان، وبين الضوابط الخارجية لحركته، التي منحته خصائص سلوكه التي ميزته عن الحيوان. لقد شكلت كتب الدين التوحيدي وأدبياتها الأثر الأبرز لإنتاجات هذا الاتجاه، وتمكنت بجمعها المنسجم بين ضوابط السلوك الإنساني، وبين مشكل الحركة المطلقة من داخله (القلب)، من إنتاج تصور مركزي لوجود الإنسان، عرض إلى جانبه وجود الطبيعة الحاضنة له بشكل ثانوي. عرض خطاب الدين التوحيدي هذا التصور الشامل في سياقٍ تطوري، ركَّز على إبراز وجود الإنسان المركزي ودور عمله، كناتج لتميزه عن الحيوان. وقد أدى الخطاب ذلك كله من خلال ألفاظ محددة وصياغات مخصوصة، ما لبثت أن استغلقت دلالاتها بسبب خصائص تطور الاجتماع الإنساني، لتدفع أصحابها لأن يقفوا أمامها مقدسين لها، ومستخرجين من معانيها تصوراً لكل ما يدور في حدود حياة الإنسان الشخصية. وهذا ما جعل مرجعية التصور الديني للوجود بشقيه

الإنساني والطبيعي، تعتمد على نص لغوي يتحكم بكامل جزئيات الصورة، ويعرضها بشكل يعجز المنهج العلمي عن التعاطي معه.

دين قدَّم تصوراته الشاملة، مبنية على خصائص اللغة الإنسانية حسب تنوع صيغها التي تعدُّ بالآلاف. وقد تشكلت تجليات هذا التصور في مساراتها الخفية والغامضة حسب مستوى تطور اللغة التي تشكلت بها ثقافة كل جماعة. وكان ما دل عليه مصطلح "الدين التوحيدي" بحلقاته الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام) هو ذروة هذا الدرب، حين قامت كتبه برصد هذا المسار التطوري، وتصنيفه حسب طبيعة اللغة التي صيغت بها. و**فلسفةٌ** جاءت صدىً لنضج وعي الإنسان الفرد، الراصد لأجزاء الوجود المادي الخارجي انطلاقاً من ذاته، شكلت أسئلة كثيرة تجدُّ لأن تصل إلى تأكيد جواب لها كتأكيد الدين. و**علمٌ** نضج من وجود التكنولوجيا إلى جانب الإنسان. سمحت خصائصه البحثية أن يمتلك يقيناً كيقين الدين،و يختلف عنه بان أداة يقينه هي التجربة المؤكدة للحكم، وليس ترابط الألفاظ في منطق لغة الإنسان. **لقد قدم تجريب العلم أجوبة عن أسئلة تتقاصر أمامها أسئلة الفلسفة، وعرض أجوبتها في سياق يقيني يطابق يقين الدين، ويمكن الإتفاق على نتائجه دائماً.**

هذا هو الوجود كما ظهر في تصورات العلم الحديث والفلسفة والدين، وكانت مناهجها تلح في إظهار الحاجة إلى نظرية تجمعها كلها "نظرية كل الأشياء". لم تكن هذه المعطيات تسمح أن تعتمد النظرية مناهج الفلسفة الحاملة لعجزها البنيوي، الظاهر في صياغة أسئلتها. ولا أن تعتمد مناهج الدين المرتكزة إلى يقين أخذت تضطرب ثوابته، بسبب خصائص حدود الصورة التي رسمتها التكنولوجيا بسعتها ودقتها وضخامة سرعتها، وخروجها عن حدود شخصانية الفرد. **لقد كان المنهج العلمي بخصائصه**

المعتمدة على أسئلة الفلسفة، والمتوصلة إلى نتائج تحمل يقينية الدين، هو الأداة المناسبة لإنتاج هذه النظرية.

قدم هذا الكتاب تصوراته في صفحاته السابقة بالخطوط العريضة، عارضاً منظوراً جديداً للوجود بشقيه الإنساني والكوني، مقيماً ترابطاً بينهما يكشف عن صلة واضحة تجعل كل منهما ينسجم انسجاماً تاماً مع الآخر. لقد قدم الكتاب صورة الكون الفيزيائي بسعته الهائلة التي قدمتها فيزياء الكونيات، متشكلاً بانفجار كوني عظيم منذ 15 مليار سنة. وقد حُكمت مادته في كل ظهوراتها بقوى الكموم والثقالة، حيث تعمل كل منهما حسب قوانين خاصة ما زال الجمع بينها في نظرية واحدة يستفرغ طاقات كبار علماء الفيزياء. وقد شكل هذا الكون خط تطوره الجواني، من خلال عمل النظام في موقعه داخلاً.

كما عرض الكتاب كوكب الأرض بظروفه الخاصة، الناتجة عن تناغم خاص لقوى الفيزياء، مما سمح له بأن يكون حاضنا لوجود مادي جديد هو متجسدات المادة الحية، التي ظهرت تنوعاتها النباتية والحيوانية محكومة بمسار التطور الجواني ذاته، عن طريق خصائص الحركة الحية، التي يظهر من خلالها الحفاظ على الوجود في وحداته الفردية أمراً واضحاً. من خلال خط تطوري يجري جوانياً، رصده علماء الأحياء في سلسلة تولده الزمني، عملتْ خلالها الطفرات الداخلية في تشكيل الأجناس الحية الجديدة لهذه السلسلة.

ثم قام الكتاب بالكشف عن أن الجنس الإنساني بحركته التي يحافظ بها كل فرد على وجوده كأي جنس حي آخر، قد غير طبيعة خط التطور الذي كان حاكماً للكون الفيزيائي وباقي الأجناس الحية بلا استثناء،

فأنتج بداية خط تطوري جديد في مسار براني، يقوم فيه التطور بإكمال إعمار الكون بالحركة الموحدة، الظاهرة في سلوك كل فرد منّا.

لقد عرض الكتاب التغير الذي حدث في حركة الإنسان الحية هذه، فكشف أن توحيداً لقوى الكون قد تم على الارض، وأن القوى التنظيمية الحية الظاهرة قد خلقت جسم الإنسان المادي مختلفاً عن الحيوان بانفتاح داخله الذي شكل موقعاً داخلياً للنظام الحي، ومتواصلاً ضرورياً مع الموقع الخارجي للنظام الحي في علاقة روحية سمحت للتطور الكوني أن ينتج جزئيات وجود الكون من الخارج على يد الإنسان. وهكذا قرأ الكتاب تاريخ الإنسان المشكل للوجود خارجاً، ونظر إليه متكاملاً في كافة مراحله، لأنه رآه انتاجات لعملية البناء الخارجي الناتجة من واقعة التوحيد الكوني في مستوى النظم. وبذلك قدم صورة الوجود كما عرضها ملخص النظرية في مطلع الكتاب دون أن ينزلق البحث إلى الخوض في تقنيات البحث النظري.

لقد احتاج الأمر إلى نقلة في استخدام المنهج العلمي يضعه في مكانه المناسب لإنتاج الرؤية. فبدلاً من انطلاق البحث عن النظرية من الكون الفيزيائي، انطلق البحث من الإنسان من خلال دراسة حركته وآثارها المادية. وبدلاً من مراقبة بيولوجيا الإنسان ودقة تركيب جسمه، ركَّز المنهج على الحركة التي تطلقها الأجسام الإنسانية في تواصلها مع الخارج. وبدلاً من البحث في خصائص ثقافة الإنسان وإنتاجاته الفكرية والعاطفية، في محاولة كشف الملغز منها، التزم البحث بالانطلاق من لغز اختراع التكنولوجيا كناتج مادي لحركته، وطبيعة العلاقة بينها وبين الإنسان في إطار الاجتماع الإنساني.

نقطة انطلاق الرؤية الجديدة هي اختراع التكنولوجيا. كيف أمكن لحركة الجسم الإنساني المطابقة في جذرها لحركة الحيوان، أن تنقل خصائص الحركة الحية إلى المادة الجامدة؟ هذا هو جوهر المحنة الفكرية التي انطلق منها البحث، ومن هنا كان البحث في حركة الإنسان، وهو بحث جعل العمل ينضوي في خانة الفيزياء النظرية بحق، فأدخل دراسة الإنسان في مسار دراسة الحركة الكونية التي افتتحها نيوتن كاشف قوانين الجاذبية. وهكذا كشفت الملاحظة الدقيقة لجزئيات الواقع ولإرث تاريخ الإنسان، عن رؤية إبداعية تقول إن جسم الإنسان ليس حلقة في سلسلة تطور الحيوان، بل هو بدء محطة كونية جديدة، تتم فيها واقعة توحيد كوني بادئة بالمادة الحية، شكل التوحد الاجتماعي في التجربة الإنسانية مظهره المادي الأول، ثم أخذت منذ القرن السادس عشر تطل بدايات موجة جديدة من هذا التوحيد الكوني، تجمع بين الإنسان والطبيعة. لقد رصدتها الرؤية في تشكيل الدولة الحديثة، التي شكّلت مقدمة ضرورية لاختراع المحرك البخاري، ولانطلاق التطور التكنولوجي لاحقاً. وكان هذا ما أنتج تأثيرات واضحة في منظومة المناخ، وفي نظام البيئة الطبيعي للأرض.

البحث في الحركة الإنسانية جعل هذا البحث يندرج في سياق المنهج العلمي التجريبي. وكانت متابعة دراسة متغيرات الحركة الإنسانية عبر التاريخ هي الرابط الذي يصل بين ذلك كله، والذي مكّن من فهم اختراع التكنولوجيا كناتج طبيعي لمسار تشكل الحركة الحية الموحّدة. وهذا ما أعطى القدرة على إيجاد روابط بين كامل إنتاجات الإنسان المعرفية (ثقافاته) عبر تاريخه الممتد على زمن تجربته، وبين تشكيلات العلم التجريبي الذي امتلك قدرة اختراع التكنولوجيا. وهكذا أظهرت الرؤية كيف أن الحركة الإنسانية- المنطلقة من تفاعلات البيولوجيا- بتميزها عن حركة الحيوان، شكلت الحبل الرابط بين كل أجزاء هذا البنيان الهائل الذي

أنشأه وجود الجنس الإنساني. لقد كانت الحركة هي السلسلة المتصلة التي يستحيل قطعها، وهي تصل بين وجود الإنسان والحيوان من ناحية، وتصلهما من ناحية أخرى بوجود الكون الفيزيائي المنطلق بالحركة من الانفجار الكوني العظيم. وهكذا أمكن باعتماد محور درسي جديد، مبني على دراسة خصائص الحركة، أن يقدم الكتاب صورة واحدة لكل هذه الوجودات، وضعت قواعد إنهاء القلق الذي أصاب أينشتاين، وألغت العجز عن إنتاج نظرية علمية تسع كل الأشياء، بحيث لم تعد الجهود المبذولة في هذا الاتجاه سيمفونية ناقصة.

هل يخفي هذا الكتاب خلف تصوراته المقدمة هدفاً باطناً يندفع لكي ينشره بين قطاعات إنسانية مختلفة بخفاء وسرية؟
هل يحقق الكتاب عناصر الشفافية فيه، أم أنه يتلفع بكل أجزاء تصوراته ليصل إلى أمر سري خفي لم يعلن عنه؟

هذا ما تستطيع قارئي العزيز أن تتبينه. إن للكتاب هدفاً عملياً يريده، تغذيه كل مقدمة اعتمدها، أو نتيجة نجح في التوصل إليها. إن ما سعى إليه الكتاب هو إنتاج تصورات واحدة عن الوجود بشقيه الحي والجامد، يستطيع كل فرد من أجيال الإنسانية المعاصرة أن يتأكد من واقعيتها وعمليتها، وأن يستخدمها قاعدة لرؤية تسمح له أن يتعامل مع التطور الإنساني الحاصل بكل فعالية، وأن تساهم في إزالة قلقه وذعره، مما يساعد في زيادة مساهمته الفردية في التقدم الإنساني. فإن نجح الكتاب في كشف ذلك فهو كتاب ناجح حتماً، وإن عجز عن ذلك، فهذه ليست نهاية الطريق، بل هي إعلان جريء أطلقه فرد من هذه الإنسانية العظيمة، خاض تجربة خاصة، أدخلته في محنة فكرية أوصلته إلى كشف خطوط علاقة تفاعلية بين الكون والإنسان، تجعل قراءتهما في سياقٍ واحد ممكنة، ويقوم كل منهما بالتكامل مع الآخر.

كون هائل لم يعد مصطلح السموات والأرض قادراً على الدلالة عليه، وإنسان لم يعد كائناً حياً يعمل للحفاظ على وجوده بمعايير ضبط الخير والشر والصحة والخطأ النابعة من فرديته. إن الصورة التي قدمها الكتاب تعرض وجوداً لأشياء تبدو متنافرة لا جامع بينها، تصدم الناظر إليها، والمحاول كشف كنهها وربط أجزائها كلها. لقد قام هذا الكتاب بالاجتراء على ذلك والتفكير في غير المألوف، ولك أنت أيها القارئ الحكم عليه بعد ذلك.

مهما كبر الحدث، فهو لن يشغلنا عن جوهره، وهو أنت أيها الإنسان كفرد من جنس إنساني واحد وعظيم، يتموضع على سطح الأرض، ويؤدي دوراً كونياً، يساهم من خلاله بانطلاقة جديدة على مستوى الكون كله.

المحتويات

المقدمة 5

لماذا الإنسان؟ 13

الجزء الأول: صورثلاث لوجود واحد!! 21

الفصل الأول: من المعرفة إلى العلم، رحلة الداخل إلى الخارج 23

الفصل الثاني: الفيزياء الطريق الأكثر إضاءة، ثم تاه أينشتاين 31

الفصل الثالث: صحيحٌ كاريل، البيولوجيا ليست الطريق 45

الفصل الرابع: لماذا لم تكن الفلسفة....؟ 55

الفصل الخامس: حين لا تنجدنا الفلسفة، هل نلجأ إلى الدين؟ 61

الجزء الثاني: السيمفونية الكاملة 67

الفصل السادس: شكراً نيوتن، الحل كامن في الحركة 69

الفصل السابع: الانفجار العظيم للنظام 81

النظام والمادة 85

سلسلة التطور والإنسان "الحلقة المفقودة" 93

السلوك الإنساني "التوحيد" 99

الجزء الثالث: رحلة التوحد من الإنسان إلى الكون 111

الفصل الثامن: التوحد حسب الجسد (الحب)	**117**
الفصل التاسع: التوحد حسب المعرفة (اللغة)	**129**
الفصل العاشر: التوحد حسب العمل (التكنولوجيا)	**147**
النار التي صهرت العالم	151
ماذا فعلت جلالة الملك؟	160
الدولة الحديثة: إنسان وأرض ثم تكنولوجيا	169
ثم وصلنا إلى هنا	179
الجزء الرابع: آفاق الألفية الثالثة السعيدة	**185**
الفصل الحادي عشر: إلى عالم آخر موحد	**187**
المرأة	188
الحرية والديمقراطية	195
التكنولوجيا إلى أين؟	199
الخاتمة	**211**
المحتويات	**221**
المراجع	**223**

المراجع

---

[1] الله والعلم: جان غيتون، غريشكا وإيغور بوغدانوف. ترجمة د. خليل أحمد خليل، دار عويدات الدولية الطبعة الأولى 1992 .صـ **34.**

[2] المصدر السابق.صـ **34-35.**

[3] المصدر السابق.صـ **30.**

[4] أسرع من سرعة الضوء: جواو ماغيجو. ترجمة نضال شمعون، دار طلاس للنشر، الطبعة الأولى2007. صـ **3.**

[5] المصدر السابق. صـ **84.**

[6] المصدر السابق. صـ **82.**

[7] المصدر السابق. صـ **15.**

[8] المصدر السابق. صـ **94.**

[9] الله والعلم: جان غيتون، غريشكا وإيغور بوغدانوف. ترجمة د. خليل أحمد خليل، دار عويدات الدولية الطبعة الأولى 1992 .صـ **18.**

[10] أسرع من سرعة الضوء: جواو ماغيجو. ترجمة نضال شمعون، دار طلاس للنشر، الطبعة الأولى2007. صـ **100-101.**

[11] المصدر السابق. صـ **101.**

[12] المصدر السابق. صـ **82-83.**

[13] من يلعب النرد: إيان ستيوارت. ترجمة د. بسام أحمد المغربي، دار طلاس للنشر، الطبعة الأولى1994. صـ 10.

[14] ما بعد أينشتاين – البحث العالمي في نظرية الكون: ميشيو كاكو. ترجمة فايز فوق العادة، أكاديميا انترناشيونال، الطبعة الأولى 1991. صـ **56.**

[15] أسرع من سرعة الضوء: جواو ماغيجو. ترجمة نضال شمعون، دار طلاس للنشر، الطبعة الأولى2007. صـ **121.**

[16] المصدر السابق. صـ **255.**

[17] المصدر السابق. صـ **254.**

[18] الإنسان ذلك المجهول: ألكسيس كاريل. ترجمة شفيق أسعد فريد، طبعة مكتبة المعارف 1986. صـ **7.**

[19] المصدر السابق. صـ **7.**

[20] المصدر السابق. صـ **54.**

[21] المصدر السابق. صـ **56.**

[22] المصدر السابق. صـ **57.**

[23] المصدر السابق. صـ **62.**

[24] المصدر السابق. صـ **63.**

[25] المصدر السابق. صـ **64.**

[26] المصدر السابق. صـ **70.**

[27] ما بعد أينشتاين – البحث العالمي في نظرية الكون: ميشيو كاكو. ترجمة فايز فوق العادة، أكاديميا انترناشيونال، الطبعة الأولى 1991. صـ **66.**

[28] الإنسان ذلك المجهول: ألكسيس كاريل. ترجمة شفيق أسعد فريد، طبعة مكتبة المعارف 1986. صـ **35.**

[29] ما بعد أينشتاين – البحث العالمي في نظرية الكون: ميشيو كاكو. ترجمة فايز فوق العادة، أكاديميا انترناشيونال، الطبعة الأولى 1991. صـ **66.**

[30] الله والعلم: جان غيتون، غريشكا وإيغور بوغدانوف. ترجمة د. خليل أحمد خليل، دار عويدات الدولية الطبعة الأولى 1992.صـ **13.**

[31] فلسفة الكوانتم- فهم العلم المعاصر وتأويله: رولان أومنيس. ترجمة أ.د. أحمد فؤاد باشا، أ.د.يمنى طريف الخولي. سلسلة عالم المعرفة، 2008: صـ **19.**

[32] المصدر السابق: صـ **21.**

[33] المصدر السابق: صـ **23.**

[34] المصدر السابق: صـ **25.**

[35] المصدر السابق: صـ **26.**

[36] المصدر السابق: صـ **26.**

[37] المصدر السابق: صـ **26.**

[38] من يلعب النرد: إيان ستيوارت. ترجمة د. بسام أحمد المغربي، دار طلاس للنشر، الطبعة الأولى1994. صـ **10.**

[39] أسرع من سرعة الضوء: جواو ماغيجو. ترجمة نضال شمعون، دار طلاس للنشر، الطبعة الأولى2007. صـ **255.**

[40] المصدر السابق. صـ **255.**

[41] الإنسان ذلك المجهول: ألكسيس كاريل. ترجمة شفيق أسعد فريد، طبعة مكتبة المعارف 1986. صـ **54.**

[42] المصدر السابق. صـ **57.**

[43] ما بعد أينشتاين – البحث العالمي في نظرية الكون: ميشيو كاكو. ترجمة فايز فوق العادة، أكاديميا انترناشيونال، الطبعة الأولى 1991. صـ **66.**

[44] فلسفة الكوانتم- فهم العلم المعاصر وتأويله: رولان أومنيس. ترجمة أ.د. أحمد فؤاد باشا، أ.د. يمنى طريف الخولي. سلسلة عالم المعرفة، 2008: صـ **66.**

[45] المصدر السابق: صـ **63.**

[46] الله والعلم: جان غيتون، غريشكا وإيغور بوغدانوف. ترجمة د. خليل أحمد خليل، دار عويدات الدولية الطبعة الأولى 1992.صـ **88.**

[47] المصدر السابق.صـ **18.**

[48] أسرع من سرعة الضوء: جواو ماغيجو. ترجمة نضال شمعون، دار طلاس للنشر، الطبعة الأولى2007. صـ **254.**

[49] نظريات الدولة: أندرو فنسنت. ترجمة د.مالك أبو شهوة، د.محمود خلف، دارالجليل ودار الرواد الطبعة الأولى 1997 صـ **16.**

[50] أوروبا والمسيحية- 3 - تمزق الكنيسة. تأليف يان دوبرا تشينسكي. ترجمة د.كيرو لحدو، نشر دار الحصاد ط1 2007 صـ **208.**

[51] المصدر السابق صـ **208.**

هذا الكتاب

ذرة، خلية، حلقة مفقودة، إنسان، دين، أسرة، دولة، تكنولوجيا، عولمة.....؟!!!!!

أنّى نظر إنسان القرن الحادي والعشرين حوله وجد كل جزئية من الوجود تقوده إلى سؤال مركزي لا مهرب منه، من أنت أيها الإنسان؟ وماذا تفعل على سطح الأرض؟

لقد قدم لنا كل من الدين والفلسفة والعلم تصوراته عن الإنسان والوجود كل حسب رؤيته، وكانت تلوينات كثيرة عجزت عن تقديم صورة واضحة لهذا كله.

يقدم لنا هذا الكتاب رؤيته الفريدة عن الوجود الإنساني، جامعاً في صورةٍ واحدة أجزاء تبدو متنافرة لا رابط بينها، كاشفاً عن علاقة الإنسان بالكون الفيزيائي، والتي تشكل مدخلاً ضرورياً لفهم الإنسان واستقراء مستقبله.